

الملك عبد العزيز - رحمه الله -

وخصائص الدولة ، والقائد ، والدين ، والرقعة ، والأمة

[٥ - ١]

الاستفتاح ، والمقدمة :

الحمد لله الذي أيّد الإسلام بمبعث سيّد الأنام ، وجعل مدده شاملاً لكل خليفة وإمام ؛ فهم ظل الله في أرضه يأوي إليه كل ملهوف ، والزعماء ^(١) القائمون بنهي كل منكر وأمر كل معروف .. قلبهم في أطوارها دولاً ، وخالف بينهم اعتقاداً وقولاً وعملاً ، وجعل قصصهم : عبرة لأولي الألباب ، وتذكرة في كل خبر وكتاب ؛ فمن عدل منهم كان أوّل السّبعة ، ومن ظلم كان في أخباره شناعة .. أحمدته حمداً كثيراً على أن عرّفنا مَنْ صلح منهم ومن فسد ، ومن

(١) هذا هو الرسم المعتاد .. أي وضع رأس الألف المهموزة وسط السطر ، ولا مسوِّغ لهذا التشويه إلا كراهة توالي ألفين .. وتوالي ألفين في الواقع ليس مكروهاً ، ولا مسوِّغ لدعوى الكراهة في إبانة الرسم عن النطق مطابقة .. والمكروه المستبشع حقاً تغيير صورة الحرف بلا مسوِّغ معتبر ؛ ولهذا فالرسم الصحيح والزعماء .

أبو

عبد الرحمن

ابن عقيل

الظاهري

* محمد بن عمر
ابن عبد الرحمن
العقيل .
- ماجستير من
المعهد العالي
للقضاء في
التفسير ، وله
مشاركات كثيرة
في التأليف
والمقالة والإذاعة ،
وعضو مجمع
اللغة العربية
بالقاهرة ،
ورئيس الشؤون
الثقافية بجمعية
الثقافة والفنون ،
ورئيس تحرير
مجلة التوباد ،
وأول رئيس
للنادي الأدبي
 بالرياض .

الطبعة

ذو الحجة ١٤٢٤هـ - ربيع الأول ١٤٢٥هـ

فبراير - مايو ٢٠٠٤م

الستتان السادسة والسابعة
العددان : الرابع والخامس والعشرون

هو في الوغى مدد، وبين الأنام عدد .. ونشكره على أن أخرنا عن كل الأمم ، وهذا لعمري من أعظم الإحسان وأسبغ النعم ؛ لِنُعَاين ممن تقدم آثارهم، ونشاهد منازلهم وديارهم ، ونسمع - كما وقعت وجرت - أخبارهم .. أعظم بها من مِنَّة جليلة ، وكرامة وفضيلة ؛ إذ أخبرنا عنهم ما لم يُخَبِّروه عنا، ورأينا منهم ما لم يروه منا !! .. فلنقابل هذه المنة بالإنصاف ، في كل مترجَمٍ ومن إليه انضاف ؛ فنخبر بذلك مَنْ تأخر عصره من الأقوام ، بأفواه المحابر وألسن الأقلام ؛ ليقتردي كل ملك يأتي بعدهم بجميل الخصال، ويتجنب ما صدر منهم من اقتتراف المظالم وقبيح الفعل .. ولم أقل كمقالة الغير ^(١) : إنني مستدعي إلى ذلك من أمير أو سلطان .. ولا : ^(٢) مطَّلب به من الأصدقاء والإخوان ^(٣) .. بل ألفتة لنفسي ، وأينعته بياسقات غرسي ؛ ليكون لي في الوحدة جليساً ، وبين الجلساء مسامراً وأنيساً .. ولا أنزهه من خلل وإن حوى أحسن الخلال ، ولا من زلل وإن طاب مورد الزلال .. وأشهد أن لا إله ^(٤) إلا الله وحده لا شريك له ، شهادةً لا يُنقص قدر إيمانها بعد تأكده، ولا

(١) هكذا في الأصل المطبوع ، والأفصح غيري .. على أن تعريف غير وكل وبعض محل خلاف ، وقد حققته في إحدى تعليقاتي ، ورَجَّعْتُ صحته .

(٢) وضعت النقطتين الرأسيتين على تقدير المنفى المحذوف ، وهو «أقول» .

(٣) قال أبو عبدالرحمن : وهكذا كان كُتَيْبِي هذا ألفتة بدافع ذاتي ، وعشق علمي .

(٤) هذا هو الرسم المعتاد ؛ فإن طواع الطبع رسموا ألف مد صغيرة بين اللام والهاء .. والصحيح الراجح رسم صورة الحرف كاملة ، وهو اللام بمدتها هكذا «إلاه» ، والتشكيل يميز أداة الاستثناء، وما وُضِع التشكيل إلا للتمييز وإبقاء صورة الحرف ، وما لم يشدد فهو على التخفيف ، و«إلأ» الاستثنائية مشددة .. هذا لوصح لغة أن «إلاه» استثناء سليم التعبير لغة .. وقد ورد في ضرورة الشعر : أن لا يجاورنا إلأك ديارُ .. ولقد جَرَّيْتُ تطبيقاً مع الرسم المعتاد ، وبيّنت تأصيلي بكتابي «رسم القلم ورموزه» .

يُخَفِّضُ مَجْدَ إِتْقَانِهَا بَعْدَ تَشْيِيدِهِ..^(١) وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي كان لقول الحق أهلاً ، ومن جعل بتشريعه طرق الفلاح لسالك سننه سهلاً .. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأتباعه»^(٢) .

* * *

أما بعد : فإن التأليفات والمباحث على مناهج الأكاديمية^(٣) ضرورة علمية ؛ لما فيها من تبويب ، وترتيب ، وتسلسل معارف وأفكار .. بيد أن التزامها مدى العمر قد يثد استرسال الفكر واقتناص شوارده ، ويُضَيِّعُ بعض انشغال المعارف المتدفقة ؛ للانشغال بصناعة الأكاديمية الصارمة ذات الأبواب والفصول والمباحث ، وتوحيد مادة المسألة أو المبحث تحت عنوان واحد ، وتوحيد المسائل أو المباحث تحت عنوان فصل واحد .. إلخ .. وهذا يقتضي أناة: بأن يجمع الباحث فقرات ومواد بحثه في قصاصات (فيش) حتى إذا أنهى قراءاته وتقميشه أفرغ ذلك في قوالب المخطط المنهجي .. وذلك يعوق التأليف ، ويقلل من الإكثار فيه ، ويحرم الباحث العربي من قيمة الإطناب والتكرار (وهما قيمتان بلاغيتان في بعض الأحيان) ، ويُذهب معظم الحيوية في جمع المادة وتخريجها ؛ فإذا جاء وقت الاستباط والدراسة الإبداعية إذا

(١) للنقطتين الأفقيتين دلالات منها قطع التعاطف بين جملتين متواليتين ليستا متعاطفتين في الواقع ؛ لأن «وأشهد أن سيدنا» معطوفة على «وأشهد أن لا إله إلا الله» ، وليست معطوفة على «ولا يخفض» .

(٢) هذه مقدمة جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الآتباكي [٨١٣-٨٧٤هـ] لكتابه «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» ٢/١/١ .. استعرتها منه ؛ لجمالها ، ومناسبتها .

(٣) قال أبو عبد الرحمن : هذا مصطلح نقتضيه حتى يكون مفردة عربية ؛ بطول الإلف والاستعمال .. وإنما نقتضيه ولا نعره ؛ لأنه لا يوجد مفردة تدل على معناه ، وهو يعني أي منظمة أو جامعة يقوم على ذويها وبرامجها ترقية المعارف البشرية .. وأكاديمية (أقاذميا) مدرسة أسسها أفلاطون في أثينا عام ٨٣٧ ق م ، وهي أقدم مدرسة فلسفية .. انظر المعجم الفلسفي الصادر عن مجمع اللغة ص ١٩ - ٢٠ ، والموسوعة العربية العالمية ٢/٤٣٣ - ٤٣٤ .

بالنفس قد حَفَّت أَلْقُها ، وأدركها الملل ؛ فتطلَّعت إلى موضوع آخر !! .
وقد يسرف بعض من يدَّعي المنهجية الأكاديمية في العناوين الكبيرة والجزئية الفرعية .. ومع هذا تقلُّ مضامين العنوان، وتتصف بالضحالة العلمية والفكرية! .
وقد أثرت هذه المرة أن أجعل نفسي على سجيتها، وفكري على استرساله، ومعارفي على تدفقها وانثيالها .. وكل ما فعلته أنني تحللت من شكل المنهجية الأكاديمية - أبواباً ، وفصولاً ، ومباحث ، وفقرات ، وعناوين متعددة - .. أما المنهجية الموضوعية فلا قدرة لي على التحلل منها ؛ لأنها قَدَرِي العلمي ؛ وذلك بدعم الفكرة بالبرهان ، وتوثيق المعلومة ، وبيان هُوية المصدر البيان الكافي ، وترابط الكلام باقتضاء المناسبات ، والتعويض عن العناوين والفصول .. إلخ بفهرس مفصل آخر هذا الكتيب بجزئيات مباحثه .

وقد يحصل استطراد ، أو تكرار ، أو إطناب ؛ لمقصد بلاغي هو التأكيد، والتذكير، والتلذذ بذكر ما جرى تكراره والإطناب فيه ؛ لأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.. إلا أن كلامي لا يخرج عما هو مرسوم في عنوان الكتاب، وهو الكلام عن الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود بن مقرن رحم الله جميعهم^(١) من خلال الخصائص الخمس :

الخصيصة الأولى خصيصة الدولة ، وهي أنها مُلْك رحمة لا ملك جَبَرِيَّة ،

(١) ذكر موزل في كتابه شمالي نجد أن مولد الملك عبدالعزيز عام ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م) ، وقال الشيخ محمد نصيف : ولد عام ١٢٨٥هـ .. وقال المحققون : ولد عام ١٢٩٣هـ .. وقال محمد العلي المطوع - في كتابه «النجم اللامع للنوادر جامع» - : ولد عام ١٢٩٥هـ .. وقال ابن عبدالقادر في كتابه عن تاريخ الأحساء : ولد عام ١٢٩٦هـ .. وقال الريحاني وفؤاد حمزة في كتابيهما : ولد عام ١٢٩٧هـ .. انظر : شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز لخير الدين الزركلي ١/ ٥٧ - ٥٨ ، وجزيرة العرب في القرن العشرين لحافظ وهبة ص ٢٢٤ ، وملوك المسلمين المعاصرين لأمين سعيد ٩/١ ، والمملكة العربية السعودية للدكتور العثيمين ==

ويجري التعرّيج على ملك الجبرية ؛ لأنّ الضد يُظهر حسنه الضدُّ ، والكلام عن خصيصة القائد من تمام الكلام عن خصيصة الدولة؛ فهاتان خصيستان.

== ٤٥/٢ .. قال خير الدين الزركلي في شبه الجزيرة ٥٨/١ : «تناقل أكثر الكاتبين عن الملك عبدالعزيز في حياته أنه ولد سنة ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م) حتى إن المؤرخ الأديب خالد بن محمد الفرج وضع حساباً لذلك بالحروف الأبجدية وهو : «الإمام عبدالعزيز بن الإمام عبدالرحمن الفيصل آل سعود»، وجاء مجموع هذه الحروف ١٢٩٧ ، وقويت هذه الرواية بما نُقل عن لسان عبدالعزيز : من أنه كان غلاماً حينما خرج من الرياض سنة ١٣٠٨هـ (١٨٩١م) ملفوفاً في كساء أشبه بالخِرَج .. غير أن المتصلين بعبدالعزيز من زمن طويل يذكرون أنه بما جُبِل عليه من حيوية كان يكره أن يُشعر نفسه بالاقتراب من سن الشيخوخة أو دخولها ؛ فما زال يكرر أنه يوم هجرته مع أبيه من مسقط رأسه كان ابن إحدى عشرة سنة حتى صدّق هو نفسه ، ونُقل عن لسان الأستاذ الشيخ محمد نصيف قوله : أخبرني الملك بأن ميلاده كان سنة ١٢٨٥هـ (١٨٧٦م) .. والحوادث لا تؤيد هذا .. على أنني بعد وفاة عبدالعزيز رجعت إلى أديب آل سعود وعالمهم الأمير عبدالله بن عبدالرحمن أخي الملك ؛ فسألته فأجاب : كان رحمه الله يود أن يُقال : إن مولده سنة ١٢٩٧هـ ، ولكن الصحيح أنه ولد في أواخر عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) .. ورأيت في قيود عندي : أنه لما ولد كان أبوه عبدالرحمن في بلدة ضرما ، وبُشِّر بولادته ليلة ١٩ ذي الحجة ؛ فأضفت هذا إلى ذاك ، ورجحت أنه الصواب» .. وقال الدكتور العثيمين في كتابه المملكة العربية السعودية ٤٥/٢ عن دعوى أن مولده عام ١٢٨٥هـ : «نقل هذه الرواية الزركلي: عن العالم محمد نصيف .. لكنه قارن هذا التاريخ الهجري بعام ١٨٧٦م .. وأوضح أن المقارنة خطأ ؛ فسنة ١٢٨٥هـ يقابلها عام ١٨٦٨م .. على أن الزركلي استبعد صحة هذه الرواية على أية حال» .

قال أبو عبدالرحمن : ليست العبرة بمقارنة الزركلي ، وإنما العبرة بما حدده نصيف من التاريخ الهجري : فيقارن بما يوافقه من الميلادي .

وقال شيخنا عبدالعزيز ابن حنطي - رحمه الله - في نبذة تاريخية نشرت بالعدد الثالث من مجلة الدرعية : «ولد الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل وفقه الله للخير في ٢٩ ذي الحجة سنة ١٢٩٧هـ» .

قال أبو عبدالرحمن : وسيأتي في هذه المقدمة إن شاء الله نص لبنا ميشان يزعم فيه أن مولد الملك عبدالعزيز في ربيع أول عام ١٢٩٨هـ (فبراير ١٨٨١م) .

والخصيصة الثالثة خصيصة الدين ، وهي السلفية المقيّدة بما كان عليه الرسول ﷺ ؛ إذ هذه هي السلفية المعتبرة .

والخصيصة الرابعة خصيصة الرقعة ، وهي جزيرة العرب التي ميزها الله بخصائص فضل شرعية .

والخصيصة الخامسة خصيصة أهل الجزيرة بالجمع بين الدين السلفي والعروبة الأصيلة ، وللعرب خصائص فضل شرعية .. مع التوسع بتحشيات اقتضتها المناسبة، ومداخلات ضرورية أو كمالية تناولتها هذه المقدمة .. وولاية عبدالعزيز رحمه الله تلاحُم محكم بين هذه الخصائص الخمس الكريمة .

وقد أوجز ترجمة الملك عبدالعزيز خير الدين الزركلي رحمه الله ؛ فقال : «ابن سعود (١٢٩٣ - ١٣٧٣هـ/ ١٨٧٦ - ١٩٥٣م) : عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود : من آل مقرن: من ربيعة بن مانع : من ذهل بن شيبان (١) .. ملك المملكة العربية السعودية الأول ، ومنشؤها (٢) ، وأحد رجالات الدهر . ولد في الرياض بنجد ودولة آبائه في ضعف وانحلال ، وصحب

(١) قال أبو عبدالرحمن : بل من بني حنيفة : من بني بكر بن وائل .. وقد حققت ذلك في تعليقاتي على «مثير الوجد» الذي نشرته دارة الملك عبدالعزيز بمناسبة الذكرى المئوية .

(٢) الرسم المعتاد «ومنشئها» ، وهو أعظم سوءً من الرسم الآخر «منشؤها» .. وملاحظة حركة ما قبل الألف المهموزة - مهما كانت قوتها - لا يسوّغ إلغاء مراعاة حركتها هي ورسمها كاملاً؛ لأن المراد رسم يطابق النطق ، وليس المراد تحقيقاً في الصرف .. ومراعاة حركة الألف المهموزة (وهي الضم ههنا) لا يسوّغ تشويه صورتها برسم رأسها على واو - وإن كانت الواو تتوب عن حركة الضم في الإعراب - ، بل تُرسم صورتها ، وتُشكّل بالضم حال الضرورة .. والمسألة كما أسلفت عن رسم يطابق النطق، وليست عن تحقيق حروف الإعراب وحركاته ؛ لهذا فالرسم الصحيح «ومُنْشِأُهَا» .

أباه في رحلته إلى البادية يطارده عدوه ابن رشيد محمد بن عبدالله ، واستقر مع أبيه في الكويت سنة ١٣٠٩هـ (١٨٩١م) ، وشب فيها ، وشن الغارات على آل رشيد وأنصارهم ، وفاجأ عامل ابن رشيد في الرياض بوثبة ليس هنا مجال وصفها ؛ فاستولى عليها ، وجدد فيها إمارة آل سعود (سنة ١٣١٩هـ - ١٩٠٢م) ، وضم إلى الرياض ما هو قريب منها : الخرج ، والمحمل ، والشعيب ، والوشم ، والحوطة ، والأفلاج ، ووادي الدواسر .. واستولى على بلاد القصيم سنة ١٣٤٢هـ بعد معارك مع جبار آل رشيد عبدالعزيز بن متعب وجيوش من الترك العثمانيين ، واستولى على الأحساء والقطيف سنة ١٣٣٠هـ ، وأخرج منها آخر من بقي من عمال العثمانيين وعساكرهم في تلك الأصقاع .. وكانت لآل عائض إمارة في أبها من بلاد عسير في الجنوب تمردت عليه ؛ فأزالها ، ثم ضم عسيراً كلها إلى ملكه ، وأزال إمارة آل رشيد في الشمال .. وكانت بينه وبين الملك حسين بن علي الهاشمي وابنه علي بن الحسين أحداث انتهت بالقضاء على دولة الهاشميين في الحجاز سنة ١٣٤٣هـ / ١٩٢٥م ، وأصبحت مكة عاصمة آل سعود ، ونودي به ملكاً على الحجاز ونجد ، وكان من قبل الأمير والسلطان والإمام .. وثار عليه بعض كبار قاداته - فيصل الدويش ، وآخرون - سنة ١٣٤٧ - ١٣٤٨هـ ؛ فبطش بهم ، ومحا آثارهم .. وبرزت فتنة ابن رفادة في الشمال سنة ١٣٥١هـ ؛ فوجه إليه قوة سحقته ومن معه في معركة واحدة .. وأعلن في هذه السنة [١٣٥١هـ] [١٩٣٢م] توحيد الأقطار الخاضعة له ، وتسميتها «المملكة العربية السعودية» ، ولم يشغله خوض المعارك ، وتجهيز الجيوش ، وقمع الفتن : عن تنظيم بلاده ، وسن ما يلائمها من النظم ، وإنشاء العلاقات السياسية والاقتصادية مع الدول العربية والأجنبية .. وفاض البترول في بلاده وكانت فقيرة ؛ فانتعشت واتجهت إلى العمران ، وحل الأمن محل الخوف في الصحاري والحوضر ، وحول من بدء

قيامه كثيراً من أهل الخيام إلى سكان قرى أنشأوها .. سميت الهجر جمع هجرة ، ووصل مملكته المترامية الأطراف بشبكات لاسلكية ، وأتى بكثير من الطائرات سهّلت على الناس التنقل، وأنشأ موانئ، وعبّد طرقاً، وأعفى الحجاج من رسوم كانت ترهقهم ، واستكثر من الأطباء والزراعيين والمدرسين ، وأرسل بعثات من أبناء الحجاز ونجد إلى الممالك القريبة والبعيدة ؛ لتلقّي العلم في جامعاتها، ولم تقم حركة وطنية في بلد عربي إلا شد أزرها، وكان موفقاً ملهماً محبوباً .. عمر ما بينه وبين ربه ، وما بينه وبين شعبه .. شجاعاً بطلاً انتهى به عهد الفروسية في شبه الجزيرة.. كريماً لا يُجارى ، خطيباً حديثاً .. لا يُبرم أمراً قبل إعمال الروية فيه.. يستشير ويناقش ، ويكره الملق والرياء .. توفي بالطائف ، ودفن في الرياض ، وخلفه ابنه الملك سعود الأول^(١) وليّ عهده في حياته ، واستوفيت الحديث عنه^(٢) في كتابٍ أفردته لسيرته .

وقد كتب عنه وعن بلاده في أيامه كثيرون [قال أبو عبدالرحمن : الأفضح كثير] بالعربية وغيرها .. من ذلك: «تاريخ نجد الحديث» ط، و«ملوك العرب» ط كلاهما لأمين الريحاني، و«قلب جزيرة العرب» ط، و«البلاد العربية السعودية» ط كلاهما لفؤاد حمزة ، و«جزيرة العرب في القرن العشرين» ط لحافظ وهبة، و«أحسن القصص» ط، و«الخبر والعيان» خ كلاهما لخالد الفرّج، و«سقر الجزيرة»

(١) قال أبو عبدالرحمن : هو الأول بصفة الملك ، والإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود ابن مقرن هو الأول في الولاية ، وسعود بن فيصل الثاني ، وسعود بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثالث .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : أي عن الملك عبدالعزيز ، وهو كتابه شبه الجزيرة ، ثم اختصره في كتاب سماه الوجيز .

ط لأحمد العطار ، و«آل سعود في التاريخ» ط لفريد أبي عز الدين، و«الملك ابن سعود» ط لمحمد صبيح، و«الرجل» ط لنجيب نصار، و«الملك عبدالعزيز» ط لعبدالله حسين، و«لمحة من سيرة الملك عبدالعزيز» ط لمحيي الدين رضا، و«سيد الجزيرة العربية» ط لعمر أبي النصر، و«الإمام العادل» ط لعمر أبي النصر ، و«الإمام العادل» ط لعبد الحميد الخطيب، و«ابن سعود، سيد نجد وملك الحجاز» ط مترجم عن الإنجليزية ، والأصل Prince of Arabia [أمير الجزيرة العربية] لكنث وليمز Kenneth Williams، و«ابن سعود» ط لمصطفى الحفناوي ، و« L'Arabia Sa'udiana العربية السعودية باللغة الإيطالية للمستشرق ألفونسو نلينو ، و Arabia ، والبلاد العربية بالإنجليزية للمستشرق جون فيليبي ، و Saudi Arabia العربية السعودية بالإنجليزية لتويتشل K.S. Twitchel و Ibn Seoud Roi de L'Arabie ، وابن سعود ملك البلاد العربية بالفرنسية لأنطوان زيشكا Antoin Ziska ، و«عربين أديت» أمير العربية باللغة التملية المتداولة في جنوب الهند لعبدالرحيم .. وكلها مطبوعة، و«شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز» ط للمؤلف أربعة أجزاء ، و«الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز» ط أيضاً^(١)،^(٢).

قال أبو عبدالرحمن : والدراسات اليوم عن الملك عبدالعزيز لا تُحصى كثرة، وقد تضافرت الجهود على حصرها حصراً ببيولوجرافياً.. والباحث الجاد اليوم يحتاج إلى بيولوجرافيا البيولوجرافيا؛ لينتقي أغزرها علماً، وأقواها فكراً - ككتاب

(١) شبه الجزيرة للمؤلف ، وبعض المواد المذكورة في الترجمة [الزركلي] .. قال أبو عبدالرحمن: وكتاب الخبر والعيان لخالد الفرّج طبع عام ١٤٢١هـ ، وما ذكره الزركلي رحمه الله قليل من كثير.

(٢) الأعلام ٤ / ١٩ - ٢١ .

الزركلي ، وكتاب كشك - .. ثم يستوعب ما فيها ، وي طرح كثيراً ليس فيه إلا التكرار لجهود من سبقه ، أو عدم التوثيق ، أو الحكايات .

وقد بُلينا في هذه السنوات بلقاءات ^(١) صحفية مع مُسِنَّين ربما بالغوا في تكثير سِنِّي أعمارهم ؛ فمنهم من يدعي صلةً مباشرة بـعبدالعزیز ، ومنهم من يروي شعراً لم نسمعه من غيره .. والتعامل مع هذه الروايات يحتاج إلى عقلية مطَّلع ممحَّص .. ولست أنكر ضرورة الرواية الشفهية وصحتها بإطلاق ، ولكن أقول : لا بد من منهج المحدثين في مصطلح الحديث ، ولا بد من مقارنة العلم القديم - من المؤلفات ، والوثائق ، والشعر الموثَّق - بالمعلومة الشفهية الجديدة .. ومن الروايات

(١) هذا هو الرسم المعتاد ، والصواب «بلقاءات» .. وليس في التشويه لصورة الحرف أكثر من هذا ؛ وذلك بفصل رأس الألف المهموزة ، ووضعها وسط السطر ، ثم جعل عمودها مدة إزائها .. ولا يُسوَّغ هذا الرسم المشوَّه أن اللبس مأمون عن التباس نطقها بنطق غيرها .. قال أبو عبدالرحمن : هنا أربعة أمور :

أولها : أن أمن اللبس لا يسوَّغ تغيير صورة الحرف ، بل تتفق صورة الحرف وأمن اللبس على التعبير عن الكلمة كما تنطق .

وثانيها : أن وجود اللبس - لا أمن اللبس - يسوَّغ تغيير صورة الحرف بعد دليل تصحيح .. على أن التشكيل لما أشكل يمنع من اللبس ؛ ولهذا دعوت في آخر هذه المقدمة إلى حذف «واو» عَمَر - بسكون الميم - .

وثالثها : أنهم سوَّغوا وضع رأس الألف المهموزة وسط السطر بـكراهة توالي ألفين ، وقد أسلفت في إحدى تعليقاتي أن ذلك غير مستكره .. ثم وضعوا مدتها إزائها ؛ فأطالوا مساحة الكلمة بلا ضرورة .

ورابعها : أن الرسم الصحيح الراجح المطابق للنطق هكذا : «بلقاءات» ؛ ولا يضر غياب رأس الهزمة ؛ لأن المد من أحكام همزة القطع لا الوصل ؛ فصورة المدة دالة على القطع . ولقد جريت مع الرسم المعتاد تطبيقاً كراهة الخلاف ، وبينت وجهة نظري تأصيلاً بكتابي «رسم القلم ورموزه» .

الشفهية مالا يملك الباحث الجاد رده أو قبوله، ولكنه يأخذ به على الاحتمال مثل هذه المعلومات عن رجل فاضل من أهل الزلفي كتب بها لصاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبدالعزيز آل سعود؛ فقال: «بلغني عن والدك رحمه الله أنه كان يدرس وعمره لا يتجاوز خمسة عشر»^(١) سنة مع ابن عصفور؛ فلما تلا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٢) : رفع يديه إلى السماء ، وقال : اللهم لا تمتني حتى أحكم هذه الآية .. فعرف الله منه الصدق؛ فاستجاب دعاءه ؛ فأيده ونصره حتى حُكِمَ هذه الآية وغيرها من الآيات ؛ فمن عرف الله في الرخاء عرفه الله في الشدة.. قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾^(٣) .

وذكر لي عن والدك رحمه الله : أنه عندما قرب من الرياض كأنه أحس بخوف ، وعندما نام رأى جده فيصلاً يقول : قال الله تعالى : ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٤) ، وأخذ بيده ، وقال له : قم .. فقام نشيطاً ، فذهب عنه الخوف .

وذكر لي من أثق به : أن أحمد بن درويش من أهل الزلفي كان راقداً في مسجدٍ في إيران عندما كان يستورد بضائع من هناك ؛ فرأى رجلين متقابلين (وهما الملك عبدالعزيز رحمه الله ، وخصمه ابن رشيد) وهم وقوف ؛ فجاء رجل شخصيته غير شخصيتهم ؛ فوقف بينهم ، وقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. وتلا قوله

(١) قال أبو عبد الرحمن : الصواب : خمس عشرة .

(٢) سورة الحج ، الآية : ٤١ .

(٣) سورة الحج ، الآية : ٢٨ .

(٤) سورة القصص ، الآية : ٥ .

تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ^(١) وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَعَزُّزُ مَنْ تَشَاءُ وَتَدُلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٢) .. يشير إلى الملك عبدالعزيز بالعز ، وإلى ابن رشيد بالذل ؛ فلما قدم إلى الكويت من إيران ذهب إلى مجلس كان يجلس به الجماعة بعد صلاة الفجر يتحدثون ، وكل صبح يأتي إليهم عبدالعزيز بن عبدالرحمن يستمع لحديث أهل نجد ؛ فلما جلس عندهم قال الرجل صاحب البضاعة : أنا رأيت الولد هذا (وأشار إلى عبدالعزيز رحمه الله) ، ورجلاً يقابله عليه غترة سوداء وعليه عمامة سوداء ، وذكر الآية ؛ فهذا من دليل توفيق الله له .

وبلغني عن والدك رحمه الله أيضاً : أنه مر ذات يوم على سوق البعير ؛ فإذا رجل جالس عند بضاعة له يبيعهها ؛ فقال له رحمه الله : هل توقدون النار في الليل ؟ .. فقال : لا يا ورع .. لا نوقدها .. فقال له رجل آخر : هذا عبدالعزيز ابن سعود .. فقام الرجل خجلاً يستسمح منه ؛ فقال له والدك رحمه الله : لم تقل خطأ ، ولكني أعدك إن مكنتني الله مما أتمنى أن توقد نارك في أرفع مكان ولا تخاف من أحد إلا الله .

(١) عند رسم المصحف بكامله يجب التقيد بالرسم العثماني .. وعند تفسيره أو الاستشهاد به فيجب - ولا أقول يجوز - رسمه على الوجه الصحيح بعد نُضَجِ الرسم الإملائي ؛ لأن ذلك يُسهِّلُ نطق كتاب الله على الوجه الصحيح ما دام الرسم العثماني ليس ممارسة شعبية مشتركة .. وقد أبقى (في استشهادي) الآيات الكريمات في بعض مؤلفاتي على الرسم المعتاد حتى يكون ما أدعو إليه - من تسهيل وفق قواعد صحيحة - ثقافة مشتركة .. وأما زعم بعضهم : أن رسم المصحف العثماني توقيفي ، وأن له أسراراً شرعية : فلا سند له من الشرع ، ولا من استقراء حال الرسم الإملائي .. ومع هذا فكتابة المصحف بالرسم العثماني محل إجماع ؛ لضرورة مصلحية ، لا لنص شرعي .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٢٦ .

قال أبو عبد الرحمن : الورع هو الصغير السن .

ومن الرواية الشفهية التي ظننت أنها مما ينبغي أن يكون لها اعتبار بين المتون المدروسة ما كتب به إليّ الأخ عبدالله بن حسين الغانم عن قصة فتح الرياض ، وقد أفردت لهذا الموضوع بحثاً موسعاً نشر بالعدد الثالث من مجلة الدرعية ، ثم تبين لي أن للمذكور ثلاث روايات متناقضة ، وعنده معلومات خاطئة^(١) ؛ لهذا فلا يُعتدّ برواياته .

قال أبو عبد الرحمن : وعن برنامج حياة الملك عبدالعزيز رحمه الله أورد هذا النص من مجلة الفتح .. قالت : «سأل مراسل الجامعة الإسلامية في القاهرة الشيخ يوسف ياسين مستشار الملك عبدالعزيز ابن سعود عن حياة الملك الخصوصية ؛ فقال له : لجلالة الملك نظام خاص لا يتغيّر ولا يتبدّل تقريباً ، وهو يواظب عليه في فصول السنة كلها (في الإقامة والسفر ، والصيف والشتاء) ؛ فهو يستيقظ قبل أذان الفجر بساعة ونصف تقريباً ؛ فيقرأ القرآن ، ويتجهّد بالصلاة إلى الأذان ، ثم يصلي الصبح مع الجماعة ، ثم يجلس قليلاً ؛ فيقرأ بعض الأدعية نحو نصف ساعة ، وبعد ذلك يفطر ، ويخرج ؛ فيجلس في مجلسه الخاص ؛ فيعرض الموظفون المختصون على جلالته البرقيات الواردة في اليوم السابق ؛ فيصدر أمره العالي بالإجابة عليها ، ثم تُعرض عليه أسماء الوفود الذين يفدون في اليوم نفسه من أنحاء المملكة المختلفة ، كما تعرض عليه بواسطة الموظفين المختصين الأمور التي تتطلب أمر جلالته ، ثم يقابل الذين حدد لهم موعداً للمقابلة في ذلك اليوم ، ثم يجلس في

(١) الصواب في الرسم «خاطئة» ، ولا يسوّغ الرسم المعتاد «خاطئة» اتصال حروف الكلمة ؛ لتخلف دليل التصحيح ، وهو كسر الهمزة ، أما كسر ما قبلها فلا عبرة به كما أسلفت .

مجلس خاص: يحضره الموجودون من رجال الأسرة السعودية ، ومن آل رشيد (الذين هم في معية جلالته ، وكبار رجال حاشيته) ، ثم يتغدى مع هؤلاء .. وبعد الانتهاء من ذلك المجلس يجلس في مجلس خاص بين أبنائه الصغار ؛ فيأنس بهم - ولجلالته عشرون ولداً^(١) ، وعشرون بنتاً تقريباً - ، وعند ذلك يكون قد حان وقت الظهر ؛ فيصلي الظهر مع الجماعة ، ثم ينام القيلولة .. وعندما يستيقظ يجلس في مجلس تعرض عليه فيه أوراق الوفود وطالبي الحاجات ؛ فيأمر لهم بأعطيات ، ثم يصلي العصر ، ثم يستقبل الذين حدد لهم وقتاً للمقابلة ، وتعرض عليه الشكاوى والأمور المتعلقة بشؤون الرعية .. وبعد ذلك يتعشى، ثم يتنزه خارج البلدة التي يكون فيها، ويعود بعد صلاة المغرب؛ فيجلس بين المغرب والعشاء جلسة خاصة لصلة الرحم ، ويحضر مجلسه هذا قريبات جلالته ذوات الرحم والمحارم من نساء الأسرة السعودية؛ فإذا أذن العشاء خرج فصلّى مع الجماعة ، ثم جلس مجلساً عاماً يحضره كبار الوفود وكبار زائري جلالته .. يُقرأ فيه شيء^(٢) من تفسير القرآن الكريم ومن الفقه ، ويظل في هذا المجلس نحو ساعة ، ثم ينصرف إلى مجلس آخر يكون فيه كبار موظفي جلالته؛ فيبحث فيه الشؤون المهمة المتعلقة بأعمال الحكومة وما يعرض لها ، وقد يدوم هذا المجلس إلى قبيل نصف الليل بساعة، وبعده ينصرف إلى النوم.. ومجموع نومه في الحالات العادية من خمس ساعات إلى ست ساعات^(٣) .

(١) قال أبو عبد الرحمن : لو قال : «ابنا» لكان أصح ؛ لأن الولد للابن ، والبنيت .

(٢) في أول اجتهادي دعوتُ إلى رسم ياء ثانية غير منقوطة تكون كرسيّاً لرأس الهمزة ؛ لتكون هكذا «شيئ» بدلاً من «شيء» ، ولكن ما تأصل لي عن روية - كما ذكرته آخر هذه المقدمة - : حقق لي أن الرسمين كلاهما خطأ ، وأن الصواب رسم صورة الحرف كاملة هكذا «شيأ» ، وتشكيل ما أشكل .

(٣) مجلة الفتح العدد ٣٤٧ في ٧ / ٢ / ١٣٥٢هـ ص ١٢ .

قال أبو عبدالرحمن : وههنا موضوعان مشتبهان في سياق للأستاذ محمد

جلال كشك :

أولهما : عن تبصّر عبدالعزيز ، وأنه لا يدخل في مسائل فاشلة .

وثانيهما : عن أسباب تسمية المملكة .. قال : «ويمكن القول : إنه لم يدخل

معركة خاسرة في حياته ، ولا استطاع العدو أن يجره إلى معركة خاسرة.. إلا مرة

واحدة هي معركة فلسطين ، وعذره أن خيوطها لم تكن في يده ، ولا حتى خيوطها

العربية ؛ فلا التدبير تدييره ، ولا القرار قراره .. كما يمكن الإشارة أيضاً إلى المعركة

الخاسرة مع العجمان التي جرّه إليها ابن صباح ، ولكنه استفاد منها تبرئة ذمته من

صدقة ابن صباح» (١) .. ثم استأنف الكلام بقوله : «لا يجري وراء أوهام ، ولا

يُخِطُّ تقدير قوته ، ولا يحارب طواحين الهواء ، وليس في تاريخه مغامرة طائشة ،

أو استجابة لإغراء غير محسوب العوامل والنتائج» (٢) .

وعلق كشك بقوله : «لم يكن يمارس التدبّر بالأسلوب المتشنج ، أو الاهتمام

(١) قال أبو عبدالرحمن : سبق إلى هذا القول كوكس .. قال - كما في كتاب الملك عبدالعزيز

رؤية عالمية ص ٥١٦ - ٥١٧ - : «إن الملك عبدالعزيز في أثناء حكمه الطويل لم يرتكب غلطة

باقية لا تزول ، ولا يمكن أن تتلاشى ، ولكن بينما يفكر العرب في مجد دمشق وبغداد نجد

ابن سعود وعلماءه يفكرون في مجد الخلفاء الأربعة الراشدين ، وهم لا يريدون أن يكونوا في

الدرجة الثانية من الأهمية : فإنهم يعتقدون أنهم هم العرب الخُص ، وأنهم هم أبناء العرب

الأحرار ، وأنهم هم سكان الصحراء الذين لم يتلخّ اسمهم ، ولم يتلوث بالعار .. ومع أن

العرب لا يحلمون اليوم بالجامعة العربية : إلا أنه نظراً لجهود الملك عبدالعزيز ، والأعمال

التي قام بها : فإن العربي العادي اليوم شديد الثقة بمستقبله ، وإن الشعور الذي يشعر به

لم يحس به منذ أن غزا المغول العراق ، وقضى على تلك المدنية الزاهرة .. والعرب لا يؤمنون

إلا بالمدنية التي أخرجتها العقول العربية ، والتي قامت بالجهود العربية ، ولمصلحة العرب» .

(٢) السعوديون والحل الإسلامي ص ٢٢ .

بالشكليات والمظهرية .. ولكنه أيضاً لم يكن ليدير معركة حول هذه الشكليات بدعوى التقدم ؛ فإذا كان التمسك بالشكليات باسم التدين تخلفاً وتعصباً فإن الأسوأ هو حصر التقدم في إزالة هذه الشكليات ، وتناسي الجوهر أو الأساسيات ؛ ففي ٢١ يوليو ١٩٥٠م الموافق ٤ شوال ١٣٦٩هـ مر خمسون عاماً على فتح الرياض ، واقترح السوريون والإنجليز الإعداد للاحتفال بالذكرى على طريقة «اليوبيل الذهبي» للملكة فيكتوريا ؛ ولكن المشايخ تدخلوا ومنعوا الاحتفال ، واستجاب لهم الملك .

وقد كتب يوسف ياسين للزركلي رسالة ذات مغزى قال فيها : «إن الإلغاء كان بأمر ملكي ؛ نزولاً على رأي علماء نجد؛ لأنهم رأوا ابتداءً في تسمية أيام بآيام العيد لم ينزل الله بها سلطاناً؛ فافهم عافاك الله» .. وفهم عافاه الله !! .

وعندما احتج فيصل الدويش على طول ثوب الإمام أعطاه المقص ، وتركه يقص ما يتجاوز حد اليدين ، ولكن لما هدد الدويش النظام قص رقبتة .. وتدخل قبل ذلك في بيان العلماء؛ ليحذف ما يُسيئ^(١) لمشاعر الشيعة، ويمس الوحدة الوطنية^(٢) .. ثم عاد إلى نفس السياق عن تبصّر عبدالعزيز ؛ فقال: «خلال اضطرابات ١٩٣٦م عرض نوري السعيد اتحاد العراق مع السعودية ، ولكن الملك لم يهتم ؛ لأنه يعلم علم اليقين أن العراق لا يُبرم أمراً بغير مشورة البريطانيين ،

(١) قال أبو عبدالرحمن : يلزم عن التأصيل الخاطئ تفريع خاطئ كما ههنا .. وبيان ذلك أن أهل الرسم الحديث وجدوا حركات الإعراب الثلاث يقابلها حروف للإعراب ؛ فجعلوها صوراً للألف المهموزة وسط السطر وآخره يرسم فيه رأسها على حرف مجانس لحركة الإعراب ولا سيما إن كانت ساكنة ، والإعراب بالسكون لا صورة له من تلك الحروف ؛ ومن ثم راعوا هنا الياء قبل الألف المهموزة ؛ فرسموها على ياء هكذا «يسي» .

(٢) السعوديون والحل الإسلامي ص ٧٨ - ٧٩ .

ومادام الإنجليز لم يفاتحوه بأمر خطير كهذا فإنه لا يشغل باله بالتفكير فيه»^(١) .. ثم علّق بقوله : «زعم سعودي متجنس من أصل شامي : أن السوريين هم الذين وضعوا كلمة عربية في اسم المملكة : فهم كانوا حملة لواء العروبة في ذلك الوقت .. وقد رفضتُ هذا التفسير الذي لا أساس له من الواقع : فبعد العزيز لم يكن بحاجة لمعلم سوري حتى يعرف العروبة ، وقد دافع عنها وتكلم باسمها منذ حوارهِ مع الباشا التركي في العراق - الكمالي وهو من أصل سوري - ، وخطب باسمها في الكويت عام ١٩١٦م .. والقوميون العرب لم يبدأوا في وضع كلمة العربية للتعريف إلا في الخمسينات ، وعندما^(٢) أصبحت التسمية عملاً حزبياً ممزقاً للوحدة العربية يثير الشك في العروبة أكثر مما يؤكدُها - أو كما يقول المثل الشامي : «كثرة الدق تفك اللحام» - .. وإلا فهل يُعقل أن تحتاج اليمن أم العرب إلى تعريفها بالعربية ؟!

وفي اعتقادي الشخصي أن كلمة العربية في جملة المملكة العربية السعودية هي تعبير جغرافي ، وليس سياسياً ؛ فهي ترجمة Arabia [إربيا] التي عرفت بها الجزيرة العربية ، وهي حل شديد التوفيق لمشكلة التعريف الجغرافي لمملكة ابن سعود ؛ فقد كان الاسم الشائع بعد ضم الحجاز هو الجزيرة العربية ؛ فلما تقرر اتخاذ اسم رسمي حذفت الجزيرة (وهذا طبيعي)، وأضيفت المملكة ، ثم السعودية.. وقد فهم المسؤولون السعوديون هذه الحقيقة ، وفهمها الأجانب ؛ ولذلك فإن اسم المملكة لم يترجم إلى الإنجليزية بعبارة [مملكة العربي السعودية] The Arabian Kingdom of Saudi

(١) المصدر السابق ص ٢٢ .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : لو قال : «عندما» من دون واو عطف لكان أولى ، ومن ثم تسقط الشولة (الواو المقلوّبة) قبل «عند» .

ولا

The Arabian Saudi Kingdom [مملكة السعودي العربي]

ولا

The Saudia Arab Kingdom [مملكة العرب السعودية]

ولا

The Arab Kingdom of Saudia [عرب المملكة السعودية]

وإنما

The Kingdom of Saudi Arabia [المملكة العربية السعودية]

وقد كتبت السفارة الأمريكية في لندن اسم المملكة هكذا :

Arabian Saudian Kingdom [مملكة السعودي العربي]

ثم تداركت خطأها ؛ فأبرقت لوزارة خارجيتها تقول : إن صحة الاسم هي :

Kingdom of Saudi Arabia ^(١) (المملكة العربية السعودية) .

وقال: «قال حافظ وهبة: حاول بعض السوريين أن يستغلوه؛ فطلبوا منه ترشيح ابنه

الأمير فيصل لعرش سورية؛ فملأوا جيوبهم بالمال، ولكن الملك عبدالعزيز كان لا يفوته

أن هذا كله دجل، وأن الفرنسيين لن يخرجوا من سورية إلا بالقوة»^(٢).

وقد يُظَنّ التناقض في كلام وهبة ؛ فما دام يعتبرهم دجالين ؛ فلماذا يملأ

جيوبهم بالمال؟.. إلا أن حافظ وهبة نفسه روى قصةً قبل هذه تُفسّر هذا التناقض؛

فقد تحدث عن رسالة بعث بها أحد كبار السوريين يستحثه على غزو سورية، وقد

نُشِرَت في هذه الفترة رسائل مماثلة في جريدة القبلة، وأشار إليها الملك في

(١) السعوديون والحل الإسلامي ص ٧٩ .

(٢) السعوديون والحل الإسلامي ص ٢٢ .

حديثه مع الريحاني كجزء^(١) من الحملة الهاشمية عليه، وكانت هذه المطالبة تلقى قبولاً في أوساط الأشراف كنوع^(٢) من الدعاية ضد ابن سعود الذي بزعمهم يترك الكفرة يحكمون سورية ، وَيَرْكُزُ حربيته ضد الدولة المسلمة في الحجاز !! ؛ ولذلك نشروا هذه الرسائل في القبلية التي كان يحررها الملك حسين بنفسه، وقد انجرف في هذه الدعوة بعض السوريين المخلصين الذين كانوا يتلمسون النجدة من أية جهة.. وقد علق الملك على رسالة الذي دعاه لغزو سورية بقوله : «إن كاتبها لا يعيش في هذا العالم : فهو لا يعرف وسائل^(٣) مواصلاتنا ، ولا وسائل تمويننا ، ولا من أين نشتري أسلحتنا» .. فلعله أعطى السوريين ليواجه دعاية وتحريضات الهاشميين، وليس من أجل عرش سورية .. وكان كاتب الرسالة (م ٠ م بتاريخ ١٢ صفر الخير ١٣٤٣هـ - سبتمبر ١٩٢٤م) قد قال في رسالته : «إن الشريف وأولاده ينفقون آلاف الجنيهات في كل شهر لتكتب الجرائد عن الإمام وأهل نجد : إنهم قساة لا دين لهم إلا الغزو» .. والأدلة على رفضه المغامرات أو المراهنة على الجياد الخاسرة أكثر من أن تحصى .. منها رفضه الدعوة لدعم حركة الكيلاني في العراق، وبقينه من اللحظة الأولى بحتمية فشلها؛ بحكم ظروف الحرب ورجحان كفة الإنجليز .. كما رفض الانحياز للألمان، بل عندما حاول سفيره فؤاد حمزة خلال

(١) الصواب لغة بهذا السياق ههنا: جزءاً ، أو على أنها جزءٌ .. أو بصفتها جزءاً .. ولا تجوز كاف التشبيه .. والصواب أيضاً «في هذه الحقبة» : فالفترة لا تدل على الزمن ، وإنما هي وصف لحال بعض الأزمان بالنسبة لفرد أو جماعة .

(٢) الصواب : نوعاً ، أو بصفتها نوعاً .

(٣) ههنا ترجح رسم الهمزة على نبرة، وجَعَلَ النبرة عوضاً من الألف ؛ لدليل التصحيح وهو كسر الهمزة ذاتها، ولدليلي ترجيح تضافرا، وهما: كراهية توالي ألفين، وجمال اتصال حروف الكلمة.

الحرب العالمية الثانية أن يغريه بأن يصبح «ملك العرب» الألماني - كما كان حسين «ملك العرب» البريطاني في الحرب العالمية الأولى - : غضب، ونقله من منصبه ؛ ليبعده هو عن الألمان .. كما رفض إغراء النصر السهل الذي أحرزه على اليمن ، واشتد في نهى ابنه فيصل عن الاستمرار في الزحف»^(١) .

قال أبو عبدالرحمن : الذي في ذهني أن التسمية بالمملكة مبادرة من أهل طيبة الطيبة بناء على برقية رفعها الأمير عبدالعزيز بن إبراهيم وكيل إمارة المدينة المنورة يومها مع التماس لأعيان المدينة ، وهذا نصها : «حضرة صاحب الجلالة مولاي الملك المفدى عبدالعزيز آل سعود أيده الله .. أتشرف بأن أعرض لجلالتكم أنه في هذا اليوم الموافق ١٤ جمادى الأولى سنة ١٣٥١هـ قد اجتمع العلماء والأهالي، وبعد المذاكرة والبحث قرروا رفع برقيات منهم لأعتابكم العالية يسترحمون فيها صدور إرادتكم السنوية بالموافقة على تحويل اسم المملكة الذي هو «المملكة الحجازية والنجدية» إلى اسم «المملكة العربية السعودية» .. وقد بنوا قرارهم المشار إليه على حقائق اجتماعية أوضحوها فيه .. كما أنهم نوهوا بلهجة أكيدة باسترحامهم بصدور أمركم الجليل بوضع نظام للحكم ، وتوارث العرش ؛ تأييداً لمركز الدولة في الداخل والخارج ، وتخليداً لها على مرّ العصور كما هو المحقق بعنايته تعالى .. وحيث إن من ذلك تأمين المصلحة فإنني أضرم صوتي إلى صوتهم مسترحماً صدور الأمر الملكي الكريم بإسعاف مرغوبهم سيدي .

وكيل أمير المدينة المنورة

«عبدالعزيز بن إبراهيم»

(١) السعوديون والحل الإسلامي ص ٢٢ .

حضرة صاحب الجلالة مليكنا المعظم عبدالعزيز آل سعود
أيده الله
(الرياض)

بحمده تعالى : في اليوم الرابع عشر من جمادى الأولى عام ١٣٥١هـ قد اجتمع الموقعون أدناه من علماء وأهالي وتجار المدينة المنورة ؛ للبحث والتشاور في أمر خطير يعود نفعه على هذه البلاد التي منَّ الله عليها بأن يكون الجالس على عرشها جلالة الملك المفدى عبدالعزيز آل سعود أيده الله ؛ ذلك أن الباري سبحانه قد اختصها من بين الأقطار العربية الشقيقة بمزايا جمة ؛ فقد جعلها أشرف البقاع على الإطلاق ، وأظهر الممالك العربية استقلالاً ، ووهب أهلها مفاخر خاصة بهم ؛ فجعلهم عنصراً عربياً متحداً ؛ في الدين الإسلامي ، والعادات، والأخلاق ، والتاريخ .. إلى غير ذلك مما يدعو ويحض على وحدة البلاد بكل معاني الوحدة ، ومظاهرها القيِّمة ؛ ولكون أهم هذه المظاهر هو اسم المملكة التي تشمل أبناء الأمة العربية الموصوفة آنفاً ، ولأن اسمها الحالي الذي هو «المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها» لا يفي بالغرض الأسمى المطلوب ؛ إذ إنه لا يدل على الاتحاد العنصري والحكومي والشعبي الماثل في هذه البلاد بأصدق معانيه .. وغاية ما يدل عليه تسمية بعض الأقطار العربية؛ فنظراً لما شُرح ، وإظهاراً لكمال التضامن الموجود حالاً واستقبالاً (والذي ^(١) تجلّى في حوادث ابن رفاة الأخيرة) ؛ لذلك فإن عموم المجتمعين يسترحمون من جلالة الملك المفدى أن يتفضل بإصدار إرادته الملوكية بالموافقة على تحويل الاسم الحاضر إلى الاسم التالي «المملكة العربية السعودية» ؛ لأن هذا الاسم أكثر انطباقاً على الحقيقة الراهنة، ولأنه أدل على الأمانى المقبلة، وأظهر في الإشارة إلى من كان السبب الوحيد في انتظام عقد هذا الاتحاد الميمون.. ألا وهو

(١) قال أبو عبدالرحمن : أحسن من هذا «وهو الذي» لطول الفاصل بين الصفة والموصوف .

شخص جلالة الملك المحبوب ، ولأنه يشمل جميع البلاد العربية التي وفق الله جلالة الملك بتوحيد شملها ولم شعثها .. هذا ولما كان الانتظام والاستقرار هما من الشروط الأولية في بقاء الدول واستمرارها كما يبرهن عليه التاريخ ، وتتبع أحوال الأمم والحكومات ؛ لهذا فإننا نتقدم أيضاً إلى حضرة صاحب الجلالة مليكنا المفدى أطال الله بقاءه مسترحمين من جلالته أن يصدر أمره العالي بوضع نظام للحكم ، وتوارث العرش ؛ لما في ذلك من تقوية مركز البلاد مادياً وأدبياً ، ولكي يعلم القاصي والداني من الأصدقاء وخلافهم : أن هذا الملك بحول الله وقوته باقٍ على مرّ الدهور، موطن الأركان ، لا تؤثر فيه الزعازع .. وإنا واثقون بأن جلالتكم حفظه الله أول من يقدر هذه الحقيقة الاجتماعية حق قدرها .. وفق الله جلالتكم لما فيه الفلاح والصلاح .

محمد زكي، السيد عبدالجليل مدني، محمد حسن سمان، عبدالله جمل الليل، إبراهيم بري، حمود ديشيشة، عبدالله مسلم، صالح عبدالله الزغبني، عبيد مدني، إسماعيل حفطي، يحيى زكريا، حسام الدين المصطفى، صالح التونسي، محمد الطيب التبتكتي، عبدالرؤوف عبدالباقي، ذياب، عبدالعزيز مدني، أحمد بساطي، عبدالله برزنجي ، محمود شويل ، عتيق بن محمد المحرج، حسني العلي، السيد زين العابدين مدني، عبدالعزيز الخريجي، محمد الخريجي، حسين طه، محمد زين بري ، أبو بكر، أسعد أسعد، محمود ديشيشة، حمزة بافقيه، عباس قمقمجي ، عبدالله بن عمرو، صالح البلاع ، محمد الدغيثر ، إبراهيم التركي ، علي بن عبدالله عقيل، حسن عبدالجبار ، إبراهيم هشام، زين صافي ، صالح خاشقجي، محمد حسين جياذ، محمد أسعد» (١) .

قال أبو عبدالرحمن : وأما برقيات الأهالي التي جاءت بعد برقية أهالي

(١) انظر كتابي آل إبراهيم الفضليون ص ٢٧٤ - ٢٧٧ .

المدينة بأشهر: فمن المحتمل أنها تأييد لبرقية أهل المدينة .. نشر بمجلة الفتح: «تلقت وكالة المملكة العربية السعودية (الحجاز ونجد والملحقات سابقاً) في القاهرة برقيةً من العاصمة مكة تتلخص في: أن أعيان المملكة، وعلماءها، وزعماء القبائل والعشائر: رفعوا إلى جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود عرائض ذكروا فيها أن الحجاز ونجداً وعسيراً وسائر أطراف المملكة تؤلف وحدة جغرافية متجانسة في اللغة والدين، وهي بذلك أولى البلاد العربية بالتقارب وإزالة الفوارق الاسمية ، وأحقها بأن تصبح مملكة ذات اسم واحد يشير إليها ويدل عليها .. وقد وافق جلالته على هذا الاقتراح، وأصدر أمراً ملكياً بإطلاق اسم (المملكة العربية السعودية) على مملكة الحجاز ونجد والملحقات .. ونُفذ هذا الأمر ابتداء من يوم الخميس الماضي، واحتُفل بذلك رسمياً .. وقد أبلغ ممثلو الدول في جدة ، وممثلو الحكومة العربية السعودية في الخارج هذا التغيير»^(١).

قال أبو عبد الرحمن : وثمة تصحيح نفيس للأستاذ محمد جلال كشك.. قال عن كتاب ابن سعود (لبنوا ميشان): «في الصفحة التالية ١٤٥ يفاجئنا المؤرخ، وخبير الشؤون العربية، وصاحب المؤلفات المتتالية عن الأسيرة السعودية.. يفاجئنا بأن المُلْك انتقل من «سعود الكبير إلى عمه عبدالله» .. وعبدالله بن محمد هذا لم يحكم قط، وإنما عبدالله الذي حكم هو عبدالله بن سعود، ولكن الابن أصبح عمّاً لأبيه ! .. وهي ليست غلطة مطبعية ؛ لأنه يعود في صفحة ١٤٦ فيصف فيصل بن تركي بن عبدالله ، بأنه حفيد الرجل المعذب الذي قتل في الآستانة .. فهو يخلط بين عبدالله بن سعود الذي عُدِّب وأعدم فعلاً في الآستانة، وبين عبدالله والد تركي الذي لا حكم ولا رأى إسطنبول في حياته!.

وقد انفرد هو بإعلان أن ميلاد عبدالعزيز كان في شهر فبراير ١٨٨١م ربيع

(١) مجلة الفتح / العدد ٢١٣ ص ٥ في ١٣٥١/٦/٦ هـ .

أول ١٢٩٨هـ ، وليس هناك أي مرجع آخر يعزز روايته ؛ لأن مولد الملك تنقسم حوله الروايات : إلى رواية عليها شبه إجماع يؤكدُها الملك نفسه ، وهي ديسمبر ١٨٨٠م المحرم ١٢٩٨هـ ، ورواية الأقلية وهي ١٨٧٦م - ١٢٩٣هـ .. ثم يُزوّج (بنوا) الملك من جوهرة ، ويقول : إن سنه كان ١٥ سنة ، وذلك في عام ١٨٩٥م ١٢/١٣١٣ ، ويجعلها حفيدة لعبد الوهاب ، والحقيقة أن أول زوجة لعبد العزيز ليست جوهرة ، ولا هي حفيدة لعبد الوهاب (الشيخ محمد بن عبد الوهاب) بل هي أعرابية من الكويت^(١) .. أما والدته تركي والملك الأسبق سعود فهي وضحة^(٢) من بنات شيوخ بني خالد ، وأما حفيدة الشيخ رحمه الله فهي طرفة والدته الملك فيصل ، وهي ثالثة زوجاته ، وتزوجها بعد فتح الرياض .. ولكن يتعب نفسه من يحاول تصحيح هذا السفر النادر في مجموع أخطائه .. كذلك العرض الذي لا رأس له ولا ذنب لصراع أولاد فيصل الذي أسقط منهم سعوداً ، وانتهى بقتل عبدالله ومحمد ، وهو مالم يحدث^(٣) .

وعن وفاته ومرضه رحمه الله قال الدكتور أمين رويحة : «من المعروف أن

(١) اسمها شريفة الفجري ، وأسرة الفجري في الكويت هم من الشيلة من بني خالد وأملاكهم في الأحساء ، وكانوا يتنقلون في البادية مثل القبائل الأخرى وكانت لهم صلة مباشرة بآل عريعر .. تزوجها الملك عبدالعزيز عام ١٣١٢هـ / ١٩٨٤م وتوفيت بعد سبعة أشهر من زواجها بـ بعله الجدري وكانت حبلى .. انظر : دراسات في تاريخ المملكة العربية السعودية : ١ - زوجة الملك عبدالعزيز الأولى ، فهد بن عبدالله السماري ، مجلة الدارة ، العدد الأول ، المحرم ١٤٢٢هـ ، السنة السابعة والعشرون ، ص ١١ - ١٩ .

(٢) هي وضحاء .. والنطق العامي وضحا بلا مد ، وهي وضحا بنت محمد بن برغش بن عقاب من آل عريعر من بني خالد .. أنجبت للملك عبدالعزيز ابنه البكر تركي والأمير سعود ولي عهده والأميرة منيرة .

انظر : شبه جزيرة العرب في عهد الملك عبدالعزيز ٩٥٤/٣ لخير الدين الزركلي .

(٣) السعوديون والحل الإسلامي ص ٧٥٥ - ٧٥٦ .

جلالة المغفور له ^(١) الملك عبدالعزيز آل سعود كان منذ عشر سنوات قبل وفاته مُقْعِداً يستعمل في تنقلاته كرسيّاً متحركاً ذا عجلات على غرار الكرسي الذي كان يستعمله الرئيس الأمريكي الأسبق فرانكلين روزفلت ؛ بسبب إصابته بمرض (يسمى التهاب مفصلي مشوه) ، وهو داء يُحدث نتوءات في عظام المفاصل تجعل الحركة مؤلمة ، ويتفاقم على مر السنين إلى أن يشل الحركة تماماً.. ولكن من غير المعروف لدى الجميع أن العاهل السعودي الراحل كان قد أصيب كذلك في أواخر سني حياته بتصلب في الشرايين (وبخاصة شرايين الدماغ والقلب) ، واشتد هذا المرض عليه سريعاً؛ لأنه لم يكن يرحم نفسه ؛ بل ظل على عادته يعمل - دون مبالة - طوال ١٨ ساعة في اليوم الواحد؛ فلا ينام سوى ٤ ساعات في الليل، وحوالي ساعتين بعد الظهر، ويوزع بقية يومه لمهامه المنظمة في نظام دقيق لا يخل به قيد شعرة .. وكان يديهياً^(٢)

(١) انظر الحاشية آخر الكتاب رقم (١) .

(٢) قال أبو عبد الرحمن : مذهب جمهور النحاة حذف ياء فعيلة - بفتح الفاء ، وكسر العين - ، وحذف تاء التانيث معها ، وفتح عين الكلمة (وهي ما قبل الياء المحذوفة) .. وذلك إذا كانت عين الكلمة غير مضاعفة ، وأن تكون مع لام الكلمة صحيحتين ؛ فيقال في النسبة إلى حنيفة حنفي.. وزعموا شذوذ ما سوى ذلك مثل سليقي.. بيد أن الراهب أنستاس الكرملّي أثبت في مجلة المقتطف عدد يوليو عام ١٩٣٥م ص١٢٦ : أن الأصل «فعيلي» بدون تغيير، وأورد ثلاثة وثمّة من الشواهد المسموعة - على غير وجه التقصي - ، واحتج بقول ابن قتيبة في أدب الكاتب: «إذا نسبت إلى فعيلة من أسماء القبائل والبلدان وكان مشهوراً أُلقيت عنه الياء مثل رَعيي .. وإذا لم يكن الاسم مشهوراً (علماً كان ، أو نكرة) لم تحذف الياء» ؛ إذن الحذف قديماً لم يكن إلا للمشهور شهرة فياضة .. وفي الصحاح للجوهري : «إذا نسبت إلى مدينة الرسول ﷺ قلت: مدني.. وإلى مدينة المنصور قلت: مديني» .. ثم إن الحذف في المشهور جائز لا واجب .. ولقد أيده الأستاذ عباس حسن، وذكر أن لجنة الأصول في مجمع اللغة العربية بالقاهرة أخذت به كما في مجلة المجمع ص ٢٤٦ عن الدورة الخامسة والثلاثين في سنة ١٩٦٨م - ١٩٦٩م .. انظر النحو الوافي ٤/٧٢٩-٧٣٠ .. قال أبو عبد الرحمن: وسبق لي أن توقفت عند استعمال للإمام ابن حزم بكتابي نوادر ابن حزم ٢/١٣٤ .

(والحالة هذه) أن تتزايد النوبات عليه في الآونة الأخيرة حتى نهكت قواه ، وجعلته يتخلى عن القسم الأوفى من مسؤوليات الحكم لجلالة الملك الحالي أمداً الله في عمره، ويكتفي بالبت في هامّ الأمور وخطيرها .

وفي صيف العام الماضي ١٩٥٣م قرر الملك السعودي الراحل الاصطيفاف في مدينة الطائف ؛ وهي على رغم^(١) جودة مناخها الذي قد يفضل جوّ لبنان من حيث الاعتدال : فإنها لم تكن مناسبة لجلالته من الوجهة الصحية ؛ لأن ارتفاعها عن سطح البحر يبلغ ١٢٠٠ متر ؛ فأخذت النوبات تراوده بكثرة ؛ مما حمل أصحاب السمو الأمراء على التفكير بجلب أطباء ألمانين لمعالجته، وعُهد إليّ بهذه المهمة ؛ فتوجهتُ إلى ألمانيا لهذه الغاية ، وأرسلت ثلاثة من مشاهير أطبائها المتخصصين إلى المملكة العربية السعودية .. ومن الجدير بالذكر في هذه المناسبة أن أحد هؤلاء الأطباء (وهو أستاذ عالمي) كان مرتبطاً ؛ لإلقاء محاضرات طبية في الدانمارك وسويسرا وبريطانيا تدّرّ عليه مبالغ طائلة من المال ، بالإضافة إلى أنها وسيلة لزيادة شهرته وتعريف الأوساط الطبية العالمية بقدرته ، وقد خاطبته هاتفياً من فرانكفورت بألمانيا إلى فيينا عاصمة النمسا حيث كان موجوداً في ذلك الحين ، ولما عرضت عليه الموضوع اعتذر في بادئ الأمر بعدم استطاعته التخلف عن إلقاء محاضراته ، ولكنه لم يلبث أن استدرك قائلاً : قف .. ما دام الأمر يتعلق بابن سعود فإنني مستعد .. وقد ألغى محاضراته بالفعل، وسافر إلى الطائف للمشاركة في معالجة الملك الراحل .. وفي هذا الحادث دلالة ولاشك على مدى المكانة الكبرى التي

(١) انظر الحاشية آخر الكتاب رقم (٢) .

كان ابن سعود العظيم يحتلها .. حتى ^(١) في نفوس الأوروبيين ورجال العلم منهم الذين ليست لهم أية أغراض سياسية ، ولكنهم أُعجبوا بعظمته ، ومجيد أعماله .. مكث الأطباء الألمانىون الثلاثة مدة أسبوع في الطائف قضوه في الفحص والمعاينة ، ومن ثم قرروا العلاج ، ويؤشر تطبيقه .. ولما عدتُ بعد ذلك إلى المملكة العربية السعودية ألفت أن جلالة الراحل قد تمتع ببعض الراحة للعلاج ، ولكن النوبات لم تتقطع - وهو شئ طبيعى ؛ لتعذر الشفاء - حتى أصبحت متواصلة في أسابيعه الأخيرة ليل نهار .

وكان يشرف على صحة جلالته ، وتنفيذ توصيات الأطباء الصديقُ والزميل الدكتور مدحت شيخ الأرض طبيب جلالته الخاص منذ ٣٠ عاماً والذي ^(٢) كان يرفع صحته بعناية منقطعة النظير.. إلى جانب أنه من رجالات العرب القوميين البارزين الذين خدموا المملكة بإخلاص ؛ فلما رأى أن النوبات مستمرة شاء أن يبذل كل ما يمكن بذله من جهد ، واستدعاني على عجل مع من استدعى من الأطباء .. وهكذا توجهتُ معه ومع اثنين من الزملاء، ودخلنا على الراحل حيث كان مقيماً في قصر سمو الأمير فيصل في الطائف ؛ فرأيناه جالساً على كرسيه بقامته المديدة ،

(١) قال أبو عبدالرحمن : تقدير الكلام : يحتلها في نفوس العرب والمسلمين حتى في نفوس الأوروبيين .. فتكون حتى عاطفة مفيدة الغاية ، ومدلولها الأعم : احتل مكانة في قلوب قومه ، وبلغ هذا الاحتلال غايته ؛ لأنه شمل غير قومه ؛ إذ كانت له مكانة في قلوب الأوروبيين .. وجعل الأوروبيين غاية : إما لأنهم أعداء ، وإما لأنه لايعجبهم إلا المتميز .. وانظر إقرار مجمع اللغة العربية لمثل هذا التعبير في معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة ص ١٤٤ .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : الواو بين الصفة والموصوف لحن .. وههنا عطف صفة على صفة ؛ فلا بأس في واو العطف .. ويستحب حذفها في مثل هذا السياق إذا أوهم السياق أن هناك موصوفين اثنين لا صفتين .

وطلعته الجبارة ، وقد احتقن وجهه بالزرقة بسبب ما يعانیه من ألم وعسر تنفسٍ شديدين ، ولكنه رغم^(١) ذلك لم يكن يشكو أو يصدر عنه مجرد أنة ؛ بل كان يردد رحمات الله عليه : «لا حول ولا قوة إلا بالله ، الحمد لله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله».. وقد اقتضى لمعاينة جلالته أن نجري تخطيطاً كهربائياً للقلب ؛ مما يستدعي إبعاد أي جسم معدني عن جسد المريض ؛ فاستأذنّا منه نزع خاتم المُلْك من إصبعه ، وهو خاتم فضي ذو فص نقش عليه اسمه ، وكان خاتم الملك الخاص ؛ فابتسم طيب الله ثراه ، وقال : إنها المرة الأولى التي أنزع فيها هذا الخاتم من إصبعي .. وكانت عبارته هذه بمثابة طعنة أصابتي في قلبي ؛ لأنني اعتبرتها تبوّأً بالنهاية المنتظرة من الوجهة الطبية .. ذلك فيما كان رحمه الله على عادته : يلاطفنا ، ويجاملنا بطيب الحديث طيلة مدة الفحص .. ولما انتهينا وزّع علينا من عطره المحبب الذي لم تكن زجاجته تفارقه .. وبما أنه كان ممتنعاً عن الأكل منذ يومين ؛ فقد قررنا مزج الدواء الذي قررناه بالحليب ؛ فيكون علاجاً وغذاء في وقت واحد ، وبعد أن حققه الدكتور مدحت بإبرة طلبنا إلى جلالته أن يستلقي في سريره للاستراحة ؛ لأن بقاءه مستوياً على الكرسي لا يؤمّن له الراحة الضرورية للقلب .. أجاب ابن سعود على طلبنا بقوله : ما يخالف ، هاتوا السرير .. فتوجه الخادمان اللذان يتوليان خدمته الخاصة (أمين ، وتحسين) ؛ فجلبا السرير .. سرير الملك العظيم ؛ فنصباه في الغرفة ، وبالعظمة ما رأيت !! إنه سرير من خشب عادي متواضع ، وفراش محشو بالقش صلب قاس ، وفوقه غطاء صوفي ، ووسادة من

(١) قال أبو عبد الرحمن : الصواب ؛ ولكنه مع ذلك .. والرغم لا يضاف إلا لمن يسخط ويغضب ، وانظر الحاشية رقم (٢) آخر الكتاب .

النوع ذاته .. ذلك هو مضجع ذلك البطل الكبير الذي لا يكتسي إلا بثوب بسيط من القطن ، وقد كان يستطيع بما وهبه الله من جاه ومال أن يتوسد ليس الفراش الوثير وحسب؛ بل وحبّات العيون ، وأن يحوط نفسه بالخدم والحشم والممرضات ليل نهار، ولكنه عبدالعزيز المتقشّف الذي لا تأخذه بهارج الحياة.

خرجت من لدن جلالته مأخوذاً بما رأيت، كما أخذ البطريق سوفريونوس عندما جاء يسلم القدس لعمر بن الخطاب؛ فوجده مفترشاً الأرض ، متوسداً قطعة من حجر.

وقد عدنا نحن الأطباء بعد الظهر لزيارة جلالة الملك الراحل؛ فوجدناه وقد عاد إلى كرسيه وبين يديه أحد رجاله المقربين الشيخ عبدالرحمن الطبيشي يعرض عليه البرقيات، ولما سألته : لعلك مرتاح يا مولاي ؟.. أجاب: الحمد لله، أنا أحسن ، ولكن ليس إلى درجة تسر خاطر .. قال عبارته هذه بلطف متناه ، وبابتسامة يعرف كل من شاهدها مرتسمة على شفتي ابن سعود أنها من أقوى أسلحته التي وهبه الله إياها ليمتلك بها القلوب .. حتى قلوب أعدائه .. إنها ابتسامة شعت في تلك الفترة الخاطفة على وجه الأسد الجريح ؛ فكسته بطابع من النبل والكرم وكبر النفس والإباء والتواضع ؛ مما لا يمكن أن يصفه إنسان.

وكانت هذه الابتسامة آخر عهدي بجلالة الراحل العظيم ؛ إذ لم يمهله الداء بعد ذلك إلا قليلاً ؛ فأخذته النوبات بصورة مستمرة ، ولم يعد يجدي معها علاج أو تسكين حتى استنزفت جميع أنواع الأدوية المستعملة في مثل هذه الحالات .. إلى أن وافاه الأجل المحتوم قبل ظهر الجمعة السادس عشر من ربيع الأول ١٣٧٣هـ الموافق ١٢ تشرين الثاني ١٩٥٣م .

وقبل أن ينتشر النعي في مدينة الطائف نفسها حطت طائرة في مطارها^(١)، وأُقلَّت الجثمان الطاهر إلى الرياض يرافقه صاحب السمو الملكي الأمير فيصل ولي العهد الحالي ، وبعض أصحاب السمو الأمراء أنجال الراحل .. وفي الرياض دفن عبدالعزيز ابن سعود حالاً كما تقضي بذلك التقاليد النجدية^(٢) .. وكان أنجال الراحل قد عقدوا اجتماعاً بايعوا خلاله جلالته الملك سعود بن عبدالعزيز المعظم ملكاً على المملكة العربية السعودية ، وكان سمو الأمير فيصل أول من بايعه ؛ إذ قال : «أبونا مات ؛ فأنت أبونا ، قم طول الله عمرك احكم ، نحن خدمك» .. وقد أسند جلالته الملك سعود ولاية العهد إلى سمو الأمير فيصل ، وهو ولاشك تدبير حكيم دلّ على سعة تفكير جلالته وحسن اختياره ؛ ذلك لأن الأمير فيصلاً هو خير من يتولى ولاية العهد؛ لما اتصف به من ذكاء وخبرة .. وفي اليوم نفسه أخذت الوفود تتقاطر بالطائرات من جميع أرجاء المملكة ؛ لتبايع جلالته الملك سعود في قصر ولي العهد بالرياض .. الموت هو النهاية لكل إنسان ، ولا يبقى للإنسان بعد أن

(١) قال أبو عبدالرحمن : علمت من صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز آل سعود حفظه الله : أنه لم يتخلف أحد من أبناء عبدالعزيز عن الصلاة عليه حتى الذين في المقناص .. صلوا عليه بالطائف الظهر ، وبايعوا الملك سعود رحمه الله هناك ، ثم نُقل جثمانه بالطائرة ؛ فصلوا عليه قرب المغرب بالرياض .. وكان سمو الأمير نايف بالرياض ؛ فشهد الصلاة عليه بالرياض ، وأما الملك سعود رحمه الله فعاد من الطائف إلى جدة .. وقد قال الملك فيصل رحمه الله للملك سعود : قم الله يحفظك نبايعك .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : هذه سنة شرعية ؛ لصحة النصوص القاضية بالإسراع بدفن الميت وصراحتها ؛ إذن أهل نجد على سنة شرعية بحمد الله وفضله ، ولا يُسمَّى دين الله الشامل «تقاليد نجدية» !! .

يودّع هذه الفانية إلا ما خلفه وراءه من أثر، وما حققه من أعمال مجيدة تخلده بقدر ما هي خالدة راسخة ؛ ولذلك فإن جلالة الراحل الملك عبدالعزيز آل سعود سيظل خالداً ذِكرُهُ في الأمة العربية خلودَ الصفحات الناصعة التي سطرها في تاريخ أمته ، والتي ستلهج بها دنيا العرب والإسلام ، والعالمُ عامة جيلاً بعد جيل .. وأما ثواب الراحل فعند ربه الذي قال في كتابه العزيز : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) آمين .. اللهم آمين» (٢) .

قال أبو عبدالرحمن : ولقد عزمتُ في هذا الكتاب - وما يُستقبل من كُتبي - على الرسم الإملائي المطابق للنطق وَفَقَّ قاعدةٍ متحللاً من زيادات ليس لها مسوِّغٌ مُعْتَبَرٌ كزيادة الواو في أولئك بحيث يكون الرسم هكذا أَلَأَكْ ، وأعدتُ ما أُسقط غير مسوِّغٍ معتبر كالألف المدة للهاء من هؤلاء بحيث يكون الرسم هاؤلاء... محافظاً أيضاً في مثل هذا الرسم على صورة الحرف كما ينطق ؛ فلا مسوِّغٌ ألبتة لكتابة الهمزة على الياء أو الواو إلا كراهة توالي ألفين.. ولا ريب أن تشويه صورة الحرف أعظم كراهية ، ولكن كراهة توالي ألفين يكون مراعى إذا رافقه مرجح آخر ، وهو جمال اتصال حروف الكلمة ، ولا يكون هذا إلا مع النبرة عندما تكون الألف المهموزة ذاتها مكسورة مثل «جُرْئِيَّة» ، أما مراعاة حركة الحرف الذي قبل الألف المهموزة فلا

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٥ .

(٢) عبدالعزيز لداكوبرت فون ميكوش .. وهذا النص بقلم مترجمه الدكتور أمين رويحه آخره ص ٢٧٩-٢٨٤ .

قيمة لها في الرسم .. وأرجح كتابة مثل سعى على الألف هكذا سعا ؛ لأن مهمة الرسم الإملائي كتابة الحرف كما ينطق، أما كشفه عما أصله يائي أو واوي فمن مهمة علم الصرف ، ولا يُشَوِّه الرسم الإملائي من أجل ذلك .. ثم عدلتُ عن هذا العزم ؛ لأنني أجريت التجربة بجريدة الجزيرة أشهراً ؛ فرفض هذا المنهج من العوام وأشباههم، وتكلم قلة من ذوي العلم مستكرين .. إلا إنهم في نصاب من أدركته غفلة الصالحين فخلط .. أما أذكاء ذوي التخصص فقد سكتوا : ما بين غير مُبال، وحاسد كاره لريادتي، ومصطنع للزكاة في المحافظة على المأثور وإن كان خاطئاً .. ولم أجد مقالاً بحجة ألبتة .. وقد ذكرت في الحواشي بعض القواعد المهمة ولم أرسم وفق اختياري .. أما الآيات الكريمات فقد أبقيتها على الرسم المعتاد، والله الموفق والمعين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

بَدِهيَّاتُ في حياة الدولة السلفية ، وأصناف من الناس

(خصائص الدولة ، والأمة) :

قال أبو عبدالرحمن : ورد الخبر الشرعي الصحيح القاطع بأن الخلافة ثلاثون (والمراد الخلافة الراشدة التي انتهت باستشهاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه) ، وورد الخبر الشرعي الصحيح بأن بعد الخلافة الراشدة أنماطاً من الحكم منها : ملك جبرية، وملك رحمة .. ولهذا بيان علمي فقهي آخر هذه الانطباعات عن الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله .. إلا أنني أقدم لذلك ببديهيَّات لا تحتاج إلى توثيق نقل ، أو تعمُّل فكر ، ولكنها - على الرغم من بديهيَّتها - تغيب عن بال أكثر الباحثين .. وهذه البديهيَّات تتلخص في التالي :

١ - البديهة الأولى : من أنواع الدُّول - سواء أكانت ملك جبرية، أم ملك

رحمة ، أم صورة جمهورية في حقيقة ملك - ما قام على أنقاض دولة مسلمة طمعاً في السلطة .. وهذا النمط لم يمر في الحكم السعودي ألبتة ؛ لأن المؤسس الأول محمد بن سعود رحمه الله تعالى لم يُقِم دولته على أنقاض دولة إسلامية قائمة بأمر الله طمعاً في السلطة ؛ بل كانت البلاد مجزأة إلى إمارات على مستوى الحاضرة ، ومشيخات على مستوى البادية .. بل كان أمير القرية حاكماً بأمره !! .. والعلماء والفقهاء موجودون في البلدان (بل تتميز بعض القرى بكثرة علمائها في مثل أشيقر)، ولكن ليس هناك قضاء شرعي ملزم، وإن وجد فسلطة التنفيذ لا توجد دائماً مبرأة من الأهواء والعصبية .. وإنما يفتي العالم إذا سئل، ثم ينكفئ على لذاته العلمية: مؤلفاً، أو ناسخاً، أو مراسلاً غيره من العلماء، أو راحلاً إليهم، أو مدرساً.. وقد يرحل إليه بعض طلبة العلم من الآفاق .. ومهمتهم الإمامة في المساجد، والقيام بخطب العيدين والاستسقاء، وبعد ذلك فآثرهم في عموم المجتمع ضعيف؛ لأنه لا بد للفتوى من دولة تنظّمها ، ولا بد للقضاء من دولة تلزم به .. وقد يوجد في القرية أمير متدينٌ يلزم بالقضاء، ولكن هذا في النادر؛ بل الأغلب صدور السلوك في غياب عن القضاء والفتوى أو بعصيانهما .. يظهر ذلك في الحروب^(١) التافهة المبيرة بين القرى، وتديك الزعماء على أهل القرى بفرض الجبايات والحمالات.. أما البادية فهي أبعد ما يكون عن سلطة القضاء، والاستئناء بالفتوى .

وكانت تنمية الإنسان والموارد معدومة ، وكانت الحاجة ماسة إلى الدولة بأي

(١) ذكر كوراشيه في كتابه الذي سماه : تاريخ الوهابيين منذ النشأة حتى عام ١٨٠٩م ، المطبوع في عام ١٨١٠م بالفرنسية أن هذه الحروب التي لا طائل من ورائها كانت هي العامل الأساس في قيام الدولة السعودية الأولى .. انظر : الترجمة العربية التي أنجزها محمد خير البقاعي (مخطوطة) .

شكل من الأشكال؛ للإبقاء على النفوس والدماء المهْدرة في الثارات والسلب والنهب، ولتوحيد الفروسيات والقدرات البشرية لهمَّ جماعي واحد ، ولإزالة آثار ذلك من الخوف والجهل والمرض - بقدر ما تسمح به إمكانات العصر - والمظالم وضياع الحقوق ؛ فجاءت دولة آل سعود (وليست أي شكل من أشكال الدول) لكل هذه الهموم الدنيوية أو بعضها .. بل جاءت ملكَ رحمةٍ لكل هموم الدنيا والآخرة ، وتحكيم شرع الله في خلق الله ، وتميَّزت بين الممالك الإسلامية بحمل لواء السلفية التي تعني عقيدةً وعلناً الكينونةَ على مثل ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه ؛ فلم تتدين لله بالآراء ، والأهواء ، وأكاذيب الأخبار ، والمنامات ، والحكايات ، وأقوال من لا تقوم الحجة بقوله ، وتأويل نصوص الوحي - بعد إعلان وجوب الإيمان به وطاعته - بتأويلات لا تدل عليها لغة العرب (مفردة ، وصيغة ، ورابطة ، ونحواً ، وسياًقاً) : من غير مانعٍ من الظاهر ، ومن غير مقتضٍ لتأويلٍ معيَّنٍ صحيح .. بل سلكت ضرورة الدين والعقل؛ فتلقت الشرع بقوانين لغة العرب؛ لأن الأمة عربية، والرسول ﷺ عربي ، والشرع بلغة العرب ، ولا واسطة بيننا وبين الله لفهم مراده غير كتابه الذي جاء بلغة العرب ، وبيان رسوله ﷺ الذي جاء بلغة العرب ؛ فكان فهمها لدين ربها وفق منطوق لغة العرب الصريح القطعي الذي لا يقبل تأويلاً ، ووفق ما تقتضيه لغة العرب في النصوص القابلة للتأويل شريطة أن يكون التأويل صحيحاً ؛ فيكون تفسيرها قطعياً أو رجحانياً أو توقُّفياً ؛ لتكافؤ الاحتمالات .. وهذا الضرب الأخير القابل للتأويل هو الذي يتمايز فيه العلماء ، ويرفع الله به درجات بعضهم على بعض .. وهو الذي يكون للمصيب فيه أجران ، وللمخطئ أجر واحد وعذر إذا كان الاجتهاد نزيهاً صادقاً في تحري مراد الله .

والقرآن قطعي الثبوت ، وسنة الرسول ﷺ فيها الثابت ، وفيها المنسوب للرسول ﷺ خطأ أو كذباً ؛ فلم يسعهم إلا تسليط قواعد التوثيق التاريخي ؛ لمعرفة الثابت من غير الثابت ؛ لأنهم مطلوب منهم بالنص القرآني القطعي دلالة وثبوتاً طاعة الرسول ﷺ ، والرد إليه ؛ ولأن هذا النص الكريم أخبرهم أن الرسول ﷺ مبينٌ لشرع ربه ، ولأنهم وجدوا في القرآن أوامر ونواهي لم تُعرف إلا ببيان الرسول ﷺ كهيئات الصلاة وأقوالها وأفعالها ؛ فعلموا ضرورةً أنه لا بد من نص صحيح حاضر عن رسول الله ﷺ يرجعون إليه في البيان ، ويردُّون إليه عند التنازع .. وعلموا أن هناك نصاً صحيحاً عن الرسول ﷺ بشرع زائد على ما في القرآن ؛ لأن الله أمرهم بالنص القرآني القطعي دلالة وثبوتاً أن يأخذوا ما آتاهم الرسول ؛ ولأنها مضت السيرة العملية بإيجاب شرعه الزائد على القرآن وهو من عند الله ؛ لأن الرسول ﷺ مبلغ ، ولأن الوحي وحيان : متلوٌّ وهو القرآن ، وغير متلو وهو السنة المطهرة .. فلما صح لهم كل ذلك ، وصح لهم أن الكذب والخطأ موجود فيما نسب إلى الرسول ﷺ : لزمهم تحريُّ الصحيح الثابت .. وهم ضامنون - إذا صدق الاجتهاد ، وكان نزيهاً في تحريِّ الحق - أن يُحصلوا دين ربهم ؛ لأن السنة من الذكر ، وما يتوقف عليه فهمُ الذكر فهو من الذكر ، والله ضامن حفظ الذكر ، وأنه لن يضيع ، وأنه لن يلتبس بغيره التباساً لا يحصل معه التمييز .. فلما سلطوا طرق التوثيق التاريخي التي جعلها الله (بأمره الشرعي ، وقدره الكوني) سبيلاً محدداً للسلف في تمييز الخطأ من الصواب والكذب من الصدق ، وصرف بقدره الكوني جهدَ علماء الأمة وعدولها إلى معرفة حقائق الرواة ، وتحريِّ داخلتهم ، والوعي بملايسات روايتهم .. وجعل الله ذلك ألدَّ وأحلى وأجل في عقولهم ومشاعرهم

وسلوكلهم من التفاخر بالبنيان، والتنافس في جمع الكنوز ، والانهماك في لذائذ العلوم البشرية الأخرى التي لا يترتب عليها منفعة شرعية.. لما سلطوا طرق التوثيق هذه ؛ وُجد ما وُجد عندهم في الضرب المحتمل الدلالة ؛ فحصل لهم من النص يقين قطعي ، أو رجحان ، أو توقُّفٌ .. وحصل لهم أجران ، أو أجر ومعذرة .. هذه هي أصولهم التي لا تقتضي ضرورة الفكر والشرع غيرها ، وهذه هي الأصول التي حققت لهم اليقين بأن من سلكها تحققت له صفة السلفية (التي هي ما كان عليه الرسول ﷺ ، وأصحابه رضي الله عنهم) ، وصفة الطائفة المنصورة التي لا تُخذل عند كثرة المعارض .

وأرادوا أن يطمئنوا^(١) على سلامة نتائج هذا المسلك؛ فنشروا صحف القرون الثلاثة المدوَّحة؛ فوجدوا هذا المسلك هو مسلك علماء الأمة وعدولها، ومسلك الصحابة كافة، ومن اقتدى بهم من التابعين وهم الجمهور، وهكذا تابعوا التابعين، وهكذا من أهلهم علمهم وورعهم، وقُلِّدَتهم الأمة الإمامة في الدين من كبار الفقهاء والمحدثين، ووجدوا المحكَّ بين المصيب والمخطئ والنُّزاع والشذاذ^(٢) محجةً

(١) قال أبو عبدالرحمن : ههنا ترجَّح الرسم الإملائي المعتاد ؛ لأجل اعتبار حركة الهمزة ذاتها ، ومناسبة النبرة لها ، وجمال اتصال الحروف .

(٢) قال الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ رحمهم الله - كما في المسائل والرسائل النجدية ٣٦٨/٢ - : «وأما ما جرى على ألسن العلماء من قولهم : مذهب فلان ، أو ذهب إليه فلان ؛ فإنما يقع في الأحكام ؛ لاختلافهم فيها بحسب بلوغ الأدلة وفهمها .. وهذا لا يختص بالأئمة الأربعة رحمهم الله ، بل مذاهب العلماء قبلهم وبعدهم في الأحكام كثيرة ؛ فقد جرى الخلاف بين الصحابة رضي الله عنهم .. وللصديق رضي الله عنه مذهب تفرد به، ولابن مسعود كذلك ، وكذا ابن عباس، وغيرهم من الصحابة ، وكذا الفقهاء السبعة من

بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، ووجدوا تشريعات في المعتقد والسلوك تقشعر منها مشاعرهم، وينبو عنها ذوقهم المتربي في إطار «ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه»، وتأنف منها عقولهم التي تستشرف وتتطلع للحقائق بقيد العبودية لله خالقها.. ولم يشكوا لحظة في أنهم على حق من هذه النفرة؛ لأن ما وجدوه كان متصفاً بأنه في عرف معتقيه تدني، والدين تم ببلاغ رسول الله ﷺ، ولم يوجد هذا الغريب (الذي تقشعر منه أبدانهم، وينبو عنه ذوقهم) في النص الثابت يقيناً أو رجحاناً، ولم يجدوه في السيرة العملية المعتبرة - ومثلها الأعلى جيل رسول الله ﷺ، وجيل أصحابه رضي الله عنهم - ، ولم يجدوا مسلك الاجتهاد فيها مسلماً شرعياً ؛ لأنها تقوم على معارضة القطعي والأصح ، والتمسك بالضعيف والموهوم والمكذوب .. وعلى الحكايات والمنامات وأتباع من لا تقوم الحجة به ،

التابعين .. خالف بعضهم بعضاً في مسائل ، وغيرهم من التابعين كذلك .. ويعدمهم أئمة الأمصار كالأوزاعي إمام أهل الشام ، والليث بن سعد إمام أهل مصر ، وسفيان بن عيينة ، وسفيان الثوري إمام أهل العراق ؛ فكل مذهب معروف في الكتب المصنفة في اختلاف العلماء ، ومثلهم الأئمة الأربعة .. وجاء بعدهم أئمة مجتهدون خالفوا الأئمة الأربعة في مسائل معروفة عند العلماء كأهل الظاهر ؛ ولذلك تجد من صنّف في مسائل الخلاف إذا عنى الأربعة قال : اتفقوا .. وفي مسائل الإجماع التي أجمع عليها العلماء سلفاً وخلفاً يقول : أجمعوا .. وذكر المذاهب لا يختص بأهل السنة من الصحابة فمن بعدهم؛ فإن بعض أهل البدع صنّفوا لهم مذهباً في الأحكام يذكرونه عن أئمتهم كالزيدية لهم كتب معروفة يفتي بها أهل اليمن، والإمامية الرافضة لهم مذهب مدون خالفوا في كثير منه أهل السنة والجماعة».

قال أبو عبدالرحمن : عندما يقول الإمام ابن حزم في مراتب الإجماع : «اتفقوا ، واختلفوا» : فإنما يعني ما ذكره الشيخ عبداللطيف رحمهما الله .

وعلى الأهواء والآراء المرسلة ، وعلى الحمية لما انعقد عليه عرف المذهب ومأثور أهل ذلك البلد^(١).

ووجدوا عقيدة الأئمة العدول مجتمعة على أحكام عقيدية، وعلى ضرورة المسلك لكل ما هو موضوع للمعتقد، وعلى اليقين بأن لله غيوباً.. ولم يضمن ربنا بيان حقائق وكيفيات ومقادير ما غاب عنا، وليس في وسائل علمهم العقلي والحسي استكناه كل مغيب ؛ فوكلوا العلم إلى عالمه ، وتلقوا الخبر والوصف بالقبول ، وقالوا : آمنا بخبر الله على مراد الله .. ووجدوا مسائل يسع فيها الاختلاف ، ويكون فيها الأجران والأجر والمعذرة ، ووجدوا أن هذا هو اختلاف أئمة الأمة وعدولها ؛ فاختاروا لعامتهم مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله بقيدين :

أولهما : أنهم لا يزعمون أن الحق مع أحمد دون معارضيه من الأئمة ، ولكنهم اختاروا للعامة وأشباه العامة اتباع هذا المذهب ؛ لأنهم (أي العامة) عاجزون عن الاجتهاد والترجيح ، ولأنه مُحال اتباع جميع الأئمة مع اختلافهم ، ولأن موضوع

(١) قال أبو عبد الرحمن : سمعت الشيخ محمد الشدي - متعه الله بالصحة والعافية - يتحدث في منزل محب الجميع الشيخ عبدالعزيز بن عبد الرحمن المبارك عن منهج يجمع المسلمين ، وينقذهم من التمزق .. وهو أن يُحرَّر في البلاد الإفريقية مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله في العقيدة ، ويحرر في البلاد الإسلامية مذهب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه في العقيدة، ويحرر في مصر مذهب الإمام الشافعي في العقيدة ، ويحرر في جزيرة العرب مذهب الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة .. وسيرى علماء الآفاق أن عقيدة أئمتهم واحدة . قال أبو عبد الرحمن : يحصل بهذا الجمع محصول كلمة الأصوليين : اتفقوا .. فإذا أضيف إلى ذلك تحرير مذاهب الصحابة رضوان الله عليهم وتابعيهم ، وتابعي تابعيهم في القرون الممدوحة قبل حدوث الدخيل : حصل بذلك أقصى ما يحصل في علم الأصول من قولهم : أجمعوا .. وهو إجماع يحدد وجوبه قول الرسول ﷺ عن الناجين : من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي !! .

الاختلاف - وهو فرعي فقهي كالجهر بالبسملة في الصلاة الجهرية ، أو عدم الجهر بها - مما يسع فيه الاختلاف ؛ لأن فيه للمخطئ أجراً ورحمة متمثلة في العذر ورفع الوزر ، ولأنه ثبت لهم الإجماع على تمييز الإمام أحمد : بالصدق في ذات الله ، والورع الصحيح ، والزهد الصادق، والإحاطة بالنصوص، وتغليب جانبها .. لم يوجد قط من يتهم أحمد في صدق تدنيته ، وصدق تحريره لمراد ربه وإن رأى بعض المجتهدين تخطئته في بعض المسائل الفقهية ، أو ترجيح غير قوله .. وما دام غلبة العلم والصواب مرهوناً بغلبة التقوى : اختاروا لعامتهم مذهب هذا الإمام تغليباً لطريق السلامة في منهجه : من الوقف عن القول بغير علم ، والاحتياط ، وسد الذرائع ، وتغليب النص على الآراء والبدوات ^(١) .. قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «وفي

(١) أهل البدوات من يتكلمون ببدائ الرأي، ومن صفتهم: أن جمهور العامة، وجمهور غير المتخصصين في الشريعة، وجمهور أعشار المثقفين في الشريعة: ألفوا مشاهدتهم والاستماع إليهم من الشاشة الفضية بكلام مرتب، وأسلوب إنشائي، وهم - أي المتحدثون من الشاشة الفضية - ذوو ثقافة عامة.. يعرفون عدداً من أسماء أنهار العالم، وجبالها ، وعواصمها، ورجالها التاريخيين .. ويظهرون بمظهر الوعي السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي عالمياً ؛ لأنهم وعوا ورصدوا كلمات محللين لم يصبروا على غريزة الواقع لها أعواماً .. وربما نال أحدهم جائزة مالية أو اعتبارية تقديرية ؛ فنالوا مكانة اجتماعية وإعلامية ، وخفّت بهم الشهرة والشعبية ؛ فتناولوا على علم ذوي التخصص .

ومن صفات مثقفي البدوات أن أحدهم يتناول نصاً شرعياً كريماً ، ويقول : مذهب مالك ، (أو الشافعي، أو أحمد بن حنبل ، أو ابن جرير ، أو ابن حزم .. إلخ) في مدلول هذا النص الشرعي : كذا وكذا .. وهؤلاء على العين والرأس ، ولكن يبدو لي ، أو أرى أن المدلول كذا وكذا .. هذه هي ثقافة البدوات ، ومثقفو البدوات تغيب عنهم الحقائق التالية :

١ - حقيقة ما أسماه ابن خلدون بالملكة العلمية .. وحقيقة هذه الملكة أن الإمام مثل ==

الحنبلية أيضاً مبتدعة (وإن كانت البدعة في غيرهم أكثر)، وبدعتهم غالباً في زيادة الإثبات في حق الله، وفي زيادة الإنكار على مخالفهم بالتكفير وغيره ؛ لأن أحمد كان مثبتاً لما جاءت به السنة ؛ منكرأ على من خالفها ، مصيباً في غالب الأمور ، مختلفاً عنه في البعض ومخالفأ في البعض»^(١) .

وثانيهما : أنهم لم يتقيدوا ، ولم يقيدوا علماءهم بمذهب أحمد ؛ بل كانوا

== أبي حنيفة أو مالك .. إلخ إذا قال في النص قوله لم توصف قولته ببيدئ الرأي ١ .. بل هي نتيجة استقرار لجمهور النصوص، وإحاطة بالمقاصد المرعية ، وتمرس في سياسة النصوص ومعهود الخطاب الشرعي .. وهو عند قولته عن آية في عشرة النساء مثلاً ذو علم شرعي محيط في كافة أبواب العقائد والآداب والعبادات والمعاملات والأصول .

٢ - حقيقة «بضدها تتبين الأشياء» ؛ فذو البدوة يكون علمه بعلم الآلة أو بعضها كالحديث أو التفسير ، أو الأصول ، أو العقليات علماً بفهرس العلم فحسب ، يعلم مثلاً في النحو فاعلاً مرفوعاً ، ومفعولاً مطلقاً منصوباً .. وربما غاب عن علمه نائب المفعول المطلق...! ويعلم أن في أصول الفقه نسخاً وعموماً وإجمالاً وقياساً .. وربما غاب عن علمه دليل التصحيح ودليل الترجيح ، والنص على الشيء باسمه ، والنص عليه بمعناه ؛ مما يوزن به تدافع أصلي الاستصحاب والقياس !! .. وهكذا ، وهكذا ..

٢ - حقيقة أن باب الاجتهاد مفتوح ، وأنه يكون في المتغيرات وكشف الحكم في النوازل دون الثوابت بالضرورة ، وأن العلماء في اختلافهم في الشرعيات (فيما يسع فيه الاختلاف) : إذا أخلصوا لطلب الحق ، وتجردوا من الهوى والعصبية للمذهب ، أو الاستكمال الفردي، وعبدوا عقولهم لله : مصيبون كلهم ، ولكن الإصابة في طرف واحد ؛ لأن كل مجتهد مصيب ، وليس كل اجتهاد إصابة .. فكانوا مصيبين بحكم الشرع واعتباره ؛ لأنهم سلكوا المسلك الشرعي في الاجتهاد ، وأخلصوا القصد في تمييز المقصود بالعبادة ، والحرص على تمييز العبادة المقصودة ، وأعطاهم ربهم أجراً ومعدرة .. أما الإصابة فلا تكون لغير ذي الأجرين .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٨٦/٢٠ .

يَتَّبِعُونَ الدليل ، وتجد إشهارَ ذلك في رسائل علماء نجد ومسائلهم ^(١) .. وإنما

(١) قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رحم الله جميعهم عن الإمام محمد بن عبد الوهاب - كما في الرسائل والمسائل النجدية ٣/ ٢٧٢ - ٢٧٣ - : «وأقواله في أصول الدين مما أجمع عليه أهل السنة والجماعة .. وأما في الفروع والأحكام فهو حنبلي المذهب، لا يوجد له قول مخالف لما ذهب إليه الأئمة الأربعة ، بل ولا خرج عن أقوال أئمة مذهبه .. على أن الحق لم يكن محصوراً في المذاهب الأربعة كما تقدم .. ولو كان محصوراً فيها لما كان لذكر المصنفين في الخلاف وأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم مما خرج عن أقوال الأربعة فائدة» .. وقال عن شيخ الإسلام ابن تيمية - كما في المسائل والرسائل النجدية ١/ ٤٩٦-٤٩٧ في مسألة فقهية - : «ومعلوم أن الشيخ رحمه الله قد اطلع على هذه الأحاديث في النهي عن بيع الطعام قبل قبضه وأنه تأولها .. لكن إذا لم نعلم وجه تأويله، ولم يتبين لنا رجحان دليله: لم يجوز لنا أن نخالف هذه الأدلة الثابتة عن النبي ﷺ في النهي عن بيع الطعام قبل قبضه، بل نجريها على عمومها للبائع وغيره حتى يثبت عندنا دليل راجح يخصص هذا العموم .. وإلا فلا يجوز لنا أن نتركها تقليداً للشيخ رحمه الله ولا غيره؛ بل يجب اتباع النص؛ فإذا أفتى بعض المفتين بخلافها، وعارض الأحاديث بكلام الشيخ وكلام ابن عباس رضي الله عنهما: أجيب بما أجاب به ابن عباس لمن خالفه في مسألة المتعة حيث يقول: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء .. أقول : قال رسول الله ﷺ .. وتقولون: قال أبو بكر وعمر ! [رضي الله عنهم] .. وأبلغ من هذا في الزجر عن مخالفة النصوص لقول بعض العلماء قوله تعالى : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النور / ٦٣] .. كما استدلل بها الإمام رحمه الله ؛ فقال : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان والله تعالى يقول : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .. أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك .. لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيف فيهلك ؛ فالواجب فيما تنازع فيه العلماء ردهُ إلى الله والرسول كما قال تعالى : ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [سورة الشورى / ١٠] ، وقوله : ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [سورة النساء/ ٥٩] .. فإذا وجدنا مسألة قد اختلف العلماء فيها وجب علينا الرد إلى النصوص؛ فما وافق النصوص وجب الأخذ به، وما خالفها وجب رده .. وأما تركها لقول بعض العلماء، والتعليل بأنهم أعلم منا بمعانيها: فلا يجوز ، بل هذا عين التقليد المذموم الذي أنكره شيخنا رحمه الله تعالى كما أنكره العلماء قبله .. والله سبحانه وتعالى أعلم» .

وحدّوا الفتوى لحاجة العامة إليها ، وعدم حاجة العالم إليها في خاصة نفسه وأهله ..
 ووحّدوا القضاء ؛ لأنه إلزام ، ولا تطيب نفوس الخصوم من العامة باجتهاد مختلف ..
 والقضاء سائر في طريقه اليوم إن شاء الله إلى الاتحاد مع الفتوى التي تصدرها
 هيئة كبار العلماء .. وها هو سائر إن شاء الله إلى اكتمال أهلية الهيئة بأطراف
 متعددة الاختصاص في العلوم الشرعية الأصلية كالمحدث والمفسر والأصولي إضافة
 إلى الفقيه .. وفي العلوم المساعدة كاللغة والصرف والنحو والبلاغة والفكر (١) .

(١) قال أبو عبد الرحمن : وهذا الاجتهاد الصادر عن النخبة في دولة واحدة يحقق إجماعاً
 جزئياً ، وفتح باب الاجتهاد لا يكون بثقافة البدوات التي أسلفتها .. ومن حتميات فتح باب
 الاجتهاد أن طالب العلم من أبناء العصر يستحيل عليه أن يوافق جميع عدول الأمة وعلمائها
 فيما يسع فيه الاختلاف ؛ لأن العلماء مختلفون .. وإنما يُحتمل القرب من الجمع بين الأقوال
 في شيء يسمونه « الخروج من عهدة الخلاف » .. وإنما هذا في مسائل يسيرة ليس الاختلاف
 فيها اختلاف تناقض أو تضاد .. وما جعل الله كل شيء من العلم بالحقائق من نصيب المتقدم
 دون المتأخر ؛ بل قد يصل المتأخر إلى الحقيقة يقيناً أو رجحاناً بترجيح قول قديم على قول
 قديم ؛ فيكون وصل إلى الحقيقة اجتهاداً لا تقليداً .. أو يصل إلى الحقيقة باستئناف قول
 جديد ؛ فيكون وصوله إلى الحقيقة يقيناً أو رجحاناً بالاجتهاد والابتكار .. ولكن هذا لا يكون
 بالبدوات الثقافية ؛ بل يكون بعلم وموهبة ؛ فيستقرّ حجج الإمام ، ويستقرّ الحجج
 التي استجدت لدى علماء مذهبه ، ويستقرّ حجج المعارضين ، ويستقرّ معارضة الإمام
 وأصحابه التي واجهوا بها تلك الحجج ، ويتصورها ، ويفهمها ، ويحدّدها بعبارة سمحة
 موصّلة ، ويُفيض هو بما فتح الله عليه من الحجج والمعارضات .. ويكون مع ذلك مخلصاً
 لله في تحرّي الحق ، وتكون له أصول مطردة يلتزمها مالم يستجد له ما يقتضي تراجعها ..
 وأعظم دليل على صدق الفكر وإخلاصه وضبطه وتماه علمه : اطراد أصوله ؛ فقد لا تقول
 بالخبر المرسل ، وقد تقول به ، وقد تقول ببعض المصطلح الذي تُصحّح به الآثار المعلولة ، أو
 قد لا تقول به .. المهم أن يكون قولك الأصولي واحداً في كل ما يواجهك من الفروع .
 وذوو البدوات يصحّون مسألة وفق أصول ، وينقضون مسألة برهانها تلك الأصول : فهم
 أبناء ساعتهم ، ولا عهد للجمهور بأصول لهم محررة .
 ==

إذن دولة آل سعود قامت على هذه المنهجية من ضرورات الشرع والفكر التي يُضمن بها تحقيق مفهوم السلفية والطائفة المنصورة .. والحاكم بِشَرٍّ مَعْرُضٌ للنقص البشري ، ولكنه على دولة صالحة مرحومة واجبة الطاعة والمحبة ؛ لأن العلماء جمهرة أولي الحل والعقد ، ولأن الدستور بالمنهجية التي ذكرتها ، ولأن البيعة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .. وفي الكتاب والسنة علاج للضعف والنقص والصغائر في حق من انعقدت له البيعة الشرعية .. والمعادلة بين المصالح والمفاسد ميزان شرعي فكري ، والوفاء بحق البيعة من الرعية مسؤولية كبرى إن أخلَّت بها عرَّضت نفسها للفتنة في الدنيا والآخرة .. وليس معنى ذلك أن نعتقد صحة كل خطأ ، وإنما معنى ذلك أن تظل علاقة الرعية بالراعي - حال الخطأ والصواب - في معالجة ما وقعت البيعة عليه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفق علاج النص الشرعي الذي وقعت البيعة عليه .. وعقيدة السلف صريحة واضحة في ذلك ، وقد صدرت في هذا المجال مؤلفات قيِّمة نفيسة من تراث السلف قديماً وحديثاً .

وكانت الدولة السعودية (التي لم تقم على أنقاض دولة مسلمة قائمة حياً للسلطة) ذات أوليَّة كريمة مرحومة أيضاً ؛ ذلك أنها أول دولة تقوم في جزيرة

== وبعد هذا العناء الذي ذكرته من استقراء الحجج والشبهات والاعتراضات : ربما رأى المعاصر أنه مكفي في كثير من التفاصيل ، وأن فضله في الاستدراك اليسير ، وتحصيل علم المسألة وتنظيمه وترتيبه وتقريبه للأذهان وفق التأليف السبعة التي حصرها الإمام أبو محمد ابن حزم في كتابيه «التقريب» ، و «مراتب العلوم» ، ووصفها بأنه لا يؤلف عاقل عالم في غيرها .. وأندرها وأهمها شيئٌ يبتكره لم يسبق إليه .. وهذا العناء هو الذي نجده في كتب العلماء الفحول المعتمدين من أمثال الشافعي وابن جرير وابن عبدالبر وابن حزم والنووي وابن قدامة وابن تيمية .. إلخ .
وأصحاب البدوات يتعلمون ويُخَطِّطُونَ ويصُوبُونَ في المسائل الكبار في مقالات من أسطر ؛ فَوَا ضِيَعَةَ الأعمار والمواهب !! .

العرب ؛ لتجمع الأمة على عقيدة السلف وسلوكهم ، وتزرع بالذكر الحكيم وعصا السلطان الحكيمة الرحيمة من شدَّ لجَهْلٍ ، أو هوى .

وهذا المجتمع السلفي - لطبيعة سلفيته - لم يكن في تحسير ولا تقصير؛ فلم يُلْغ بالتقصير حكم الله بالكفر والفسق في أفراد معينين، وفي جماعة مطلقة الصفة غير معينة الأفراد، وفي مسائل من العقيدة والسلوك .. بل قالوا : نكُفِّر من كفره ربنا، وما كفره ربنا، ونخشى عقوبته إن أهملنا ما أعمله الله .. ولم يُعْتَدِ هذا المجتمع بالتحسير على المعين بتكفيره ، وإنما كُفِّر ما صح أنه كُفِّر من قول وفعل ومعتقد .. وبناء على أنه لا تلازم بين الكفر والتكفير لم يُكْفَرُوا المعين بكفر صدر عنه إلا بعد العلم بقيام الحجة عليه، أو جعل التكفير حكماً قضائياً يقوم على المرافعة، والإثبات، ورفع العذر .. ثم هو تكفير من وقائع علمهم الديني تترتب عليه الأحكام الدنيوية من المواريث والولاء والبراء .. إلخ ؛ لأنهم لا يشهدون لمعين بجنة أو نار إلا من شهد له الشرع بأحد ذينك ، ويرجون للمحسن الثواب ، ويشدّ رجاؤهم بما يرونه من شواهد الإحسان .. ويخافون على المسيئ^(١) العقاب ، ويشدّ خوفهم بما يرونه من شواهد الإساءة^(٢) .

قال أبو عبدالرحمن : إذن البديهة الأولى أن الدولة السعودية ملك رحمة لا جبرية ؛ لأنها أسست دولة شرعية لم تكن موجودة ، ولم تكن على أنقاض دولة قائمة بأمر الله من أجل السلطة ، وكانت سلفية ذات حسبة ، وكانت حكومة بيعية شرعية بشرطها السلفي ، وكانت في البداية إكراهاً لمشيخات قبائل ، وتجزئة زعماء قرى

(١) على الرغم من أن الألف المهموزة مكسورة فلم يترجح الرسم المعتاد برسمها على ياء ؛ لأنه لا يوجد هنا مسوِّغ الجمال لاتصال حروف الكلمة ، بل حروف الكلمة متصلة دون حاجة إلى نبرة؛ فالرسم الأصوب : المسيأ .

(٢) انظر الحاشية آخر الكتاب رقم (٣) .

متسلطين : لا تحكمهم دولة واحدة ، ولا يشعرون بهمّ جماعي واحد ، ولا يُحلّون دين الله محله - عن علم - من الفتوى والقضاء والتعليم والدعوة ؛ فلما وجدت الدولة ، ونعم المجتمع برفدها (بإحياء شريعة وعقيدة ، وتنمية مواهب بشرية وموارد طبيعية، وتوحيد قدرات، وتخليص حقوق ، ورفع مظالم): كانت الرعاية هي المناقحة عن دولتها ووحدتها؛ إذ لم تقم الدولة على نصر عشيرة .. وألفت هذه الجزيرة (وهي ذات نزوع قبلي لا يقبل الخضوع لأحد) الحب والطاعة معاً لبيت هذه الأسرة الكريمة بشرط البيعة السلفية، وكان البيت السعودي رمزاً وطنياً دينياً يعتز به ويحافظ عليه كل بيت، وكان سلوك علماء الأمة وعدولها منذ الإمام محمد بن عبد الوهاب .. إلى سماحة الشيخ ابن باز .. إلى كل من صلحت ملته ونحلته على هذا الولاء والمعتقد ؛ فمن لم يسعه ما وسع هؤلاء الأ خيار فلا وسّع الله عليه، وخليق أن تحقيق به الفتنة .

قال أبو عبدالرحمن : والطاعة والولاء للدولة المسلمة - وإن ظهر بعض الجور - قرّرهما علماء السلف لدول إسلامية قامت على أنقاض دولة وجماعة ، وسموها دولة الغلبة والقهر، وهي ملك الجبرية (التي لم يساعد على قيامها أحد من أهل العلم) ؛ وذلك لصالح الجماعة، وتغليب دَفْعِ المفسدة الكبرى على تحقيق المصلحة التي تصغر بجانب المفسدة.

قال أبو عبدالرحمن: فهذا هو الحق الشرعي لدولة مُلْكٍ جبرية فيها جور لم يساعد على قيامها أحد من أهل العلم والدين، وكانت على أنقاض دولة وجماعة.. وبضدّها تتبين الأشياء؛ فملك آل سعود ملك رحمة لا جبرية؛ لأنه لم يقم على أنقاض جماعة ودولة، ولأنه قام بالدعوة ومن أجلها في بقاع متاثرة ليس فيها دولة ولا دعوة، ولأنها قائمة بفتوى ومناصرة ومواقف أهل العلم والدين الربانيين، ولأنها

ذات أوليَّة في الرقعة، وذات ميزة بين الدول المعاصرة في التفرد - مجتمعاً ودولة لا أفراداً - بالسلفية، وإخلاص الحكم للدستور الإسلامي؛ فهي جهة تنفيذ .. إن حقها ليس هو الولاء لدفع مفسدة كبرى؛ بل حقها الحب العميق الخالص والولاء ؛ لما تقوم به من دفع المفاصد وتحقيق المصالح معاً .

ودعوة السلف إلى هذا اليوم مبيلة بثلاثة أصناف من البشر ذكرهم الشيخ عبداللطيف بن^(١) عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ رحمهم الله؛ فقال: «الصنف الأول: من عرف الحق فعاداه حسداً وبغياً كاليهود؛ فإنهم أعداء الرسل والمؤمنين كما قال تعالى: ﴿بَسْمًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(٢) .. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٣) .

الصنف الثاني : الرؤساء أهل الأموال الذين فتنتهم دنياهم وشهواتهم ؛ لأنهم يعلمون أن الحق يمنعهم من كثير مما أحبوه وألفوه من شهوات الغنى ؛ فلم يعبأوا بداعي الحق ، ولم يقبلوا منه .

الصنف الثالث: الذين نشأوا في باطل وجدوا عليه أسلافهم يظنون أنهم على حق وهم على باطل؛ فهؤلاء لم يعرفوا إلا ما نشأوا عليه وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .. وكل هذه الأصناف الثلاثة وأتباعهم: هم أعداء الحق من لدن زمان نوح إلى أن تقوم الساعة.

(١) قال أبو عبدالرحمن : الراجح عندي حذف ألف «ابن» أول السطر . لأنه لا مسوِّغ لذلك تأصيلاً ، ولأنه عند تصحيح تجارب الطبع، وإعادة الطبع يكون ما هو أول السطر وسطه، فتبقى ألف ابن في غير موضعها .. وهكذا كانت «بن» في تجربة سابقة أول السطر .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٩٠ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٤٦ .

فأما الصنف الأول : فقد عرفت ما قال الله فيهم .
وأما الصنف الثاني : فقد قال فيهم : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .
وقال عن الصنف الثالث : ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٢) . وقال ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٣) . وقال ﴿ إِنَّهُمْ أَكْفَرُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ بَهْرَعُونَ ﴾ (٤) .. وهؤلاء هم الأكثرون كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٥) .. وقال تعالى في سورة الشعراء عقب كل قصة : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٦) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧) ، وقال تعالى في قصة نوح عليه السلام : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٨) ، وقال : ﴿ وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَصِلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٩) .

- (١) سورة القصص ، الآية : ٥٠ .
- (٢) في الأصل المطبوع : إِنَّا وَجَدْنَا .
- (٣) سورة الشعراء ، الآية : ٧٤ .
- (٤) سورة الزخرف ، الآية : ٢٢ .
- (٥) سورة الصافات ، الآيتان : ٦٩ - ٧٠ .
- (٦) ورد هذا التقسيم حسب هذه الأصناف في مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٤/٤٣٤ ، وذكر أن ذلك في الرد على البويري، وعلى هذا تكون الشبهات العمانية هذه آتية من البويري .
- (٧) سورة الصافات ، الآية : ٧١ .
- (٨) سورة الشعراء ، الآيتان ٨ - ٩ .
- (٩) سورة يوسف ، الآية : ١٠٣ .
- (١٠) سورة هود ، الآية : ٤٠ .
- (١١) سورة الأنعام ، الآية : ١١٦ .
- (١٢) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٣/٣٧٢ - ٣٧٤ .

البرجية

ذو الحجة ١٤٢٤هـ - ربيع الأول ١٤٢٥هـ
 فبراير - مايو ٢٠٠٤م

الستتان السادسة والسابعة
 العددان : الرابع والخامس والعشرون

ونقل عن أبي الوفاء علي ابن عقيل^(١) في موضع آخر قوله : «لما صعبت التكاليف على الجهلة والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى أوضاع وضعوها لأنفسهم ؛ فسهلت عليهم ؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم .. قال : وهم عندي كفار ؛ لهذه الأوضاع مثل تعظيم القبور وإكرامها وإلزامها لما نهى عنه الشارع من إيقاد السرج وتقبيلها وتخليقها ، وخطاب الموتى بالحوائح ، وكتب الرقاع التي فيها : يا مولاي افعل بي كذا وكذا .. وأخذ^(٢) تبركاً بها .. وأما إفاضة الطيب على القبور ، وشد الرحال إليها ، وإلقاء الخرق على الشجر ؛ اقتداء بمن عبد اللات والعزى : فالويل عندهم لمن لم يقبل مشهد الكفار ، ولم يتمسح بأجر المدينة يوم الأربعاء ، ولم يُقبَلَ الجملون^(٣) على جنازة الصديق أبي بكر وعلي [رضي الله عنهما] ، أو لم يعقد على قبر أبيه أزجاً^(٤) بالجص والآجر ، ولم يخرق ثيابه إلى الذيل ، ولم يُرق ماء الورد على القبر»^(٥).

قال أبو عبدالرحمن : بمحك «بيضاء لم تشب» يُحاكم ما يفعله البدعيون - مما حكاه أبو الوفاء - إلى ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه ؛ فإن لم يوجد فهو من الوشب ، ومعارضة حقائق الشرع بشهوات بعض البشر .

قال أبو عبدالرحمن : وبالمقابل أذكر ثلاث فئات يعز الله بها الأمة :

الفئة الأولى : المجاهدون في سبيل الله بشتى طرق الجهاد .. وما الجهاد في سبيل الله إلا لإسعاد البشرية جمعاء ، وعمارة الأرض بالحق والخير والجمال ،

(١) قال أبو عبدالرحمن : إذا وردت «ابن» بين علمين غير مباشرين ، بل بينهما أب أو آباء ؛ وجب إثبات ألف ابن .. نص على ذلك في درة القواص وغيره .

(٢) بين هاتين الكلمتين بياض في الأصل بمقدار كلمة (لعلها «التراب» أو «الحصاة» .

(٣) الجملون ما كان من البناء على هيئة سنام الجمل ، وهي محركة بفتح الجيم والميم وضم اللام .

(٤) الأزج محركة بيت بينى طولاً .

(٥) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٣/ ٣٩٤ .

وتحرير البائسين - اختياراً واضطراً - من الإباحية المنهكة للنفس والجسد بالقلق والكآبة والشيخوخة في الأشد والجنون والانتحار .. ومن المزج بالريح .. يتم ذلك بتحرير العقل من الشهوات والشبهات ، والاهتداء بضرورات الفكر والحس والعلم في تحقيق المنعة (بالنون) والمتعة (بالتاء المثناة الفوقية) .. وضحايا المزج بالريح مغمورون بالتمعلم، وخيالات الفلسفة ، والتراكم الفكري المكرر .. خذ مثال ذلك حقيقة الألوهية الكبرى ، أو مسألة الحرية والجبر ، والخير والشر ، وضرورة الأديان ومعقوليتها .. كل ذلك مسألة واحدة ، وكل ذلك ثلاثة مذاهب : إما النفي المطلق ، وإما الإثبات المطلق ، وإما النفي أو الإثبات بقيد .. والمتبصر في الفلسفة الحديثة (بعد فلسفة العقل التي تبناها ديكرت ومالبرانش وليبنتز .. إلخ ؛ فأعادت للعقل مكانته ، وللعلم والحس دلالته ، وللأديان ضرورتها) : يجد أن الفلسفة المتبصرة أُجلب عليها بمئات الفلسفات لا عشراتها .. مئاتها بلا مبالغة ولا تزئيد .. (١) وبكل فلسفة تقول : العقل لا يعلم، والعلم لا يعلم ، وليس للحس إلا مثال في الذات لا في الموضوع، والدين طبيعي صناعي ، وكل الطرق توصل إلى روما ، وليس هناك حق إلا بمقتضى القانون الطبيعي، وبناء القانون الطبيعي على أكذوبة أن الحق الطبيعي يبيح لك ما تؤد وتشتي بشرط أن لا تؤذي حرية الآخرين .. وما يحرم أو يكره في الأديان وتربية المصلحين والمعلمين ، وضرورات الفكر والحس المكرر (التجربة) .. كل ذلك قيود وأغلال تؤذي الحرية .. والحرية في ذاتها أصبحت قيمة ومعياراً مع أنها في الواقع مضمونٌ معيارٍ وقيمة، وليست قيمة في ذاتها ؛ فالتحرر من الشر خير، والتحرر من الخير شر .. وأجر هذا الإجراء في مضامين الحق والباطل ،

(١) النقطتان الأفقيتان الأوليان إشارة إلى استئناف الكلام مع تقدير فيه .. أي أجب بمئاتها ، والأخريان لطول الفاصل بين المعطوف والمعطوف عليه .

والجمال والقبح، والصحة والفساد، والظلم والعدل، والإحسان والإساءة.. إلخ.. إلخ. وكل هذه الفلسفات التي ظاهرها التعارض وسعة الجدل ، وكل تلك المصطلحات المتعددة تدور على مسائل معينة لا تحتل هذا التمزق ، وتتصر قضية واحدة من ثلاث قضايا .. والمبهور بهذا التراكم من الحاوين للفلسفة من العرب - ودعك من فلاسفة الخواجات الحقيقيين - يتولجون في هذا التراكم منذ اليفاع ، وينحنون وتثلثهم العصا وهم في هذا الضجيج .. وحصيد الأيام بُعدٌ عن الحياة في صومعة رهبان فكرية ، وليست صومعة رهبان تعبدية مأجورة بارة قبل نسخ الأديان .. وهي تشبع بالمصطلح الأجنبي ، ومسرد الفلاسفة الخواجات، والإمامة في معرفة أوجه الافتراق واللقاء بين المذاهب والتراكمات.

وهناك ضجيج إعلامي ، وشعبية وتصفيق من الدهماء .. وما كان هتاف الغوغاء ظاهرة حق ألبتة ؛ فيظل العربي الحاوي مبهوراً بالضجيج، مخموراً بالتشيع، أسيراً لفلاسفة دعوى التتوير .. كما كان الحاؤون العرب أسرى لعلوم الأوائل كالفارابي وابن سينا وابن رشد .. وهم تجاوزاً فلاسفة صناعيون .

أما ذوو المحاكمة الفكرية - وأسميهم حقيقة لا تجوزاً فلاسفة معياريين - كالشافعي وابن جرير والصيرفي وابن حزم وابن تيمية والشاطبي .. كل هؤلاء لا يرمقهم أصحاب فلسفة التراكم بمؤخرة أعينهم ؛ لأنهم ليسوا أسرى علماء الأوائل .. وقل مثل ذلك عن محمد بن عبد الوهاب ، والصنعاني ، والشوكانبي، وابن الوزير ، والمقبلي ، ومحمد رشيد رضا ، ومحمد أبو زهرة .. إلخ .. إلخ ؛ لأنهم ليسوا أسرى فلسفة الخواجات المعاصرين .

وكل هؤلاء يفرقون بين عالم الغيب والشهادة ؛ فما كان من عالم الشهادة فلا يزاحمونه بميتافيزيقات، ويعلمون أن خبر منزل الشريعة موافق لمشهود الطبيعة..

ومشهود الطبيعة مصدق لخبر منزل الشريعة؛ لأن خالق الطبيعة هو منزل الشريعة؛
ولأن الخبر والمشهود برهانان، والبراهين حق ، ولا تنافي بين الحقائق.

وما كان من عالم الحقائق المغيبة فيُعْمَلون كل مواهبهم في تصحيح ثبوته عمن
توجب ضرورات الفكر تصديقه ، ثم يقولون للفيلسوف ولذي العلم المادي المحقق :
الإجماع منكما على أن العقل والعلم المادي لا يملكان وسيلة لتكييف المغيب أو
تقديره، وإنما يملكان الحكم في موضعين :

أحدهما : الحكم في ذات الوجود بإثبات أو نفي أو احتمال .

وثانيهما : الحكم في ذات الموجود وصفاً مقارباً لا تكييفاً ولا تقديراً ..
وطريق ذلك : إما التسليم لمخبرٍ عنه أوجبت ضرورات الفكر تصديقه ، وإما وصفه
من آثاره .. وكم من موجود عرفه العلم بآثاره قبل أن يعرفه بذاته .

والفلاسفة المعياريون أمناء مع الفلاسفة الصناعيين وأقطاب العلم المادي..
يقولون لهم : ما كان ممكناً في النظر المجرد فلا تحكموا بإحالاته من غير علم ؛ لأن
الحقائق الموجودة غير مفتقرة في وجودها إلى علمنا ، ولأن الحقائق موجودة قبل أن
نوجد بين ظلمتي الرحم والقبر ؛ فإذا أخبر عن وجود الممكن من توجب ضرورات
الفكر تصديقه فهو متعين لا مجرد ممكن .

والفئة الثانية: النافرون في العلوم الدنيوية النافعة لأمتهم ؛ لإعداد القوة
الواجبة، والمتعة المباحة المنشطة على العزائم .. وتزداد ركنيتهم وأهميتهم بمقدار
إخلاصهم لتخصصهم ، وبمقدار تغطيتهم لحاجة أمتهم من المرافق والخدمات
والمتاع والأداة - على مستوى الدولة في الحرب، والبيت في الأثاث!! - .

وشر خلف لهؤلاء هامشييو الصحافة والتراكم الفلسفي الذين يُحْلَقون في

سماء غير سماء الواقع .

والفئة الثالثة : أهل التخصص في الشريعة عقيدة وسلوكاً من المعممين!!.. ولا أريد ظاهرة الزي ، وإنما أريد جوهر ذلك الزي الذين لا يكون أحدهم إماماً في الفقه إلا وهو واسع الثقافة في الحديث والتفسير ، وأصول الفقه ، واللغة وأصولها ، والنحو وأصوله ، والضروري في العقلیات ، ومنهج الجدل والخلاف.. ولا يكون إماماً في الحديث إلا وهو واسع الثقافة في بقية العلوم .. وقد رأينا من ردود ومحاوره أحمد بن حنبل والشافعي وابن جرير وابن سريج والصيرفي وأبي مسهر .. إلخ ما يجعلهم من كبار المفكرين .. والمشهور أنهم أصحاب أثر وحسب !! .

والأمة اليوم مفدوحة ؛ لغياب الجمهرة من هؤلاء المعممين ، وإنما يوجد قلة نفع الله بهم آلاف الآحاد كسماحة الشيخ ابن باز في مملكتنا قدس الله روحه ، ونور ضريحه .. وآخرون من المعممين في جوهرهم يتوارون عن وسائل الإعلام ، ويقنعون بحلقات بيوتهم ومساجدهم ؛ لأنهم يُؤذون من مثقفي البدوات - بفتح الباء والواو المخففة جمع بدوة - الذين يتكلمون ببدائ الرأي!!.

وتطاول على مذهب السلف فقهاً وعقيدةً ذوو التعصب ، وبعض المعاصرين من أصحاب البدوات .. ويُسدَى إلى هؤلاء جميعاً الموعظة بحقيقتين :

أولاهما : أنه ليس في نصوص الشريعة جزئي من ناحية سلوكنا وامثالنا ، وإنما الجزئية جزئية مدلول كاستثناء الخاص والمقيد بدليلهما ، بل نحن مطالبون بالأداء على التمام وفق القدرة والاستطاعة .

وأخراهما : أن إجمال المقاصد ، وإجمال الكليات لا يكون باختيارنا ، وإنما نتلقاه عن ربنا بالنص ، ونتلقاه من عقولنا بحتميات الفكر وضروراته التي يسميها ابن حزم دلالة العقل من وجه واحد .. والخلاف بين فقهاء الحديث الذين يعيبهم ذوو البدوات وبين فقهاء الرأي : أن النصوص الشرعية عند الأولين أمثلة تسبق

القاعدة ، ثم تكون القاعدة والكليات استنباطاً من نصوص مجتمعة .. أما الآخرون فالقاعدة عندهم فكرية - وليست حتمية فكرية بالضرورة - تسبق الأمثلة من النصوص الشرعية .. فإن وافق النص الشرعي قواعدهم المأخوذة من محض الرأي كان النص كلياً ، وإن خالف فهو جزئي يُؤوّل أو يفوض .. وفي التأويل يُخلّون بدليل التصحيح والترجيح ؛ فالأولون يحكمون بالأمثلة ، والآخرون يحكمون عليها !! .

ويزعم ذوو البدوات أن أهل الحديث حمّلوا شريعة الله ما لا تحتمله بضيق أفهامهم، وسعة أوهامهم .. ثم لم يذكروا برهاناً على أن مذهبهم ينتج هذه الدعوى . وحقيقة مذهبهم ودعواهم: أنهم ينفون من شريعة الله ما ليس منها، وأن من لم يفصل بين الثقافة البشرية والمراد الشرعي: فقد حمّل الشريعة ما لا تحتمله .. لا بضيق فهمه .. بل بسعة خياله ووهمه !! .. فأبي الدعويين أصح^(١) .

قال أبو عبد الرحمن : الجواب أن الله سبحانه وتعالى ليس في حسنا ؛ فلا نعرف مراده منا إلا بكلامه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وفي كتابه .. ولا سبيل لنا إلى فهم كلام ربنا إلا بواسطتين لا ثالث لهما : وهما لغة العرب، والعقل ؛ فالنص لا نأخذ منه إلا ما دلّت عليه لغة العرب ؛ إما باصطلاح لمنزّل الشرع ، وإما بعرف عام لأهل التنزيل ، وإما بمعنى لغوي خاص ويُعيّنه النظر في السياق والقرائن ، وإما ببرهان يصرف اللفظ عن ظاهره كالسيرة العملية ومعهود اللسان العربي في حمل «إذا» ؛ وما بعدها على الإرادة في كثير من المواضع؛ فعلمنا أن الاستعانة ليست بعد تلاوة القرآن، ولكنها عند إرادة التلاوة.

(١) قال أبو عبد الرحمن : هذه الأسطر منتخبات من مناقشتي فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي ، وقد بالغ في الاستخفاف بأهل الحديث حمية وتعصباً لمذاهب أهل الرأي .. وقد نشرت بجريدة الشرق الأوسط آخر رمضان وأول شوال عام ١٤١٨ هـ .

ومن قال مثلاً : شُرِّب لبن بمقدار خمس رضعات ، أو أكل مشتقات من اللبن في مقدار خمس رضعات : يحرم ما يحرم النسب : يقال له : إنما جاء النص في الرضاع ، وهو في لغة العرب مصٌّ بفيه من ثدي ؛ فمن زعم أن ذلك رضاع فقد ادعى على لغة الشرع ، ومن زعم أن ذلك حكم شرعي فعليه البرهان من غير نصوص الرضاع .
والعقل نعلم به صحة النص ثبوتاً ، ونعلم به صحة النص دلالة ، ونميز به بين معاني النصوص .. والعقل برهان ؛ لأنه شرط في التكليف .

وكل الأشياء : إما معقولة ، وإما غير معقولة .. ولا ثالث لذينك .. إلا أن المعقولات تتنوع ؛ فهناك معقول بفطرة العقل (الأفكار الخالصة ، أو المبادئ الفطرية) ، ومعقول بالحس ، ومعقول بالشرع ، ومعقول بالخبر ، ومعقول بكل ذلك أو ببعض ذلك .. ثم نظرنا في كلام ربنا بعقولنا بمفهوم اللغة العربية ؛ فوجدنا الإحالة إلى طاعة الرسول ﷺ ، وإلى الحس ، والعقل .. والرسول ﷺ ، يُعرف مراده بقوله وفعله وإشارته وتقريره ، وسكوته ، وملامح رضاه ، وغضبه؛ لأنه محسوس لأبناء عصره .

والعقل فيه يقين وهو مالا يحتمل غير وجه واحد كعلمنا بأن للأب الباقي في فقيد ليس له غير أم وأب؛ فقد علمنا بضرورة العقل التي لا احتمال غيرها أن ما بقي من الإرث لمن بقي من الورثة في هذه المسألة ، ولا ورثة إلا الأب والأم ، والأم لها الثلث ؛ فما بقي من الإرث وهو الثلثان لمن بقي من الورثة وهو الأب بضرورة العقل .. وفي العقل رجحان، وهو يقين عملاً لا فكراً؛ لأن إسقاط الرجحان إلغاء للعقل ، وقد أمرنا الله باستعمال عقولنا ؛ إذ جعله شرطاً للتكليف ، والأخذ بغير الراجح سفه وعناد وتحكم ، وكل ذلك محرم .

وفي العقل ظن لا رجحان معه ، ثم وجدنا ما هو موضوع لنظر عقولنا ؛ فوجدنا ما يتعلق بربنا سبحانه ، وبالمغيب ، وقد حرم علينا ربنا أن نقول عليه أو عنه

بلا علم.. قال سبحانه : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^(١) ؛ فلم يقبل العقل في ذلك غير اليقين، ولا سبيل لليقين إلا بخبر ربنا.. ثم يدخل اليقين والرجحان والظن في مدلول خبر ربنا؛ فلا نحرر مدلولاً للنص إلا بيقين أو رجحان .

وأما الوقائع كمعرفة القبلة ، ودخول الشهر ، والحكم لأحد المتنازعين بيمينه إذا عُدمت بينة المدعي : فطرق الإثبات في ذلك ظنية ، ولا سبيل لنا إلا الرجحان ، وسلوك ما حُدِّد لنا شرعاً من طرق الإثبات .

قال أبو عبد الرحمن : والفكر عمل عقلي حر لا سلطان عليه إلا من العقل نفسه ؛ فتتوقف حريته بظهور يقين لا يدفعه احتمال معتبر ، أو بظهور رجحان يدفعه احتمال معتبر مرجوح .

ومن معادلات العقل في أفكاره أن لا يُقدِّم رجحاناً على يقين ، ولا احتمالاً غير معتبر على احتمال معتبر أرجح .. وبناء على هذه المعادلة يقبل العقل المقايضة؛ لإظهار عدم الفارق في حكم ثابت بغير القياس ، والمفارقة واللقاء بين واقعيتين ، يحرر ولكنه لا يُجري حكماً شرعياً في شيء على شيء آخر يلتقي معه في أشياء ويفترق عنه في أشياء ؛ ولهذا كانت علل القياسيين وأوصافهم ومعانيهم التي يُعدِّون بها حكم شيء إلى شيء احتمالات متعددة ، وليست يقيناً عقلياً ولا رجحاناً مثل علل الإجراء في الربا ؛ فقد بلغت عندهم اثنتي عشرة علة كالكيل والوزن والجنس والطعم واللاقتيات والادخار ؛ فهذه ظنون عقلية لا يقبل العقل تقديمها على اليقين الذي هو استصحاب البراءة والحال ؛ فإن ثبت مثلاً ببرهان شرعي أن الطعم يجري فيه الربا؛ فذلك نص على واقعة الحكم بالمعنى ؛ فهو نص لا حاجة فيه إلى القياس .

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٢٦ .

وما يسمونه بالقياس الجلي (أو قياس الأولوية) الذي يشنعون فيه بالمخالفة دعوى لا برهان .. وإنما يكون برهاناً إذا كان حكاية لمعهود حكم شرعي؛ فَوَجَدَ النظرُ في أحد المعنيين (اللذين هما موضوعا الحكم) زيادةً ؛ فحكم بالأولوية ؛ لأجل تلك الزيادة كالحكم بأن إيذاءَ الوالدين بالشتم أولى بالحرمة من التأفيف ؛ لأن العقل والحس عِلماً بأن واقعة الشتم أحق من واقعة التأفيف ؛ ووجدوا في الشرع أن كلاً من التأفيف والشتم محرّم ؛ فعلم أن الشتم أولى بالحرمة ؛ لأن ضرره في النفس أنكى من التأفيف.

ولكن من قال : «تارك الصلاة لحين خروج وقتها بغير عذر» يقضي ؛ لأن العامد أولى بالقضاء» فقله بالأولوية دعوى على الشرع ؛ لأن الشرع بالنص استثنى المَعذور من الآثم، وأوجب عليه القضاء ، والعامد بلا عذر غير مستثنى من التأثيم ، وغير مأمور بالقضاء ؛ بل صلاته في الوقت طاعة ، وصلاته في غير الوقت بلا عذر معصية ، ولا تتوب المعصية عن الطاعة .. والتفريق في الحكم بالقضاء ، وعدم الحكم بالقضاء بين المَعذور وغير المَعذور ليس تحكماً ، بل هو مقصد مرعي ؛ فقد ورد النص بأن تارك يوم من رمضان بلا عذر لا يقضيه أبد الدهر .. وليس ذكر الصيام من أجل قياس الحكم عليه؛ بل لبيان أن التفريق بين المَعذور وغير المَعذور مقصد شرعي لا يُعرف ما يدفعه ؛ ولهذا أيضاً لا يقال : وجبت الكفارة على القاتل خطأ ؛ فوجبها على العامد أولى ؛ بل هذه الأولوية دعوى على الشرع .. والباب غير مسدود على من ترك الصلاة عمداً بغير عذر حتى خرج وقتها؛ بل يسارع إلى التوبة، ويكثر من النوافل، وفعل الطاعات والقربات ، والمسابقة إلى الخيرات ؛ فتُذهب الحسنات السيئات .. ولا سيما أن الحسنات تُضاعف بإطلاق ، والسيئات لا تضاعف بإطلاق ، مع قوة الخلاف في الحالات التي قيل فيها بمضاعفة السيئات .

الملك عبدالعزيز - رحمه الله -

وخصائص الدولة ، والقائد ، والدين ، والرقعة ، والأمة

[٥ - ٢]

عبد العزيز ، والحق التاريخي :

قال أبو عبدالرحمن : الخِصِيصة للدولة السعودية أنها حق تاريخي للأمة ، وما مضى لمحة عن السلفية التي قامت عليها دولة آل سعود ، وثمرتها محاسن ملموسة دنيوياً في تاريخنا السعودي .. ولا مرأى أن التجزئة أصابت بلادنا العربية والإسلامية من دولة واحدة إلى دويلات وأقطار، ولا ريب أن الملك عبدالعزيز رحمه الله حقق أعظم وحدة وطنية في البلاد العربية تحقق بها مفهوم الدولة الواحدة .. لقد قيل عن الأحداث السعيدة التي ابتدأت عام ١٣١٩هـ : إن عبدالعزيز استعاد حقه التاريخي !! .. فهذا الحق التاريخي المنسوب إلى فرد (هو عبدالعزيز بن عبدالرحمن رحمه الله) ينبغي تتبع جذوره التاريخية ؛ لنعرف حقيقته : أهو حق فرد ، أم حق أمة ضائعة ؟.

أبو

عبدالرحمن

ابن عقيل

الظاهري*

* محمد بن عمر
ابن عبدالرحمن
العقيل .

- ماجستير من
المعهد العالي
للقضاء في
التفسير ، وله
مشاركات كثيرة
في التأليف
والمقالة والإذاعة،
وعضو مجمع
اللغة العربية
بالقاهرة ،
ورئيس الشؤون
الثقافية بجمعية
الثقافة والفنون،
ورئيس تحرير
مجلة التوباد ،
وأول رئيس
للنادي الأدبي
 بالرياض .

البرمجة

السنة السابعة

العدد السادس والعشرون

جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ
أغسطس ٢٠٠٤م

ومن جذور هذا الحق التاريخي أن هذه الجزيرة - ولا سيما^(١) منطقتها الوسطى - مَسْبُعة وشرعية غاب .. أضعفها نهب لأقواها ؛ فتحالف المحمدان (محمد بن عبدالوهاب ، ومحمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان الحنفي جد آل سعود) وكان ابن سعود أمير قرية فحسب ، ولكن حلفهما يطمح إلى آفاق يكون العرب والمسلمون فيها دولة واحدة تطبّق شرع رب واحد سبحانه .

وفي سنة ١١٥٧هـ غصت الدرعية بفضلاء ليسوا من أهل البلد جاءوا يأخذون العلم عن الشيخ ، وينضمون إلى دولة محمد بن سعود ، وكانوا في شظف من العيش؛^(٢) فكانوا بالليل يحترفون ويأخذون الأجرة ، وفي النهار ينتظمون في حلقة الشيخ .. إلا أنهم المادة الخام للدولة الإسلامية الفريدة التي وَحَّدت الجزيرة الممزقة .. وبعد سنوات قليلة رأينا ابن بشر يقول عن قُرْيَة الدرعية : «ولقد نظرتُ إلى موسمها يوماً ، وأنا في مكان مرتفع وهو الموضع المعروف بالباطن بين منازلها الغربية التي فيها آل سعود ، والمعروفة بالطريف ، وبين منازلها الشرقية المعروفة بالبحيري التي فيها أبناء الشيخ - ، فرأيت موسم الرجال في جانب ، وموسم النساء في جانب .. وما فيه من الذهب والفضة والسلاح والإبل والأغنام ، وكثرة ما يتعاطونه من صفقة البيع والشراء والأخذ والعطاء ، وغير ذلك (وهو مد البصر) .. لا تسمع فيه إلا دوي النحل من

(١) قال أبو عبد الرحمن : في حذف واو لا سيما - بتشديد الياء ، وتخفيفها، وحذف الميم ، وفي حذف «لا» خلاف انظره في معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(٢) انظر ابن بشر ، ج ١ ، ص ٤٣ ، طبعة الدارة الرابعة بتحقيق الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف ابن عبدالله آل الشيخ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

النجنج (١) ، وقول : بعث واشترت !! .. والدكاكين على جانبيه الشرقي والغربي ،

(١) النجنج الصوت والجلبة والتحرك والاضطراب .. استعمال عامي له أصل من الفصح .. والمعاني الفصيحة ذكرها الزبيدي في تاج العروس ٤٩٦/٣ : فقال : «نَجْنَجُ فلاناً عن الأمر أكفه ومنع ، ونجنج إذا حَرَكَ وَقَلَّبَ .. ويقال : نَجْنَجُ أَمْرَكَ فَلَعَلَّكَ تَجِدُ إلى الخروج سبيلاً ، وَنَجْنَجُ الأَمْرَ : إذا هَمَّ به ولم يَعَزَمْ عليه ، أو رَدَدَ أَمْرَهُ ولم يُفَضِّدْ .. ونجنج الإبل : إذا ردها عن الماء .. وعبارة الجوهرى : نجنج إبله إذا ردها على الحوض وأنشد بيت ذي الرمة :

حتى إذا لم يجد وغلاً ونجنجها مخافة الرمي حتى كلها هيم

وعن الليث : نجنج إذا جال عند الفرع ، ونجنج القوم صافوا في المربع (هكذا بالموحدة ، وفي أخرى بالمشاة الفوقية) .. [يعني بآء المربع] ، ثم عزموا على تحضر المياه .. ويقال : تنجنج إذا تحرك .. ونجنج في رأيه وتتنجج : تحير واضطرب .

وقول الجوهرى : تنجنج لحمه (أي كثر واسترخى) غلط ، وإنما هو تبجج بباءين موحدتين ، وقد تقدم ، وهذا الذي رد به عليه هو قول الهروي بعينه .. كذا وجد بخط أبي زكريا في هامش الصحاح .

ونَجَّ : أسرع ؛ فهو نَجُوجٌ .

ومما يستدرك عليه : نَجَّ الشيء من فيه نجاً كمنجه .. وعن أبي تراب : قال بعض غنيي : يقال : لجلجتُ اللقمة ونجنجتها إذا حركتها في فيك ورددتها ؛ فلم تبتلعها .. وعن شجاع السلمي : مجمج بي ونجنج إذا ذهب بك في الكلام مذهباً على غير استقامة ، وردك من حال إلى حال .. وعن ابن الأعرابي : مَجَّ وَنَجَّ بمعنى واحد ، وقال أوس :

أحاذرنج الخيل فوق سراتها ورياً غيوراً وجهه يتمعر

نَجَّتْهَا : إلقاؤها عن ظهورها .. والنجنجة : الحبس عن المرعى ، ونجنجت عينه : غارت .. والينجوج والأنجوج : عود البخور .. قال أبو ذؤاد :

يكتبين الأنجوج في كبة المشتى [م] وبئله أحلامهن وسام

وفي حديث سلمان [رضي الله عنه] : أهبط آدم من الجنة وعليه إكليل ؛ فتحات منه عود الأنجوج .. والمشهور فيه أنجوج ولينجوج ، وقد تقدم .. ومما يستدرك عليه : النَجَجُ : كتابة عن النكاح ، والخاء لغة ..

قال أبو عبدالرحمن : يحتمل أن استعمال العامة للنجنج بمعنى الصوت والجلبة حكاية صوت من نج نج ، أو بالإبدال من اللام ؛ لأن اللجة صياح ، أو بمجاز من معاني مادة نجنج في الفصح .. وهذا الأخير هو الأرجح .

وفيهما من الهدم والقماش والسلاح مالا يوصف»^(١) .

قال أبو عبد الرحمن : فالخصب والرغد حق تاريخي لعبد العزيز ورثه منذ محمد بن سعود ، وهو يريد استعادته بإذن الله بعد أن حل بالأمة مجاعات ومساغب وضياح حيلة ؛ فأكل الناس السمح ، ثم الدعاع وطعمه كطعم التراب ، وقد كتبتُ عنه شعراً أُملي عليَّ بسميرا أيام إقامتي بها آخر عام ١٤١٢ هـ ، وشووا غصون الشجر اليباس وجذورها (وكانت تسمى شويطاً) ودقوها ، وكذلك السُّرح وهي حبال يابسة مقدودة من جلود الإبل شووها ودقوها وأكلوها ، وأكلوا الميتة مما أصله مباح ، ومما أصله حرام كقنين الحمار ، وحفظت حوادث لبشر أكلوا بشراً ، وحوادث أخرى لبشر هموا بأكل بشر .. وهذه المجاعات يتبعها ويلازمها أمراض فتاكة ، وتنتج عادة عن حياة السلب والنهب وحروب القرى المبيرة ؛ فتشج الموارد ، ويعم الخوف ، وتتعطل الملكات والمواهب عن الحرف ، وتقفل السبل أمام من يريد الضرب في الأرض ؛ فالحق التاريخي لعبد العزيز أن تعود كل قرية في الجزيرة كالدرعية التي وصفها ابن بشر .. تعود قرى آمنة راغدة لا يقع فيها عاطل ولا ضائع .

ثم نعود لجذور الحق التاريخي؛ فنجد الإمام الثاني عبدالعزيز بن محمد ابن سعود ذا مصحف في يمينه وسيف على عاتقه .. لا يخرج من المسجد بعد صلاة الصبح حتى ترتفع الشمس ويصلي السنة ، وكان من دعائه لرعيته الذي حفظه رفاقه ، ودوَّنه ابن بشر : اللهم أبق فيهم كلمة لا إله إلا الله حتى يستقيموا عليها ، ولا يَحِيدُوا عنها ^(٢) .

ووصف ابن بشر الأمن في حياته ؛ فقال عن عبدالعزيز بن محمد : «وهو

(١) عنوان المجلد ٤٤/١ .

(٢) عنوان المجلد ٢٦٦/١ .

حقيق بأن يلقب مهدي زمانه : لأن الشخص الواحد يسافر بالأموال العظيمة أي وقت شاء ، وكانت جميع بلدان نجد من العارض والخرج والقصيم والجنوب وغير ذلك من النواحي في أيام الربيع يُسيَّبون جميع مواشيهم في البراري والمفالي من الإبل والخيول الجياد والبقر والأغنام وغير ذلك .. ليس لها راع ولا مُراع ، بل إذا عطشت وردت على البلاد تشرب ثم تصدر إلى مفاليها حتى ينقضي الربيع»^(١) .. وذكر من المفالي الحمادة وأراط والعبلة وروضة محرقّة والنقعة قرب ضрма وقرى عبيد من وادي حنيفة. وذكر الحجاج والقوافل والسُّفَّار ومن يجبون الزكوات والغنائم .. كل أولئك يأتون من البصرة وعمان وإيران والعراق ؛ فيرجعون كما أتوا سالمين في أنفسهم وأموالهم .. قال ابن بشر : «ليس يؤخذ منهم شيء من الإتاوات والقوانين التي أحيوا بها سنة الجاهلية .. يخرج الراكب وحده من اليمن وتهامة الحجاز والبصرة والبحرين وعمان ونقرة الشام وسلاحه عصاه»^(٢) .

وهذا الإمام العادل عبدالعزيز الأول (الذي أقام الأمن في ربوع المملكة بفضل الله ثم بفضل تطبيق الشرع والقوة والشدة على المفسدين) كان رحيماً بالرعية ، ليناً، متودداً ، كريماً ، براً بأهل العلم .. وقد ذكر ابن بشر : أن الصبيان إذا خرجوا من عند المعلم يصعدون إلى الإمام عبدالعزيز بألواحهم ، ويعرضون عليه خطوطهم ؛ فمن تحاسن خطه منهم أعطاه جزيلاً ، وأعطى الباقيين دونه^(٣) .

قال أبو عبدالرحمن : هذا والله هو الملك السري الذي يكون فيه الملك رب أسرة ومربي جيل!! وكل سموق علمي في بلادنا فيفضل الله ثم فضلهم؛ فهو لهم صدقة جارية.

(١) عنوان المجد ٢٦٧/١ .

(٢) عنوان المجد ٢٦٩/١ .

(٣) انظر : عنوان المجد ٢٧٥/١ .

والإمام عبدالعزيز الأول من كبار العلماء تتلمذ أمداً طويلاً على الإمام محمد ابن عبدالوهاب، ومثله ابنه سعود الأول الذي بلغت الدولة في عهده عزها وغاية سعتها ؛ لأنه قائد مظفر بعيد الهمة والهيبة .. كان من العلماء ، ووعظه مؤثراً .. وكان مما يُتلى في مجلسه ، ويقوم هو بالتعليق عليه : تفسير الإمام الفحل ابن جرير الذي لا يقرؤه إلا خواص العلماء ، وصحيح البخاري .. ومن سننه التي تثب بالأرواح أنه كان يحب سماع القرآن من غيره ؛ ولهذا كان إذا ركب في مغازيه وحجه حف به القوم على النجائب العمانية يحدو به مقرئ حسن الصوت .. وهكذا كان ابنه عبدالله علماً وصلابة .. إلا أنه غلب أحكام الأخلاق والشيمة على دهاء السياسة وتعليبتها ؛ فانتهى به الدور السعودي الأول .. ومن مواقفه الخلقية النبيلة أنه حقن الدماء باستسلامه - بعد طول جهادٍ ومصابرة - ، وبوسعه أن يفر في الجبال والوهاد؛ فيخرج رعيته! .. فهذا الأمن المثالي، وذلك الامتداد الذي يوحد القرى على دولة واحدة ، ويوحد الموارد على مالية واحدة ، ويوحد الفروسيات المبعثرة في التوافه على جيش واحد : هو الحق التاريخي لعبدالعزيز الثاني .. لقد اعتدّى على ذلك التاريخ؛ فأصبحت المملكة إمارات متناحرة ، وأصبحت المنطقة الوسطى عشرات من الإمارات بعدد القرى ، ومحالّ نفوذ أسري ، وأصبح الشرع وازعاً لقلّة من الأفراد ومجرد فتوى للجماعة ، ولم يكن شرع الله حكماً ملزماً منظماً لسلوك الجماعة ؛ لأنه ليس له سيف يحميه، ولا دولة تقوم عليه .. ومن كان يُشار إليه بالبنان من أمراء المناطق فهو إما ذو مشيخة قبلية أو هموم إقليمية لا يفكر في وحدة دولة تقوم على تحضّر وتعليم وإحياء وازع شرعي .. ولن يعيد عبدالعزيز حقه التاريخي حتى يعيد لربوع الجزيرة أمنها ، ويعيد لشريعة الله حريتها ونفوذها ؛ فالخصب والنماء والرخاء والأمن وسلطة الشريعة كلها صفات الحق التاريخي الذي

يَدَّعيه عبدالعزيز .. والحق التاريخي لعبدالعزيز تميَّز بخصيَّصتين : الوعي السياسي، وعرض التجربة .. وبيان ذلك أن عبدالله فيلبي تتبع أدوار الدولة السعودية فوصف الدور الأول بأنه ديني بحث، ووصف الدور الثاني بأنه دنيوي، ووصف الدور الثالث - دور عبدالعزيز بن عبدالرحمن - بأنه سياسي ديني.. وهذا التقسيم صحيح إذا فهمنا أن الدور السياسي يعني الوعي بالقوى العالمية خارج المنطقة ومدى قَدَرِها ، وهو باطل شديد البطلان لو فُهم الدور السياسي فهماً عاماً بأن المراد الانسلاخ من همٍّ ديني وقيام حكومة سعودية سياسية كيفما كان الانتماء.. ذلك أن جميع الأدوار السعودية دينية سلفية يأخذ عليها أعداؤها انبثاق حكومتها وحياة مجتمعتها من الدين في كل شاردة وواردة .

وإنما معنى الدور السياسي الوعي بالقوى العالمية، والتعامل معها تعاملًا سياسياً تبعاً للوعي بقدرها .. والدور الأول - ولا سيما في عهد سعود الأول رحمه الله - لم يلائن القوى العالمية (ولا سيما الدولة العثمانية) ، وهذا ما ذكره حافظ وهبة، ولا أستبعد أنه وعبدالله فيلبي ذاكرا بذلك الملك عبدالعزيز رحمه الله ؛ ولهذا كانت الكارثة على يد الإمام عبدالله بن الإمام سعود .

والدور الثاني له قطبان : الإمام تركي بن عبدالله ، وابنه الإمام فيصل ؛ فالأول أراد أن يعيد جغرافية معينة إلى نطاق دولته المسلمة ، والدين معروف ومقتنع به ، وإنما المراد أن يحكم الدينُ ، وأن يزغ جنائيات البشر وسلوكهم في كل دقيقة وجليلة .. والأول وسَّع حدود مملكة أبيه ؛ فالدور الثاني ديني وسياسي معاً إذا أريد معنى عدم فصل الدين عن الدولة .. بيد أن عبدالله فيلبي لاحظ وعي الإمام فيصل بالقوى العالمية المتصارعة (ولاسيما تركيا وبريطانيا) ؛ ولهذا وفقَّ بين السياسيتين الخارجية والداخلية قدر المستطاع .

قال أبو عبدالرحمن: وكذا الإمام تركي أشادت بتسامحه وبعد نظره الدراسات الجادة عن علاقته بالإمارات الساحلية الشرقية .

وجاء عبدالعزيز بن عبدالرحمن وهو أكثر وأدق وعياً بالقوى العالمية العديدة المتصارعة على أنقاض حربين كونيتين طاحتين ، وهو أكثر وأدق وعياً بالأخطاء التاريخية التي مرت بالتاريخ السعودي ؛ ولهذا نقل عنه أمين الريحاني نقداً حقيقياً لعمه الإمام عبدالله بن فيصل الذي انتهى الدور السعودي الثاني في عهده .

والوضع العالمي محرج جداً بالنسبة إلى رجل كعبدالعزيز لا يريد الانتماء ، ولا يريد إلا إخراج سفينة أمته من التيار .. والوضع الداخلي أشد إحراجاً حيث المجتمع: إما عامي ، وإما رجال علم فضلاء عندهم الحماس الديني ، ولا علم لهم بواقع السياسة الخارجية .. ومن عَلمَ عنها بعض الشيء فربما لم يقدر الأسباب المادية الأرضية للقوى العالمية ؛ فاستعان عبدالعزيز بالله ، وتعامل مع القوى بحيلة الأريب النزيه ، وتعامل مع ما في الداخل من قصور علمٍ تعاملَ القوي الورع .

وفي أمثال العامة قولهم: «أشين من طقة الغارة» و «أشين من قولة جوكم»؛ وذلك لكثرة الصريخ والنعي.. لا يخلو فصل أو نصف فصل من حرب غير شريفة، ولا يخلو بيت في كل مناسبة من يُتمّ وثكل جماعي، ولا تخلو قرية من ناع ؛ فأذن الله بالحق التاريخي لعبدالعزيز يجمع الشمل، ويوحد الكلمة، ويؤمن العش والسرب.. وتكافأت الفرص، وارتفعت البطالة، وعم الرغد، وهُدِّت الأمة بالمحو ؛ فالحمد لله كثيراً .

قال أبو عبدالرحمن : كم بيننا وبين هارون الرشيد - على سبيل المثال - من القرون ؟.. ولكن النشوة لا تزال (ولن تزال) بكرةً عند كل عربي مسلم يتذكر: «أمطري حيث شئت فإن خراجك لي» !! .. لماذا ؟ .. لأن القادة العظام رموز دينية وطنية قومية تاريخية يبتهج بهم المنتمي إلى الأمة ، ويفخر بمنابحهم ؛ لأنه يفخر

بإرثه .. وعبدالعزيز رحمه الله في تاريخه العملاق إرث لكل واحد منا لم تفصل بيننا وبينه القرون وتبدلات الأحوال، بل ما نحن فيه من أمن ورغد وعلم وتحضر : فضل من الله ثم من ثمار مباركة ، وظلال وارفة من الدوحة التي أرسى عبدالعزيز جذورها ، وعهد إلى القوَّام على المسيرة بسقيها ورعايتها .

والله سبحانه يعز الأمة ويرفع رأسها بفرد ، ويخفض آخرين بفرد .. وعبدالعزيز فرد ، ولكنه ذو تاريخ عملاق أحيا الله به مجد أمة ؛ فرداً لها هُويَّة تفخر بها .. هوية تتلاحم فيها الديانة والعروبة قيادة ، والوطنية مستراحاً ، وخفض عيش لكل فرد .. وكل دار للإسلام وقادته فهي ذات حقوق وطنية .

كان الفرد من الجزيرة العربية يحل بالبلاد العربية والإسلامية والعالمية ولا يحمل هُويَّة قيادية يعرفها العالم في الأسرة الدولية .. أو العالم الإسلامي في أسرة الرابطة الإسلامية.. أو العالم العربي في نطاق همومه الإسلامية القومية القيادية.

قد يقول : إنه من نجد أو الجنوب أو الشمال ، أو من قبيلة كذا !!... فلا يُعرف من أي خلق الله ، ولا تعرف رقعته من أرض الله إلا أنه من جهات مكة أو المدينة.. وربما عُرف من مؤرخ واحد من عشرات المؤرخين تميَّز بأن خبرته التاريخية لم تكن محلية فحسب .. ثم أصبح ابن الجزيرة يحمل هوية سعودية يفخر بها تاريخاً وحضوراً ، وهي هوية ما عُرفت إلا وهي ذات يد تأسو ! .. ويقال بحق : إنها هوية ذات خيرين : ففي الداخل كانت وحدة أمة ، وبناء أجيال ، ورفع ظلم ، ورغد عيش ، وسلاماً لا يتطرق إليه الغربة والقلق ، وشموخاً حضارياً وثقافياً .. وفي الخارج كانت يدأ سحَاء، تأسو نكايات الهموم البشرية على الصعيد الإسلامي ، فالعربي ، فالإنساني .. على أننا حديثو عهد بنعمة ، وكنا قبل ذلك ضحايا الفقر والشظف والجهل والمرض والقمل ، ولا أحد يتحسس همومنا من جيراننا الذين

عندهم أنهار وتفايح وسكر وحبوب ومناسج ومعلمون وأطباء .. ولما كانت بلادنا مأماً لطالبي الرزق، ومقصداً زائداً على المعتاد لحجاج بيت الله وزائري الحرمين الشريفين: قطفوا ثمار ما خلده الله لعبدالعزیز من أمن السبل والفجاج ، وراحة الذهاب والإياب ، ورغد العيش ، وطيب الإقامة ، وحسن القدوة والأسوة في القول والفعل والمعتقد ؛ فهذا شيء من معاني أن هويتنا التي نفخ فيها عبدالعزيز ذات خيرين .

عُصْبَةُ دِينَ ، لَا عَصَبِيَّةَ عَشِيرَةٍ ؛

قال أبو عبدالرحمن: لا أعلم بعد حكومة رسول الله ﷺ ، وخلفائه الراشدين، وانتفاضة صلاح الدين الأيوبي: دولة قامت على العصبية للدين مثل دولة آل سعود .. ولا يغلط عليَّ غالط فيحسب أنني ألغي دينية الدول الإسلامية التي تعاقبت على شرقنا العربي والإسلامي !... كلا .. إنما أقول : تلك الدول: إما ذات عصبية قبلية ودعاوى حقوق تاريخية للزعامة المجردة، وإما ذات عصبية جنسية أممية هاضت على الشرق ثم اعتنقت الإسلام ، وإما ذات عصبية إقليمية أو عرقية استقلت عن الخلافة الإسلامية حال ضعفها .. وكل هذه الدول حكمت بالإسلام ؛ لأن المجتمعات مسلمة ، ولم تهزم النفوس بعدُ بجبروت علم مادي ؛ فتقبل بيسر الأيديولوجيات ودعايات كيد الكافرين وتضليلهم .. ولم تقم دولة آل سعود على جموع تأتي من الشرق أو الغرب باسم العصبية لمجد أسرة بدافع حمية قبلية ، ولا باسم برنامج يُملأ من الخارج ، ويراد تنفيذه في جزيرة العرب .. وإنما انطلقت من قرية صغيرة جداً هي الدرعية ، وليس لها دعاية ألبتة غير الاجتماع على رب واحد يعبد ، وشرع واحد يُنفَّذ ، وتجميع القوى والقدرات لعمارة الأرض وقد مزقها التفرق الإقليمي والقبلي .

قال أبو عبدالرحمن : كنت أقرأ الفصل العشرين من الباب الثاني من مقدمة ابن خلدون الذي ذكره بعنوان «من علامات الملك التناقص في الخلال الحميدة

وبالعكس» : فقد جعلَ المُلْكَ خلافةً وكفالةً للخلق بشرع الله، فقال : «من حصلت له العصبية الكفيلة بالقدرة ، وأُؤنست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله في خلقه : فقد تهيأ للخلافة في العباد ، وكفالة الخلق»^(١) .. وذكر أخلاق السياسة لكل دولة عصبيتها الدين ، وهذه الأخلاق لم نفقدها في البيت السعودي على مدى التاريخ ، وهي كما حددها ابن خلدون : «الكرم ، والعفو عن الزلات ، والاحتمال من غير القادر ، والقِرَى للضيوف ، وحمل الكل ، وكسب المعدم ، والصبر على المكاره ، والوفاء بالعهد ، وبذل الأموال في صون الأعراض ، وتعظيم الشريعة ، وإجلال العلماء الحاملين لها ، والوقوف عند ما يحدونه لهم من فعل أو ترك ، وحسن الظن بهم ، واعتقاد أهل الدين ، والتبرك بهم ، ورغبة الدعاء منهم ، والحياء من الأكابر والمشايخ وتوقيرهم وإجلالهم ، والانقياد إلى الحق مع الداعي إليه ، وإنصاف المستضعفين من أنفسهم ، والتبذل في أحوالهم ، والتواضع للمسكين ، واستماع شكوى المستغيثين ، والتدين بالشرائع والعبادات ، والقيام عليها وعلى أسبابها ، والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد»^(٢) .

قال أبو عبدالرحمن : بعض رجال العلم الشرعي قد يكون لهم احترام وهالة لدى العامة وسواد الشعب في البلدان الأخرى ..^(٣) من قبل الموافقين لهم في النحلة ، وإنما العبرة بالأخلاق السياسية .. أي أن يكونوا مقدّرين من الدولة ، وتقدير الدولة للعلماء في العصر الحاضر خِصِيصة في البيت السعودي لا عن حاجة طارئة

(١) تاريخ ابن خلدون ١٥٢/١ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٥٢/١ .

(٣) لما طال الفاصل بين المجرور «من قبل» وعامله : ناسبت النقطتان الأفقيتان إشعاراً بعدم اتصال العامل بمعموله : للبحث عن العامل .

أو مصانعة ، ولكن عن إرث ، ودينونة ، وإعمالٍ لوصايا معهودة .. وقبل الحماس الشبابي للإسلام كان هذا البيت ورعيته في المعترك وحده .. كان على دين شرعي ، ويُراد منه أن يكون على دين وضعي كغيره ، وكان أعداء الملة يستفزون به بحيل شتى ؛ ففي عهد الملك فيصل بن عبدالعزيز رحمهما الله تعالى تأججت قلوب ذوي الكفر على عمران مناسك الحج ، فطنطنت الدعاية المغرضة باسم حقوق الحيوان والرفق بالحيوان .. والغرض إلغاء شريعة الله في النذب إلى الفداء بمنى^(١) .. وفي كل فينة تُثار حقوق الإنسان، وليس الغرض حفظ حق الإنسان بشريعة الرحمن خالق الإنسان، وإنما الغرض حماية الإنسان من دين الرحمن، واعتبار الدين قيوداً وأغلالاً .

وقبل ذلك الحماس الشبابي كان التدين بالإسلام مظهر تخلف ونقص ، وكان التجديف والممارسة الحرة العلنية في الخارج مظهر تمدين وطلائعية لدى الأمم الكافرة ذات القوة المادية ، ولدى الدهماء .. ولم يُؤثر عن هذا البيت إلا ما قاله ابن

(١) كان الدكتور صالح صبحي بن إبراهيم ، وهو طبيب مصري من أهل القاهرة ، تعلم في الألسن والقصر العيني ، ثم في باريس وتوفي في عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م : قد اقترح أن تُحرق الأضاحي في منى نزولاً عند رغبة الإنجليز الذين كانوا يأملون أن يجدوا من خلال ذلك موطئ قدم لهم هناك .. ولكن الرحالة الفرنسي كورتلمون حلل في تقرير قدمه إلى السيد جيل كامبيون الحاكم العام للجزائر الأوضاع الصحية في وادي منى ، واعتمد في تحليله على ما كتبه أدريان بروس في كتابه : الاتجاه الجديد للسياسة الصحية (بالفرنسية) ليؤكد بالاعتماد على تفاصيل تقنية دقيقة أنه لا وجود لبقايا العظام أو الأقدار فيها ، وقال : إن كل ذلك يزول بفعل ظاهرة النترجة *Nitrification* : وهي تفاعل جرثومي كيميائي يحوّل الأمونياك وأملاحه إلى نترات تتحلل بموجبه بقاء الهدي . انظر : الحج إلى مكة المكرمة وانتشار الأوبئة ، أخيل - أدريان بروس ، ترجمة محمد خير البقاعي ، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية ، المجلد الثامن ، العدد الأول - المحرم - جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ / مارس - أغسطس ٢٠٠٢م ، ص ٢٥٥ .

خلدون من الحياء من المشايخ والأكابر .. بل من العامة ؛ فلم يُؤثر عن مسؤول من هذا البيت الكريم في الداخل أو الخارج تجديف ، أو تطرّف بما لا ينبغي ، أو رفع جانب الحياء والمبالاة ؛ لأن أخلاق السياسة في هذا البيت شرط وجود لا حلية تخلّق مصطنع .

وذكر ابن خلدون أخلاقاً سياسية أخرى هي المعهودة بعينها في تاريخنا المحلي، وهي إكرام الصالحين تديناً ، وإكرام العلماء للحاجة إليهم في إقامة مراسم الشريعة ، وإكرام التجار ترغيباً لهم؛ ليعم النفع بما في أيديهم ، وإكرام الغرباء باقتضاء الدين والأخلاق ، وإنزال الناس منازلهم بمقتضى العدل .

قال أبو عبد الرحمن : وعصبية الدين في هذا البيت كنز من كنوز الأمة لا ينغص عليه إلا مغامر بمستقبل أمته ، وذلك من عدة وجوه :

أولها : أن هذه العصبية مبادرة ذاتية من أجدادنا ضحوا فيها بالمال والأنفس والراحة ؛ لتحقيق مرغوب واحد أجمعوا عليه ، وهو عبادة الرب وتحكيم الشرع .. ولم تتغير الدعاية لهذا المرغوب في السلم عن حالتها أيام الجهاد من أجلها .. وأي تنغيص على هذه العصبية فهو رغبة عن هدفها .

وثانيها : أن هذه العصبية واقع عملي في القدرات الدنيوية ؛ فقد حصل الاتحاد إقليمياً وقومياً ، وأُتيحت فرص العمل والعلم والتعليم ، وحصل الرغد والأمن .. وأي تنغيص على هذا فإنما هو ملل من النعمة كملل قوم سبأ .

وثالثها : أن هذه العصبية واقع عملي في إقامة مراسم الشريعة، وصيانة العلن عن التواطؤ على محرم؛ فكان المجتمع بدولته ورعيته مجتمعاً إسلامياً .. وأي تنغيص على هذا فهو مغامرة على مجتمعٍ دون إقامته مليون حاجز في عصر الوفاق العالمي!!.

ورابعها : ملكة الممارسة التاريخية ما ينيف على قرنين ونصف اكتسبت فيها الخبرة، والعلمُ بداء المجتمع وأدوائه، وإجماع الرعية على الطاعة والاعتزاز بها .. وكثيراً ما قلت : إن حق دولة بهذه العصبية الدينية أخص من واجب الحسبة الشرعية ، ومن ينغص على هذا الحق مأزور غير مأجور . وقد صرح ابن خلدون بالإزْر حال الجور ؛ فما بالك إذا لم يوجد جوراً!.. قال في الفصل السادس من الباب الثاني : «إن كثيراً من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه ، والأمر بالمعروف ، رجاء في الثواب عليه من الله ؛ فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الفوغاء والدهماء ، ويُعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك ، وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين؛ لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم ، وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه .. وأما إن كان من الملبّسين بذلك في طلب الرئاسة فأجدر أن تعوقه العوائق ، وتتقطع به المهالك ؛ لأن أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانتة والإخلاص له والنصيحة للمسلمين»^(١) .

قال أبو عبد الرحمن : ودولة التوحيد ذات مركز ديني ومالي معاً ، ومن خيال التصور أن تُسالم دولُ الكفرِ هذا الوجودَ في عهد الوفاق العالمي، وهو وفاق لم يخرج من ربة تحكمه داخلياً وخارجياً كلُّ دول العالم الثالث بما فيهم العالمان العربي والإسلامي .. والقطر القائم على الإسلام دولة ورعية لا ينال الوفاقُ العالمي الكافر من أمنه الفكري والديني إلا بالكيد والدس وتمويه الباطل والتلبيس على الحق..^(٢)

(١) تاريخ ابن خلدون ١٦٩/١ .

(٢) انقطع الكلام السابق ، واستؤنف كلام جديد ؛ فكانت النقطتان الأفقيتان دلالة على ذلك ، وكان ذلك أولى وأجمل من وضع نقطة واحدة والابتداء بسطر جديد .

وتفرد شخص أو جماعة بما يظن أنه حسبة افتيات على الإمام ، وإحراج له أمام
الفيظ العالمي المعادي للملة والنحلة .

وحركات التاريخ في الأغلب حركات جزئية ، وتكون تارة حركات عالمية :
فَتُبلى الأمة بقدر كوني فوق إرادتها وقوتها .. وأسوأُ تَغْيَرُ عالمي ظرف الوفاق العالمي:
حيث تضافرت أمم الكفر على استلحام بعضنا عسكرياً ، أو محاصرتنا اقتصادياً ، أو
الإرجاف بنا عالمياً .

وكل مخلوق فكماله هو مدى قدرته ، وليس كل مالدينا من قصور يكون سببه
تفريطاً في عصبية الدين ، أو تعمداً للإخلال بجانبى الولاء والبراء .. والسبح في
التيار انتحار .

ولم تفتن أمتنا في دينها فتنة يُستحلى معها بطن الأرض ، ولم تضج أرضنا
بمتضوّرٍ جوعاً ، أو بمظلوم في عرضه أو نفسه أو ماله لم يجد لتخليص الحقوق
مرجعاً .. ولم يوجد في رسومنا (مما يُبنى عليه علنُ المسلمين) تنظيم يتقزز منه
المسلم فيقول : أبرأ إلى الله من هذا !! .

والمعادلة في السياسة الخلقية للدولة التاريخية ظاهرة لعيان العامة قبل
الخاصة، وهي الحفاظ على عزائم العصبية الدينية في الداخل برسوم الشريعة القائمة،
والوازع السلطاني الماثلة أجهزته ، والتربية التعليمية والإعلامية والوعظية بحسب
القدرة .. كما أنها استدفاع للشر من الخارج بالصبر والأناة، وبذل الحطام الدنيوي .

وكل جهد فردي أو جماعي في الدعوة والإصلاح لا يجوز بحال أن يفتات على
معادلات الدولة وحساباتها، ولا أن يخرجها في جهادها الخارجي الأكبر ما دام
الواقع للدولة وللوفاق العالمي بالصورة المذكورة آنفاً .. فإن جاءت دعوى الإصلاح
تشهيراً من عاصمة أجنبية عدوة في الملة والنحلة فواجبٌ شجب هذه العمالة والتحذير

منها بالأقلام وعلى المنابر .. وإعلان البراءة من هذه العمالة واجب كل مسلم .
قال أبو عبد الرحمن: ومطلب المسلم أن تكون حياة الأمة كلها من المعروف الذي
أثنى الله عليه ، وأن تكون حياة الأمة كلها خالية برِيئة من المنكر الذي ذمه الله ..
والمطلب أن تكون أمة الإجابة في مواجهة لأمة الدعوة - أي التي هي موضوع للدعوة -
باللسان واليد والسنان حتى تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الحكم في عباد الله
لشرع الله .. هذا مطلب المسلم ؛ لأن الإسلام أراد منه ذلك .. إلا أن قانون الإسلام
يجعل التكليف حسب الاستطاعة، والقيام مع القدرة ، وعلى المسلم أن يظل في
إعداد القوة ؛ لأن الله وعد بإتمام المسيرة ولم يعد بابتدائها ، وهو سبحانه إذا يشاء
قدير ، وهو على ما يشاء قدير ، وهو على كل شيء قدير .

وجعل سبحانه لمطلب المسلم معادلات شرعية يزن بها المسلم أموره ؛ فلم يأذن
له الشرع بالإلقاء إلى التهلكة بدعوى التوكل ، بل أوجب مراعاة الأسباب المادية
والقوى الأرضية .. وإنما يجب التوكل المجرد عن الأسباب المادية تجرداً يتحقق
المسلم نفعه : حينما يقع في تهلكة على رغمه بغير إرادته وليس معه أي سبب مادي،
فهناك يُغَوَّضُ الأمر إلى الله بإطلاق^(١) .. أما حينما يمنحه ربه سبباً أو أسباباً
فحينئذ يتعهدا ويكافح بها مع إيمانه بأن كل شيء بيد الله، وأن الله مسبب الأسباب.
والذي مكَّنه ربه من صنع أو امتلاك سكين أو سيف أو بندقية أو رشاش أو
صاروخ ، ثم يشهر كل ذلك بمواجهة قوة نووية لم يصنعها ولم يملكها، ثم يقول :
«عليهم الله أكبر» وهو غير مضطر إلى المواجهة ، وغير مجبر عليها للدفاع عن
نفسه وعرضه : فهو سفيه .. والسفه ليس من دين الله .

أما الابتلاء في الدين فقد جعل الله للمسلم مناديع بالمعاريض ، وما جعل على

(١) انظر : كتابي ملاعبة الصيد ص ٧ - ١١ .

من أكره سبيلاً مادام قلبه مطمئناً بالإيمان .. ولم يأذن الشرع للمسلم بأي تصرف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا في حدود المعادلة بين جلب المصالح ودفع المضار ، وأُذن له بتعطيل المصلحة الصغرى بجانب دفع المفسدة الكبرى .. وكل مصلحة لا تستجلب إلا بضرر أكبر فهي مصلحة صغرى ؛ ولهذا كانت الحسبة درجات أضعفها حب المعروف بالقلب وحب أهله ، وبغض المنكر بالقلب وبغض أهله ؛ ولهذا أيضاً فإذا تمت البيعة والولاية لحاكم مسلم لزم طاعته ، وكانت طاعته أخص من عموم نصوص الحسبة المقتضية لساناً ويداً .. ولا يُطاع في أمر بمنكر كما لا يعصى في أمر بمعروف .

ومقياس الإسلام في الولاية أن لا يُظهر كفر بواح ، وأن لا تشيع الفاحشة في المسلمين علناً بأن يُعلن بإباحتها بتنظيم إداري ، أو أن يستعرضها السلطان بحماية من جنده .. إن قراراً من الحاكم بإباحة محرمٍ مقطوع بحرمة ، وسنّه : محادّة لشرع الله ، وكفر عملي ظاهر ، وهو يوجب على الرعية التغيير .. أما إذا كان دستور الدولة يحرم ذلك المنكر ، وقضاؤه وأجهزة تنفيذه تمنع منه وتزرع عنه بشتى العقوبات .. ثم تفشّى ذلك الفساد ؛ لفساد من مسؤول أو مواطن : فذلك يقتضي تعاوناً مع الحاكم وأجهزته بقوانين المعادلة بين حقوق الحسبة وواجب الراعي والحذر من إهانتها ، ولا يبيح ذلك نزاع يد الطاعة لا باللسان ولا باليد .. والحاكم المسلم سلطان الله ، ومن أهانه أهانه الله بالنص الشرعي .. ومن الفتنة في الدين والدنيا تجرئة العامة على بغض ولي الأمر ومخالفته ورفع هيئته .

وَأمن الفرد في نفسه وماله ودينه (بأن لا يُصد عنه) كل ذلك أمهات المصالح التي توزن بها نصوص الحسبة .. وأي دعوة باسم الإصلاح تُضخم مفسد من فعل مسؤولين ومواطنين لم تعلنها الحكومة المسلمة ، ولم يحمها عسكر السلطان ،

ولم يقنن لإباحتها بنظامه.. ثم تسعى إلى تقزيم كل مصلحة من أمن في الأبدان والأوطان والأموال والأديان ، وكون الأجهزة إسلامية ، والتعليم إسلامياً : فإنها (أي دَعَوَى الإصلاح تلك) محرمة شرعاً ، والحكم فيها أنها خروج على الولاية أو مقدمات خروج.

وجاء الملك عبدالعزيز رحمه الله والأمر في شتات؛ فأخذ بكل الأسباب والحيل؛ لتوحيد الشمل، واستعان بالله ثم بسياسته الحكيمة في المعادلة بين المصالح والمفاسد ؛ فهو أولاً بشر غير معصوم تصوراً وسلوكاً .. يُخْطِئُ ويضعف كأي فرد من الرعية ؛ لهذا صار يقتص من نفسه بالتوبة والإنابة ، وأنه على مرأى ومسمع من وازع الدين والخلق ورقابة المجتمع ، وأنه لا يسعه من العلق إلا ما يسع أي فرد من رعيته بأن يكون العلق نظيفاً موافقاً للشرع.. وقد أعاد شاردين ، واسترضى وأرضى من غشمتهم الحرب في سبيل الوحدة والتوحيد ، وكان يقول في اعتذاره : وللحرب أحكام .. ويحاسبه في السر من يحاسب أي فرد من أفراد رعيته في سره . وهو ثانياً أمام قوى وضغوط عالمية فوق قدرته عسكرياً وبشرياً، وهو يريد أن تسلم له خصائص ومقومات رعيته في ولايته ، وأن يظل تعامله مع أشقائه نظيفاً مجدياً ؛ فتحمل عبئاً مرهقاً في النفوذ من أغوار السياسة الداخلية ؛ ليحفظ وحدة أمته وأمنها المادي والديني والفكري .. وتحمل نفس العبء في النفوذ من أغوار السياسة الخارجية ؛ ليجتنب التصادم مع قوى خارجية لغير ضرورة ، وليحل بالسياسة ما يُبْعِدُ عن الفتنة .

وهو ثالثاً أمام واقع مفكك أمنياً وصحياً وتعليمياً وغذائياً، وتقتضي السياسة في الضيق والعسر مالا تقتضي في السعة واليسر.. في الأولى يكون الأخذ بالعقوبة عن عدل، وفي الثانية يكون الأخذ بالعفو عن إحسان.. كان الناس في عهود التفكك

ذوي قرى محاطة بأسوار عظيمة عريضة مضاعفة من اللبن ، وكان لكل قرية مدخل أو مدخلان ، ولكل مدخل بواب يُجمع قوته وقوت عياله من أهل البلد .. وكان في كل ركن من القرية مقصورة حربية ، وخارج السور أبراج حربية تراقب أي خطر يحيق بالقرية ، وبعد صلاة العشاء تُوصد الأبواب عن الداخل والخارج .. ولا يخلو أسبوع من صريخ لاستدراك غنم أخذها اللصوص أو شببها ، ومن ثم يفزع أهل البلد ، وأول من يفزع من ليست له عنز !!... والسواد لمن لم يفزع ! .. ومن لم تتعين هبته ، أو حال دونها مرض أو شيخوخة : فعليه نائبة مالية يدفعها لأعيان البلد ، أو أميرها .. وربما عاد أهل البلد يدقون طبول الفرع لاسترداد الماشية ، ولكن يسبق طبول الفرع قادم ينعى فلاناً وفلاناً ممن قتل في سبيل استرداد الماشية .. وربما تبع القرية أراضٍ زراعية ، ومفايض شعبان ؛ فيزرعونها ، ويبنون بها قصوراً تعرف باسم البلد كقصور شقراء .. وللقصر أسوار ومقاصير يعانون فيها ليلاً ونهاراً كما يعانون في القرية؛ فيقتل الأب ، أو الأب وابنه ، أو الأب وابنه وأخوه في حماية ثور أو حمار كما حدث في قصور سميرا ، وقصر الحليفة كنزة ، وقصور الشعراء .. إلخ .. إلخ .

والناس في جوع لا يأكلون ، وإذا أكلوا لم يشبعوا .. ومع الخوف والجوع لا يتم بناء دولة ، ولا توحيد جيش ، ولا تعليم أمة أمية ؛ فبطش رحمه الله بالمفسدين ، وأبطل الثارات ، وشفأ^(١) النفوس بالقصاص الشرعي ، وصار يُلقن رعيته الأحكام الشرعية بأسلوبهم العامي .. كتب رحمه الله تعميماً اطلعت على نسخة منه موجهاً إلى عبدالمنعم بن ناقي الحربي جاء فيه : «من طرف النكال فنحن طرحناه موجب الأمور التالية :

(١) أسلفت أن الرسم الإملائي تعليم للنطق الصحيح ، وليس تعليمًا للصرف ، ولهذا رسمت على الألف كل يائي وواوي .

الأمر الأول : رافة بالرعايا .

الثاني : ربما أن بعض المأمورين يجتهدون في بعض الفساد ؛ لأجل أخذ النكال ، وأردنا أن نبطل ذلك ؛ لأجل راحة الجميع .. ولكنه إذا ترك الجاني ما يؤدب اتسع الخرق ، واتخذها الأشرار فرصة ؛ فأحببنا أن نبين لكم ماذا يكون على الجانين الذين يعملون المشاغبة ، ويعملون أعمالاً تضر في بعضهم بعض^(١)، وتترك مأموري الحكومة مُكْتَفِينَ عن ردع الجاني .

أما الذي طرحناه فهو أخذ النكال (الفلوس قليلها وكثيرها)، وأما الجنايات كلها فحببنا نحط لها ترتيباً؛ حتى يكون عندكم معلوم يعمل به الأمراء وتمثل به الرعية:

الأول : أن الجنايات كلها تُعرض على الحكم الشرعي ، والعمدة على الحكم الشرعي ؛ فما كان به قصاص بأي حال تكون فالقصاص كاف عن الجناية والنكال ..

وأما إذا حكم الشرع بين اثنين بحقوقهم ، وثبت عند حاكم الشرع أن الجناية على شخص أو على قبيلة وأن الأمر لله ثم لولاة الأمور للردع؛ فنقول عن ذلك وبالله التوفيق : أما الجناية التي تكون بصيالة من فريق على الفريق الثاني - سواء أنه عرب مع عرب ، أو رجال مع رجال ، أو شخص مع شخص - : فأما العرب الذين يصلون بأهلهم وقبيلتهم بعضهم على بعض فهذا يعمل فيه بأمرين :

الأول : أن المتسبب لهذا العمل يُحطُّ عليه نكال من حلاله موجب أمرناحنا لا أمر أي أمير ولا خادم ، ويُؤخذ من الصايل والمتسبب جميع الآلات الحربية سواء أنها ذلول أو فرس أو بندق .. هذا هو الذي يجري على الصائل، ولكن نكرر ذلك أن هذا يكون على نظر الحكومة لا على نظر أي أمير أو خادم.

وأما القتل فيكون سواء أن القاتل متعمدٌ وعفا عنه أولياء المقتول ؛ فهذا

(١) أي يضر بعضهم بعضاً .

يجبس عن نكال الحكومة خمس سنين ، وهذا نكاله .. فأما القاتل بغير عمد فينظر في أمره : فإن كان الأمر خطراً غصباً عليه فتكفي فيه الدية ؛ فإن كان أنه متسبب في حال القتل لكن ما هو بمتعمد قتل الشخص : فهذا الحكومة تنظر في أمره ، ويجبس من سنة إلى سنتين إلى أشهر .

وأما الجنايات التي غيرها (بمضاربة ومثل ذلك) ؛ فيقدر على المتسبب بحبس على قدر عمله سواء أنها أشهر أو أيام معلومة .. عند أول جناية تكون تقرر الحكومة عليه شيئاً من الحبس ، ويكون العمل عليه ...» .

قال أبو عبدالرحمن : ويستمر الخطاب في هذا التقسيم استثماراً للمصلحة المرسلة التي يجعلها الشرع من نظر السلطان .

ورأيت له رحمه الله خطاباً آخر وجهه إلى صالح بن شعبل السهلي عن إسقاط الجنايات والاثارات ، وعبر عن ذلك بكلمة «دميناه» أي أهدرناه حسب لغة أبناء الجيل.. وهو رحمه الله يحذرهم من خطور الاثارات على بالهم، وقد نشر الوثيقة الأستاذ ابن خميس في معجم اليمامة في مادة «المشاش» ، ونصها: «بسم الله الرحمن الرحيم : من عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل إلى جناب الأخ صالح بن شعبل وكافة الإخوان .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. بعد ذلك تفهمون ما من الله به عليكم من نعمة الإسلام ، وبركة الله ثم بركة الإسلام .. هالأمان الذي حقن الله به الدماء ، وامتد الضعيف به ، وحصل به الراحة لجميع المسلمين .. ولكنني سمعت هالأيام بعض الأخبار التي أزعجتني ، وأحببت تبليغكم لأجل أولاً النصيحة، والثاني الإنذار .. بلغني خبر أن به ناس يتكلمون مع الآخرين : أحد يقول : أنا متهمكم بدم .. و واحد يقول: أنا متهمكم بضربة ، أو عندكم لي ضربة .. و واحد يقول : عندكم لي حلال !! .. تعرفون أن هذا الأمر قد دميناه مرتين :

الأول : أول ما هاجروا المسلمين، والتفتوا لأمر دينهم .. دميना الفايئات كلها .
والثاني : يوم القرعة^(١) دمينا ما فات في القرعة وقَبِلَ .. إلى آخر هذه الوثيقة التايخية النفيسة .

قال أبو عبدالرحمن: هكذا وحَّد عبدالعزيز دولته، وهكذا نهض برعيته تعليماً ووعياً صحياً ودينياً واجتماعياً وسياسياً، وهكذا بفضل الله وفَرَّ لها الأمن والغذاء والدواء، وظل الحكم بشرع الله متوارثاً منذ المحمدين (محمد بن سعود، ومحمد بن عبدالوهاب) رحمها الله إلى هذه اللحظة .. وظلَّت متوارثةً إلى هذه اللحظة البيعةُ على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وظلت المرجعيةُ كَتَبَ السلف من جيل الصحابة إلى جيل التابعين إلى جيل أحمد بن حنبل وعلماء الحديث .. إلى جيل ابن تيمية .. ولا يزال واجبنا تصحيح المفاهيم التي تخرج عن منهج السلف، ولا نكون إمعين مع ذوي طفرة لم يجربوا الحكم الإسلامي قط، واجتهدوا في أصول الفقه؛ فكاد الفقه عندهم يكون وضعياً، ورأوا أن الغاية تُسوِّغ الوسيلة في التعامل مع أنصار الشيطان ، واستسهلوا مذاهب الفرق الضالة في التهوين من حق الراعي ؛ فلم يتخرجوا من قبولها .

ومن مقتضيات الورع، وتحكيم موازين العدل: النظر بإكبار إلى تصميم هذه الدولة على التمسك بالإرث السلفي - على الرغم من كل الضغوط العالمية حولها -؛ فكانت عند المبطلين نشازاً؛ لأنها الدولة الوحيدة التي تحكم بشرع الله، ويكون دستورها الإسلام .. وعندما قامت ثورة ١٩٥٢م اختلف القانونيون والسياسيون: هل يكون الدستور الإسلامي مرجع الدولة، أو من مراجعها، أو لا يكون مرجعاً ؟ .. فاختاروا الثانية (!!!) وكانت هذه الدولة السلفية عند المبطلين نشازاً ؛ لأن في مؤسساتها السلفية دوائر الحسبة، والقضاء الشرعي، وتنفيذ الحدود .. وهي

(١) حدثت وقعة القرعة بعد معركة السبلة .

الدولة الوحيدة التي لم يستبح إعلانها إحياء مناسبات التصوف والتدروش: لأنها لم تقرر ذلك في الداخل .. وهي عند المحققين بلد النزاع ، والطائفة المنصورة .

ومنذ عهد الملك فيصل رحمه الله تنفست الصهيونية باسم حقوق الحيوان لمحادثة شرع الله في شريعة الفداء بمنى؛ فصمدت الدولة وأبت ولا زالت - رعية وراعياً - على عقيدة: أن بطن الأرض خير من ظهرها إذا مُسَّت العقيدة والشريعة، وسيمت خسفاً أن تفتح الباب على مصراعيه لعدو غادر صالحه الأشقاء وهي تعلم كيد الخفي لإفساد الدين والمال والحرث والنسل والعقل.. فأبت - وهي لم تزايد قط باسم القومية والوطنية، بل كانت دعايتها إسلامية - ، وتجرت إرهاباً مالياً وشبهه من جبروت وفاق العدو الموحد .. وبعد شبه الإجماع على المصالحة مع الصهيونية الغادرة: فلا يعني هذا الإجماع اندماج الدولة مع دولة العدوان، بل لكل علاقة حسابها، وهي الدولة الوحيدة التي أبت التعامل الدبلوماسي مع إسرائيل.

وتحاول أن تدرك بالسياسة، ودعاء الرعية، وإصلاح العلاقة بالله ، وولاء أبناء الفطرة والملة والنحلة ما يدفع عنها مالا تقوى عليه من قدر كوني غالب . ولا يشك عاقل أن بنية هذه الدولة المسلمة تأبى أن تُسحق دينياً ومنها عين تطرف؛ لأنها إن اضطرت إلى ذلك أخذت بعقيدة اللطف في الظاهرة - وهي النازلة التي هي فوق قدرتها - بعد الاصطبار لكل قوى الأرض ثقة بعناية الله ونصره بعد انقطاع الجهد من الأسباب الدنيوية الموصلة في مجابهة عدو لم تتمن لقاءه؛ إذن فقه الدعاة لواقع الحكومة المسلمة وقواها، وواقع الوفاق العالمي وقواه: يتطلب مواقف مؤمنة راشدة تجاه دولة تحترق بهموم المسلمين وهمومها .

وشعبها عربي مسلم خصوصيته أنه ذو ملة واحدة، ودولة مسلمة .. وهو دوحة العروبة، ومنه انتشر الإسلام ورُفِرت رايته، وفيه عادت السلفية الصالحة.

وشعب بهذه الصفة برعيته وراعيه يجب أن تكون الأمة فيه واحدة؛ فلا تُخرج القيادة التاريخية المسلمة التي اكتسبت وجودها التاريخي المديد بالبيعة الشرعية، ونشر عقيدة السلف ، والوحدة التي ظلت قروناً طويلة ممزقة قليلاً وإقليمياً .

ولو كانت وحدة عبدالعزيز مجرد رقعة على دعاية عروبية، وحكومة يديرها القانون الوضعي : لكان في ذلك رنين تاريخي في تاريخنا العربي الحديث .. ولكن الواقع أن وحدة عبدالعزيز تَوَحَّدُ أمةً وأطراف مترامية متباعدة على دين الله الأحد الصمد عقيدة وشرعية ، ولم تتوحد هذه الجزيرة بعد عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وإنما كانت ولاية فيما بعد تُدار من قبل الوالي؛ ليستدفع شرها، ويجبي زكاتها.. وذلك بعد عودة العزوة الجاهلية ، والثرات القبلية ، وعادة السلب والنهب .

أخلاق ملكية :

وهذه المملكة رعية ودولة قامت حكومتها خلال ثلاثة قرون على أعلى مثال ومطلب لما يحلم به من يحس بضياغ العرب والمسلمين بعد سقوط خلافتهم ، واقتسام تركتهم ، وتمزيق قدراتهم ومواردهم : بالثورات الداخلية ، والتصارع على كراسي الحكم ، واغتصاب السلطة بملك عضوض حقاً ، ووطئ عسكري وإن تغيرت الأسماء والألقاب ؛ فالعبرة بالحقائق .

ومن العجب أن التسوُّر على السلطة بغير اسم الملكية يُعفي المتسلط من أن يكون باذلاً وهاباً للضعيف والمحتاج وذوي العيلة ، ولسيد قومه ذي الالتزام فيهم؛ لأن المتسلط ليس ذا جيب خاص، والمال مال الشعب، وهو موظف لا يبذل إلا بقرار من الشعب !!... والواقع - في كل تلك التسورات على السلطة - أن الشعب لا يملك قراراً لسياسة المال، ولا يمنع احتجاج المتسلط للمال وتكديسه في بنوك العالم ،

ولا يملك وسيلة مواصلات : لينظر ولو من بُعد أسوار قصور المسؤولين الباذخة المقفلة على بذخ وسرف وبخل لا يعبر منها طالب نوال ، أو حامل هم .. بينما الملك في تاريخ العالم - ثم في تاريخنا الإسلامي - تعلقو مظهريته لهيبة الملك ، وتفتح أبوابه بالرحمات؛ فيشبع الجائع ، ويعود المكروب بالبذل وتجلية الهم، وتعيش قطاعات من الأمة من عوام الرعية ، ومن فضلائها (كأهل المواهب ، وذوي الكلمة في قومهم) في حبور ورغد ؛ لاتساع فرص ونطاق العمل من جهة اتساعاً لا يحدده قرار إتاحة الفرص في القطاع العام أو الخاص .. كما يعيشون من جهة ثانية في حبور من أموال المسؤولين الخاصة ؛ لأن الكرم فيهم جبلة ، والرحمة طبع يُغذيه الشرع مع الوفاء لسلف الأمة، والتقدير لمواهب الخلف .. هذه هي هيبة الملك وأريحيته في تاريخنا العربي ، ولقد مرت بي كلمة - أظنها في بروتوكولات حكماء صهيون - تضحك مرحاً من مستقبل الجوييم (وهم يعنون المسلمين والنصارى) إذا أخذهم سحر الثورات، فحطّموا رموزهم الوطنية والتاريخية بأيديهم، وتنكروا لكل موروث.

قال أبو عبد الرحمن: وموجز القول: إن الثورات التي أنهكت الأمة أفرزت ملوكاً غير تاريخيين .. إلا أنه مُلك كله الأنانية والبخل ، وليس فيه شيء من الأريحية والرحمة.

والملوك والوزراء والأمراء في تاريخنا العربي والإسلامي يبقى لهم ماخولهم الله إياه من ولاية الأمر، ولا يحتجّون مالا ، بل يبذلونه: في أجنادهم، وأصحاب المواهب من رعيّتهم، والفقير والعاني من عامة الأمة، ويتبنون المشاريع الخيرية .. وهذه المملكة لم تكن ملكاً تاريخياً فحسب، وإنما هي ملك تحالف فيه السيف والقلم لنصرة الدين، وإقامة دولته ، واشترط مقتضى البيعة الشرعية.

وعندما قلت : إن حكومتها قامت خلال ثلاثة قرون على أعلى مثال ومطلب لما يحلم به من يحس الضياع في أطراف التركة الإسلامية العربية: فإنما أعني ما

أقول؛ فأمثل مطلب قيام حكومة إسلامية تحكم بشرع الله، ولا ينفصل دينها عن دولتها، ويكون معنى الإسلامية حضوراً علنياً في القضاء والفتوى والحسبة والممارسة والتربية والتعليم وأجهزة التنفيذ ، وأن لا يُمارس بقوة النظام أو بمهادنة السلطة ما علم يقيناً أو رجحاناً بطلانه شرعاً .. وهذا يعني أن النظام مغربل ويغربل شرعاً، وهذا هو واقع المملكة منذ محمد بن سعود إلى فهد بن عبدالعزيز .. وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بحول الله ومشيتته .

ومن المطالب المثلى الشعور بالأمة العربية في آمالها وآلامها .. وهذه الجزيرة عربية صميمة مجتمعاً ودولة يُخشى عليها الحماس القومي أكثر مما يُخشى عليها التكر للعروبة .. بيد أن دستورها جعل الاعتبار للعربي حينما يكون مادة الإسلام، الحاملَ لرسالته ؛ فكان الإسلام شرطها القومي، وكان الوعي بالشعوبية التاريخية ضد موروث هذه الأمة محركاً لطموحها، وكان الوفاء للأمة ونشر تراثها أحد الحقوق الذي تعمل فيه قيادتنا بجلدٍ وسخاء .

ومن المطالب المثلى الطموح إلى الوحدة الوطنية ؛ فكان حاضرنَا أصدق وحدة وطنية لبلاد كانت ممزقة .. بيد أن وحدة الدين سلوكاً ومعتقداً هي شرط الوحدة الوطنية في رؤية قادتنا منذ محمد بن سعود إلى عبدالعزيز بن عبدالرحمن إلى فهد بن عبدالعزيز .

ومن المطالب المثلى أن يأمن الفرد في بيته وسوقه ، وأن يُؤخذ له حقه من ظالمة ، وأن يرفع عنه الظلم ، وأن تتاح له فرصة العمل الشريف ، وأن يُعان في كدحه لبلوغ رزقه الذي كتبه الله له بما أذن الله به من أسباب دنيوية يُعالج بها الفقر والمرض والجهل .. ودولتنا ومجتمعنا مثال نادر في تحقيق هذا المطلب بمن الله وفضله .

عبدالعزيز ومأساة الحق التاريخي :

٢ - والبديهيّة الثّانية بديهيّة معنّى الحقّ التاريخي لعبدالعزيز في تصميمه على الجهاد والمغامرة والفداء .. وبيان هذه البديهيّة : أن هذه الدولة الكريمة نالها هزتان كانت من أجلهما ذات ثلاثة أدوار .. الدور الأول معروف ابتداءً ، وهو دور الإمام محمد بن سعود إلى سقوط الدرعية في عهد الإمام عبدالله بن سعود .. وهو سقوط حدث على يد الأغيار المعادين في النحلة ، المدخولين في الملة .. ودخلت عناصر وطنية من جفاة البادية : لما رأوه من عظمة القوة القادمة ، وما معها من وجوه الإغراء ؛ فهم ما بين خائف على نفسه ، وطامع في الحظ لنفسه .. ومنهم مَن إيمانه ووطنيته على حرف .. ودخلت عناصر قليلة من جفاة الحاضرة ممن عُوقب بما يستحق من إثم ؛ فأخذها موحدة على دولته ووطنه وأمته ودينه .

والدور الثاني على يد الإمام تركي بن عبدالله آل سعود ، وابنه الإمام فيصل بن تركي .. وكانت عدتهم وعتادهم عناصر وطنية خالصة تريد نعيم الدولة السالفة ، وكان العدو المشترك الباشواتِ الدخلاء ، وأطماع بعض البادية في عودة السلب والنهب ، وحنين بعض المتديّكين من أهل القرى إلى التجزئة .. وهي على ما عليه سلفها من الجانب الدعوي السلفي الذي يدين به جيش الإمامين ، وإنما وصف فيلبي هذا الدور بالسياسي الدنيوي لا الديني الدعوي ؛ لأن الجهاد لطرد عدو مغتصب ، ولرد أطراف من الرقعة إلى نطاق الدولة .. وليست لبيان حقيقة الدعوة ، وإقامة حجتها ، ودحض معارضها من خرافة وبدعة وأهواء وآراء ؛ فكل هذا متأصل في كيان الأمة ، وإنما المراد ردُّ الشارد إلى كيانه ، وطرد الطارئ الأجنبي .. ثم سقط الدور ، ولم يكن سقوطه على يد دولة دعوية تزعم الأصلح أو الأمل ، وإنما كان قدراً كونياً بدءاً باختلاف وطني بين الأخوين الإمامين الكريمين عبدالله

وسعود ابني فيصل رحمهم الله، ثم استغله واستحوذ عليه ذحول وثارات القبائل ، وهادنه ونمّاه وأظهر المحايدة عن شرعية السلطة من يريد التجزئة من زعماء بعض القرى ، ثم جاء الوافد الأجنبي بتدبير وزعامة مدحت باشا ؛ فكان السقوط بغيضاً تجزئياً مخرباً قسّم البلاد إلى إمارات داخلية ليس عندها فكرة الدولة ، ومشیخات قبلية تريد حياة الذحول والمناخات والسلب والنهب .. والتحالف التركي البريطاني على سيادة الأخيرة بحراً وبقاء سيادة الأولى براً محكوماً محدداً مراقباً في ذلك الجزء من الرقعة: اتضح فيما بعد أنه هزيمة لا غنيمة.

والدور الثالث على يد الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية ، وهو دور متميز في ظروفه الخائفة وفي خاصية قائده بميزات أربع .. الثلاث الأول منها عن الظروف .

الميزة الأولى : صعوبة الظروف خارجياً ، وهي أصعب من ظروف الإمام محمد بن سعود المؤسس الأول .. وتلك الظروف علمانية الدولة المهترئة ، وجنون النازية ، وأطماع دول الصليب باسم الحلفاء (ثم انقسامها إلى معسكر صهيوني شيوعي شرقي ، ومعسكر صليبي صهيوني غربي) .. وعدة الدول الطامعة المتحكمة في العالمين العربي والإسلامي ليست كعدة القوم أيام الإمام محمد بن سعود لو كان هناك نفوذ أجنبي؛ بل أخذت الدعوة حريتها في عهد الإمام محمد وابنه عبدالعزيز بعيداً عن النفوذ الأجنبي، ثم جاء النفوذ الأجنبي مزيجاً من تحالف يهود الدونمة وصنيعتهم بائع السجائر الأمي الألباني محمد علي^(١) وذريته، ومباركة وتعاون الدول

(١) قال الزركلي في الأعلام ٢٩٨/٦-٢٩٩: «محمد علي باشا [١١٨٤/١٢٦٥هـ - ١٢٧٠-١٨٤٩م]: محمد علي باشا بن إبراهيم أغا بن علي المعروف بمحمد علي الكبير مؤسس آخر دولة ملكية بمصر ، ألباني الأصل مستعرب .. ولد في قوله التابعة الآن لليونان ، وكانت تابعة للبلاد ==

الصليبية، ومهادنتهم للانتصار بمقدار .. وكان في هذه التجربة موعظة للإمام عبدالعزیز: إذ رأى سلفه الإمام سعوداً رحمه الله في حماس ديني منقطع النظير لعقيدته ودعوته دون تقدير للقوة الأرضية المادية المناوئة .

== العثمانية ، واحترف تجارة الدخان ؛ فأثرى ، وكان أمياً تعلم القراءة في الخامسة والأربعين من عمره ، وقدم مصر وكيلاً لرئيس قوة من المتطوعة جهزتها قولة تتألف من ٣٠٠ رجل ؛ نجدة لرد غزاة الفرنسيين عن مصر ؛ فشهد حرب أبي قير سنة ١٢١٤هـ ، وجامل الممالك ؛ فناصروه مع الألبانيين وأترك قولة ، وما زال حتى كان والي مصر سنة ١٢٢٠ في حديث طويل ؛ فعني بتنظيم حكومتها ، وقتل الممالك سنة ١٢٢٦ بوسيلة تقوم على الغدر كما يقول صاحب المجلد في التاريخ المصري ص ٣٠٥ ، وأنشأ السفن في النيل ، وضم معظم السودان الشرقي إلى مصر ، وأنشأ في الإسكندرية دار صناعة «ترسانة للسفن» ، واضطربت الدولة العثمانية ؛ لتوسع السعوديين في دولتهم الأولى بالحجاز وغيره ؛ فانتدبت كما انتدبت واليها ببغداد والشام لحربهم ؛ فكانت له معهم وقائع معروفة ، وشارك في حرب المورة ، واستولى على سورية ، ولم تلبث أن انتزعت منه بعد أن جعلت له الدولة العثمانية حكم مصر وراثياً سنة ١٢٥٧هـ .. وكثرت في أيامه المدارس والمعامل في الديار المصرية ، وأرسل البعثات لتلقي العلم في أوربة ، وكان يُحتم على من يدخل في خدمته من الإفرنج أن يتزوّوا بالزّي العربي (المصري) ، ويتكلموا اللغة العربية ، ويؤلفوا بها أو ينقلوا كتبهم إليها ، واعتزل الأمر لابنه إبراهيم باشا سنة ١٢٦٤هـ (١٨٤٨م) ، وأقام في قصر رأس التين بالإسكندرية مريضاً إلى أن توفي بها ، ودفن بالقاهرة .. ومما كتب في سيرته: البهجة التوفيقية ط لمحمد فريد ، ومحمد علي ط لإلياس الأيوبي ، ومحمد علي وعصره ط لعبدالرحمن زكي ، ومحمد علي الكبير ط لشفيق غريبال .. وقال الزركلي عن مصادر ترجمته : «المصادر المذكورة في الترجمة، والنخبة الدرية ١٠-١٦ وفيه ص ١٩: وفاته في أواسط رمضان ١٢٦٦هـ الموافق ١٨٥٠م .. وعنه أخذت في الطبعة الأولى ، وصححته بما عليه أكثر مؤرخيه ، والكافي ٩٤/٤ ، وأعلام الجيش والبحرية ١/١ - ١٥ ، وتاريخ مصر السياسي لمحمد رفعت ٧٤ - ١٤٠ ، ورسائل سائر لمحمد سليمان ١٩٦ - ٢٠٨ ، ومصر في القرن التاسع عشر لإدوارد جوان ٢٩٩ وما بعدها ، والمجلد في التاريخ المصري ٣٠٥-٣٣٩ ، وصفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي لعمر طوسون ، وبناء دولة ٦٨٥ وتاريخ مصر في عهد محمد علي لفليكس مانجان» .

والميزة الثانية: صعوبة الظروف داخلياً من ناحية الفقر وقلة العدة والعتاد، ومن ناحية الإحراج من مجتمع أمي لا يريد أن يتعلم، ولا يريد أَوْجَهَ المدنيَّة.. ومن مجتمع بدوي لا يقيم وزناً للقوة المادية حتى كانت تجربة طائرات الصليبيين ومدافعهم بالجهرا، وكان منطق عبدالعزيز - الذي يستبطله الدارس - : لم آمر بها، ولم تسؤني.. ومن علماء قصرت خبرتهم، وبهرهم الوافد الجديد، فوقفوا منه موقف المحرّم لمظاهر تَمَدِينِيَّة كثيرة .

والميزة الثالثة: صعوبة التحرك الديني عقيدة وشريعة بعيداً عن الضغوط العالمية الخانقة مع التصميم على سيادة الدين قضاء، وفتوى، وتعليماً، وإعلاماً، وحصر الخيار في أحد أمرين: إما تحقيق هذه الغاية، وإما الاستشهاد في سبيلها .

قال أبو عبدالرحمن : ومن هذه الميزات الثلاث تواشجت عناصر المغامرة والتضحية ابتداءً ، ثم عناصر الجهاد الشجاع العاقل الذي يرافقه جهاد سياسي فكري (ليس أقل خطراً) لأطرافٍ كافرة قوية تريد لأمتها ما لا يريد لها، وتريد منه ما لا يريد من نفسه؛ لأنه محكوم بولاءٍ صادق، وامتنال دقيق لدينه وعروبته.. ووطنيته لا يعلوها أدنى غبش؛ فكان دوره رحمه الله جامعاً لهموم الدورين السابقين : الجهاد العسكري الوطني ، والجهاد الدعوي .. وبديهة الحق التاريخي لعبدالعزيز أنه همٌّ جماعي مصلحي ، وليس همّاً فردياً نفعياً .

لقد أذن الله لهذه الأمة في جزيرة العرب - بعد أعباء من الجهل ، وغبش في العقيدة ، وغربة عن السنة ، وعذاب متجدد من الفتن والتبديد والمسغبة وذهاب الريح - بإمام صالح راشد جدّد للمسلمين حياة كريمة بالرجوع إلى الدين عقيدة وشريعة ، وذلك هو محمد بن عبدالوهاب ومن ظل قائماً على عهده من أحفاده وعلماء أمتة .. واختار الله لحماية عقيدة الإسلام وشريعته (التي دعا إليها محمد

ابن عبدالوهاب) والدعوة إليهما وتطبيقهما في الدولة والمجتمع ملوك آل سعود رحم الله من سلف منهم ، ورحم الخالف منهم ، وهداه ، وسدده .. وكان تاريخهم مديداً تعرضَ لهزَّاتٌ عنيفة قميئة بتقويض الجذور لو لم تكن ضاربة في أعماق الولاء لدين الله وتاريخ أمة الإسلام ؛ فلقد أعاد الإمام تركي بن عبدالله آل سعود شباب الدولة بعد قسوة الأتراك العنيفة الظالمة .. ثم أعادها سلفية - مع الإبقاء على هيبة السلطان - الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي رحمهم الله بعد الاختلاف وذهاب الريح .. وكل ناشئ في هذه الجزيرة يلزمه لعبدالعزیز ما هو لازم للأب والمعلم والسلطان والعالم ؛ لأنه حكم الشرع ، وحرَّر النفوس من تديك أمراء القرى ومشايخ القبائل وخطرسة القوي ، وأشاع التعليم ومحو الأمية ، وهياً الله له وهياً لمن خلفه وسائل تضمن الكسب الحلال وسبل الحياة الكريمة الشريفة .

إنه يوجد الزعيم القوي وتكون قوته وبالأعلى الأمة ، ومأساة لمصيرها ؛ لتخلف عناصر الإيمان والخير والرحمة والعلم والبصيرة .. ويوجد المؤمن الفاضل ولا يقوى على سياسة أهله وولده ؛ لتخلف عنصر القوة .. وكل منعطفات التاريخ تُلقى اللوم على جهل الجمهور ، وعجز القيادة الخيرة ، أو خيانة القيادة القوية !! .

وقبل وجود عبدالعزيز كان للأمة في الجزيرة العربية دولة قائمة اختارتها الجماهير بالبيعة الشرعية ؛ لتكون منفذة وقوامة على دستورها الذي بلغه رسول الله ﷺ عن ربه ، وبلغه من كل جيل عدوله إلى أن جدد تبليغه الإمام الشيخ محمد ابن عبدالوهاب بعد أن كادت تتمحي معالمه من بعض أجزاء هذه الرقعة ، وبعد أن كثر كدره في كثير من أجزاء الرقعة .. وكل الأمة تعتقد وتشعر أن للأسرة حقاً واجباً من الولاء والمحبة ؛ لتحملها أعباء الدعوة ، واستمرارها في الصمود لها .. وسيظل

حقها ديناً شرعياً ما ظلت البيعة على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ؛ استمراراً لعهدنا التاريخي الطويل المجيد .

وبعد الفتنة العمياء في عهد أبناء الإمام فيصل بن تركي رحمهم الله خلت الجزيرة من ذي كفاءة يوحد الراية ويؤسس الدولة ، وإنما كانت المنطقة مراكز قوى متفاوتة السلطة والجبروت أعلاها حاكم مقاطعة ما ، وأدناها أمير القرية ، وأوسطها شيخ القبيلة .. وهذه المراكز في مختلف صورها زعامات قبلية فردية لم يصحبها بناء دولة ، وتوجّه حضاري في ميادين الحسبة والتعليم والتجارة والاقتصاد والدفاع .. ولم تسع هذه الزعامات إلى رفع غبن الأمة فيما تعانيه من جهل ومرض وتخلف وعي سياسي واجتماعي، وكان مقياس هذه الزعامات الانتصار في غارة قروية أو قبلية مبيرة لغير غرض من الوحدة، وإنما الدافع السلب والنهب، أو غيرة زعيم من وجهة زعيم، أو تجديد ذحول وثورات.

ويتموج في الجزيرة ذوو فروسية وشهامة يعدلون الموازين بإذن الله ، ولا يُقاس فارسهم بألف من غيرهم ، ولكن هذه الفروسية كانت شراً ووبالاً ؛ لأنها أعادت سيرة الجاهلية الأولى في النهب والسلب وقطع الطرق والإخلال بالأمن ، وكانت الدماء الزكية تراق هدرًا، وكان مقياس التجمع اعتزاء عشائرياً دون شعور بانتماء الأمة الواحدة والأخوة الإسلامية المقدسة .. وسبب كل ذلك جهل الرعية، وغياب القيادة القوية المؤمنة التي توظف هذه الحيوية الفروسية لبناء الدولة .

ويتردد على الألسن وفي الكتب : أن عبدالعزيز جاء من الكويت ؛ ليسترد ملك أجداده .. وذلك (وهو حق تاريخي بلا ريب ، وهو باعث من بواعث مفامرة عبدالعزيز بلا ريب أيضاً) : لم يكن كل الحق ، وليس هو أم البواعث ولا جميعها ؛ ذلك أن لدينا ظاهرة تاريخية حكمت تصرفات عبدالعزيز طيلة بنائه للدولة خلال

نصف قرن : تلك الظاهرة مبدأ يترجم نيات^(١) عبدالعزيز وبواعث مغامرته ، وهذا المبدأ هو الإطار الذي حكم تاريخ عبدالعزيز ، وقد ترجم لنا أن منطلق عبدالعزيز من الإيمان بعقيدة ثابتة لم تتغير طيلة حياته، وهي باعث مغامرته؛ فهذا تصرفه من خلال إيمانه .

وبدأ مغامرته وهو يملك عقلاً حضارياً موهوباً يؤمن بتعدد صور المواجهة والمعاناة ، ولا يجمد على نمط ، ولكنه لا يختار صورة غير فاضلة وإن شرفت الغاية؛

(١) قال أبو عبدالرحمن : درج المعاصرون على قولهم : «نوايا» ، ولقد أقر مجمع اللغة العربية بدمشق في الجزء الثاني من المجلد «٥١» هذا الاستعمال ، وحجتهم :

- ١ - حمل النوايا على الطوايا جمع طوية ، وهي بمعنى النية .
- ٢ - ثمة أمثال نية جمعت على غير صيغة نيات بصيغة أخرى غير صيغة نوايا مثل حرة على حرائر.
- ٣ - أخذ اسم مفعول من نوى تلحقه التاء وهو نُويّة على وزن فعلية بمعنى منوية فالجمع نوايا . وأبى ذلك الأستاذ محمد العدناني : بحجة أن أصل نية نُويّة - بكسر النون ، وسكون الواو - ؛ وليس هو نوية (بفتح النون وكسر الواو) .. انظر معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة ص ٦٨٧ ، ومعجم الأخطاء الشائعة ص ٢٥٦ .

قال أبو عبدالرحمن : فعل النية نوى .. وبالاستقراء اللغوي اتضح لي أن الأصل في معناها اللغوي القصد عن بعد ، ومن ذلك اشتق معنوياً إضمار القلب المسمى نية ؛ لأن ذلك يسبق القصد إلى مكان بعيد مع مشقة السير .. وعن تصريف النية من نوى انظر تاج العروس ٢٠/٢٦٦ .. وليس هذا الخلاف ذا أثر في محل النزاع هنا ، بل أخلص إلى أن النوية - على وزن الطوية - بمعنى المنوية صحيحة الصيغة وإن لم تُسمع مادةً من نوى ؛ لأن الصيغ ثابتة عند العرب ؛ والعربي يُحوّل المعنى إلى الصيغة التي يريد بها - إذا لم يمنع مانع صرفي - ، ورواة اللغة عاجزون عن إحصاء كل مفردة نطق بها العرب على كل صيغة .. وهذا يعني أن النوية على وزن الطوية صحيحة وإن لم تُسمع مادة، ولا مانع من تحويل النية إلى صيغة الطوية إذا أُريد اسم المفعول ؛ إذن النيات جمع نية التي أصلها نوية - بسكون الواو - ، والنوايا جمع نوية بكسر الواو - وهي بمعنى اسم المفعول منويّة - ، وجمع المنويّة منويات .

فهذا تصرفه من موهبته ؛ إذن ليس الباعث الوحيد لمغامرته أن يسترد حقاً تاريخياً لجده فيصل أو أعمامه أو أبيه عبدالرحمن رحمهم الله؛ ذلك أن من عايشوا عبدالعزيز - وهم أشياخ من العوام رجال صدق وفطرة لا يعرفون الترويج الإعلامي - يشهدون أن عبدالعزيز في أعظم الأزمات يستخير ربه بعلمه، ويستقدره بقدرته، ويشترط في دعائه لربه: أن يكون فيه صلاح للإسلام وأهله ورحمة للأمة ؛ فليست هذه صفة من باعث مغامرته استرداد ملك أجداده.

ويشهد تاريخه رحمه الله أنه لم يأب الصلح قط إذا عرض عليه وإن كان في مركز القوة .. مع أن الصلح يرهقه بالتزام العهد لمن لا يسره أن يتسامح معه ، ثم لم يؤثر عنه قط أنه خاس بعهده ؛ بل إنه في غير حالات الصلح والمعاهدة يقدم جانب العفو والتسامح ، ولا يلجأ إلى العقوبة في أكثر الأحوال إلا بعد النكث وتكرر المخالفة .. وليست هذه صفة من يثار لحق تاريخي .

إن الحق التاريخي - الذي يُصرّح به الملك عبدالعزيز نفسه أحياناً - مجرد مناسبة تاريخية هيأت لعبدالعزيز المغامرة للمطلب الأسمى، وهو أن يزيل عن أمته غبن الجهالة والتخلف والمرض والفروسية الممزقة وتديك الزعامات الجزئية ؛ لتكون لهذه الأمة دولة ذات رقعة واحدة وجيش واحد .. إنه في إيمانه تلميذ أمين لعقيدته ليس عنده ما يبتكره في دين ربه ؛ لأن دين الله اتباع لا ابتداع ؛ فجمع أمثال علماء الوطن ، وأشعرهم بواجبهم في ولاية الأمر ، وحملهم واجب تخصصهم العلمي ، والتزم لهم ولأمتهم أن يكون منفذاً لما يقضي به النص الشرعي أو الإجماع المعصوم أو الاجتهاد الراجح أو شوري ذوي الحل والعقد في النائبة الجزئية .. مع أنه كان مثل أحدهم فقهاً في الدين ، ولكنه تفرغ لما لا يقوى عليه غيره من تحقيق الخير للأمة بعد جمع شملها .

لم تكن انتصاراته العسكرية التي فجَّرها في أنحاء المملكة غزو زعيم عشائري أو حالم بالسلطة - كما هو الواقع في البيئة الممزقة التي جاء لتوحيدها - ، وإنما كان يصحب تفجيرهِ العسكري عقلٌ حضاري ووعي بأحداث العالم من حوله ؛ فكان يشفع كل انتصار عسكري بأهداف الانتصار ذاته (وهو المعطيات الحضارية، والواجب الديني) : من فتح المدارس والمصحات ، وتنظيم الشُّؤون المالية والإدارية والفنية والقضائية والتنفيذية، وتوظيف الفروسية الممزقة ؛ لبناء الدولة ، وإقامة الأمن، وإشاعة العدل، وحفظ الحقوق العامة والخاصة، واستبدال الكسب الحرام - من النهب والصوصية - بالرزق الحلال (من استثمار الحرف والمواهب والمهارات وإيجاد الفرص) .

وقد عاين أَلطاف الله تصحبه - مع ضعف قوته العسكرية في كثير من المواقف - ؛ فتحقَّق له بذلك اللطف الإلهي: القوة، والعلم، والإيمان.. وكل ذلك منحة من ربه.. ولكنه كان يعلم أن أعمار الأمة المحمدية بين الستين والسبعين وهو لن يبقى معمرًا للأمة ، ويخشى عليها انتكاسة كل مجتمع يسوده التخلف والجهل ؛ لهذا كان تمدين الأمة ، وتعليم ناشئتها ، والتدرج بهم من مستويات التعليم المختلفة ، وتوجيه فروع العلم حسب اختلاف الميول بما يضمن الوعي العلمي بكل حقل في محيط حاجة الأمة الراهن ، وفي نطاق تطلُّعها إلى ما ستشرف عليه من رقيِّ الأمم الأخرى .. كان ذلك كله هو شغله الشاغل، وهو ما تفرَّغ له كلياً بعد استراحته عسكرياً على قلة ذات اليد وضعف في الموارد .

وفقهه في دين الله ، وعقله الحضاري ومواهبه .. كل ذلك جعله يقف موقفه القوي المؤمن دون تزمُّت ترفضه سماحة الدين ، ودون تسيُّب تأباه عزائمه ؛ فكان رحمه الله والداً ومربيّاً ومعلماً لكل فرد من أفراد هذه الأمة ؛ فبفضل الله أولاً

وقدرته ، ثم بما منحنا إياه من بركة عبدالعزيز وعزائمه: أمنت سبلنا ، ونعمت أسرنا بالراحة النفسية ورغد الرزق ، وزالت عنا ظلمة الجهل والتخلف ، ووجدت الفرص لكل عامل بحسبه ، وتهياً لكل فرد أن يتربى شعوره بالأمة العربية الإسلامية الواحدة .. ومثل هذا الشعور كان قبل عبدالعزيز مفقوداً ؛ إذ كان الشعور قَبْلِيّاً كما أسلفت .

إن ما نعيشه الآن من نعمة في الدين ، والرزق ، والمال ، والعرض ، والنفس ، والتمية هو الحق التاريخي الصحيح الذي حفز عبدالعزيز على المغامرة ؛ فاتخذ استرداد ملك أجداده مناسبة ظرفية .. والذين خبروا واقع الأمة العربية والإسلامية منذ ثورة نابليون حتى الآن يعلمون علم اليقين أن حق عبدالعزيز التاريخي هو ورقة العمل الرابحة لكل إصلاح منتظر في أجزاء العالم العربي والإسلامي .. وورقة العمل هذه التي خط عبدالعزيز سطورها بحروف من نور هي بناء دولة صميمة في عروبته، قيّمة على دينها ومصالح أمته .. إنها الدولة المتسمة بالثبات في تاريخها وعقيدتها مع تجدد عقلها الحضاري وعطائها الإنمائي .

السيرة تُبين السَّيرة :

قال أبو عبد الرحمن : لنبحث جزئية من مسألة الحق التاريخي ؛ لنرى كيف كان مجرى ذلك الحق في الأحداث ، وتلك هي إنقاذ الملك عبدالعزيز للأحساء من أطماع الحلفاء ؛ ففي آخر سنة ١٣٣١هـ نشرت مجلة لغة العرب مقتطفات من مقابلة أجراها إبراهيم عبدالعزيز الدامغ مع الملك عبدالعزيز رحمه الله ، وكانت نُشرت في الدستور كاملة ، وموجز معناها من نص كلام الملك عبدالعزيز وبلسانه نفسه ما يلي:

- ١ - أن الأحساء حق تاريخي اغتصبته الدولة العثمانية .
- ٢ - أنه انتزع من دولة مسلمة (أحيت دعوة السلف) بغير حق .. بينما النفوذ الأجنبي ممتد على السواحل المجاورة ؛ فكيف تُؤخذ البلاد من دولة مسلمة ويترك للنفوذ الصليبي الأجنبي حريته ؟ قال أبو عبد الرحمن : بل هي أمثل دولة مسلمة .
- ٣ - اختل الأمن بولاية الأتراك ، وعمت الفوضى ، وصارت الغلبة لقطاع الطرق .. وتظلم الأهالي يُرفع إلى مقام الولاية ؛ فلا يُسمع له صدى .
- ٤ - أن الأهالي طلبوا من عبدالعزيز مراراً أن يتقدهم ، فأضرب عن طلبهم إذعائاً للدولة وإن كان يسوؤه تردّي أوضاعهم .
- ٥ - جاءته مضايقات تحمل توقيعات الأهالي .. ونص العلماء والوجهاء لعبدالعزيز : «إن لم تسعفنا نضطر إلى ما لا تُحمد عقباه» .. وخلال ذلك كان إعلان الدولة بتخليها عن خليج العرب وسواحلها .
- قال أبو عبد الرحمن: كانت الثعبان العجوز بريطانيا تغفر فاها لانتقام منطقة الخليج.
- ٦ - سرّح عبدالعزيز موظفي الإمارة التركية حتى وصلوا إلى بلادهم محافظاً عليهم دون أن ينالهم أذى .. يقول عبدالعزيز : فهذه هي الأمور التي ساققتني إلى ما أتيت ؛ فقدّمتُ الأهم على المهم ، وسرّحتُ موظفي الإمارة محافظاً على حياتهم بدون أن ينالهم أذى .. وعليه إذا أنعم النظر رجال الدولة المخلصون في هذه المسائل، وفكروا في مآلها أحسن التفكير، وأعطوا لكل ذي حق حقه، ولاحظوا الأمن الضارب أطنابه في البلاد، وتثبتوا مما انتشر من مرافق العمران بين العباد: حبذوا عملي هذا .. ولا سيما إذا علموا أنني قطعت دابر الأشقياء المفسدين، وحقنت دماء الأهلين، وبسطت أروقة الراحة بين العالمين .

قال أبو عبدالرحمن: من ألقاب عبدالعزيز الكثيرة عند أهل نجد: سظام، ولطام، ومعرّزي، ونايف، وأخو الأنور، وأبو الليل، وأبو الليول، وأبو المساري؛ لأنه خمسين عاماً يذرع الجزيرة بالسرى ليلاً، وأكثر فتكاته بيّاتاً.. وفي عام ١٣٣١هـ سرى أبو الليل سراً بثلاثمائة^(١) من منتخب رجاله ، وقطع مسافة خمسة أيام في يوم ونصف يوم ، وهلك بعض رجاله .. وبمنتصف الليل أناخ ركابه خارج سور الكوت في الهفوف، وتسلق برجاله (خلال سلالم أعدها الأهالي كآل القصيبي)، وأخذوا من الجنود الأتراك سلاحهم وهم نائمون ، واعتصم موظفو الأتراك بالمسجد ؛ فأمنّهم عبدالعزيز على أن يرحلوا إلى البصرة من طريق العقير .

قال أبو عبدالرحمن : لست ههنا بمعرض التاريخ لتوحيد الأحساء مع أجزاء الجزيرة ، وإنما غرضي مصداقيةً مثّل عربي استشهد به الملك عبدالعزيز في خطابه التاريخي في ٢٢/٥/١٣٤٧هـ في افتتاح الجمعية العمومية في الرياض .. استشهد في هذه الخطبة على صدق نيّاته بالمثل : السّيرة تُبَيِّن السّيرة !! .

إنني آخذ ومضات عن مصداقية هذا المثل؛ فأجد أول ما أجد: أن تربية عبدالعزيز ليست تربية أعرابي عاش على النهب والسلب لا يهمله على أي شيء كان قاتلاً أو مقتولاً، ولا يعبأ بحسن الخاتمة .. وإنما هو ابن أسرة حاكمة عربية سلفية عاش في حضانة المشايخ ، وتفقه في دين ربه .. ومعلوم بالتجربة أن من نشأ هذه النشأة لا تساوي عنده الدنيا كلها أن يغامر من أجلها فيموت ميتة جاهلية .. وثاني ما أجد أن الملك عبدالعزيز غامر وباغت في آن واحد .. ومن أمهات المغامرات فتحه للأحساء ، وقبل ذلك فتحه للرياض؛ فهذا مؤشّر - يكذبه الواقع أو يصدقه فيما

(١) الرسم المعتاد ثلاثمائة .. ولتضليل هذا الرسم صار بعضهم ينطق بالألف .

بعد - على أن لعبد العزيز مطمحاً في توحيد الأمة ، وإعادة الحكم بمنهج السلف.. وهو أمر إن مات دونه فهو شهيد : ولهذا سهلت عليه المغامرة .

إن عبد العزيز لم ينتدب الخبراء ليستشيرهم في صنع منهج أو دستور أو ميثاق، وإنما كان منهجه معه واقعاً وبيئةً، وتَشْيئة وإراثاً.. لقد جمع أهل العلم وحملهم مسؤولية البيان ، وهو يصدر عن حسٍّ أصولي : ففي خطبته المذكورة آنفاً قال : «ولكل من تكلم بالحق منكم فله عهد الله وميثاقه أنني لا أعاتبه وأكون ممنوناً منه ، وأني أنفذ قوله الذي يُجمع عليه العلماء ، والقول الذي يقع الخلاف بينكم فيه (أنتم أيها العلماء) فإنني أعمل فيه عمل السلف الصالح : إذ أقبل منه ما كان أقرب إلى الدليل من كتاب الله وسنة رسوله أو قول لأحد العلماء الأعلام المعتمد عليهم عند أهل السنة والجماعة .. إياكم أيها العلماء أن تكتموا شيئاً من الحق تبتغون بذلك مرضاة وجهي : فمن كتم أمراً يعتقد أنه يخالف الشرع فعليه من الله اللعنة.. أظهروا الحق وبيّنوه وتكلموا بما عندكم».

قال أبو عبد الرحمن: فالملك عبد العزيز يملك الحس الأصولي إجمالاً ، ويملك كثيراً من تفاصيله .. وما لم يتفرغ للتخصص فيه يناقش فيه أهل العلم بعد استشارته لهم .

وثالث ما أجد : أن حرية الرأي - بأي شكل كان شعارها - ليست غريبة عن البيئة ؛ فالمجتمع القبلي نفسه يقوم على مشورة شيوخ العشيرة .. وشعر العرب وحكمتها مليئٌ بذلك .. قال الأستاذ محمد جلال كشك : «هو الحاكم العربي الوحيد الذي أحاط به مستشارون من معظم الجنسيات العربية ، وكان ديوانه أول وآخر مجلس حكم (منذ الدولة العباسية) وجد فيه المصري والسوري واللبناني والليبي

والعراقي والفلسطيني ، وكانت لهم جميعاً مزاياهم، وخدموه بإخلاص إلا فيما ندر، وفي أواخر أيامه .. وهم كأي تجمع عربي كانوا يعانون من الحساسيات الإقليمية والمزاحمة فيما بينهم ، ولكنه استطاع أن يكون منهم مجموعة متناسقة تعمل وفق إرادته ، وفي إطار ما يخطط .. لم يستطع مستشار مهما كانت مكانته ، ومهما بالغ في الظن بأهمية نفسه : أن يفرض عليه خطأ سياسياً لا يرضاه ، أو أن يزوج به في قضية إقليمية على هوى المستشار ؛ حتى إن حافظ وهبه كان يفتخر أو يعتذر بأنه في مصر وطني يعادي الإنجليز .. أما في بلاط عبدالعزيز فيعمل بإخلاص لتدعيم صداقة السعودية وبريطانيا .. وهكذا الرجل العظيم يدير رجاله ، ولا يديره المستشارون .. ولكن لا يجوز أن نفهم من ذلك أنهم كانوا إمعات ، أو تمثلهم الصورة البشعة التي نقلها العطار عن يوسف ياسين ؛ إذ نسب إليه قوله : «كنا بوسطجية ننقل عبقرية عبدالعزيز» .. بالعكس كان يتخير الرجال الذين يملكون استقلالية الرأي، والقدرة على تقديم المشورة الحقيقية .. لا أن يحيط نفسه ببني وي وي (١) كما كان الجزائريون يقولون عن نواب وموظفي الجهاز الاستعماري من الجزائريين ؛ ففرق بين المستشار والخادم .. وهو كان يُحذّر من دولة الخدم الذين - كما تُؤكّد خبرة التاريخ - ينقلبون إلى مستبدين بالسلطة على نحو تفوق نتائجه ما تخوّفه الحاكم من المستشار الحر، ومعروف تحذيره لأولاده ومعاونيه من سيطرة الخدم (٢) ، وضربه المثل بدولة عمه عبدالله بن فيصل الذي أساء خدمته معاملة الناس ؛

(١) وي : تعني نعم بالفرنسية كما نقول نحن جماعة : موافقون موافقون .. أو الذين لا يعارضون الحاكم أبداً [كشك] .

(٢) يمثل ذلك رسالته رحمه الله لأميته على المدينة المنورة عبدالعزيز بن إبراهيم .. وهي في كتابي «آل إبراهيم الفضليون» ص ٢٦٥ - ٢٧٠ [ابن عقيل] .

فانفضوا من حوله ، وكتب إلى صهره السديري : «وتدري الخدام إذا صار لهم مدخل بالأمر دوروا مصالحهم وعفاناتهم ، وهذا كله شئ بطل»^(١) .

وسنقدم أمثلة من معارضة مستشاريه .. وخاصة المصري الذي كان أحياناً يتجاوز حده في النقد والمعارضة ؛ مما يثير رُعب بعض المؤرّخين بعد نصف قرن؛ فلا يصدقون روايات المستشار لولا أنها نشرت في حياة عبدالعزيز .. كما كان يحترم مسؤولياتهم ، وقد أبدى دهشته من تجاهل الملك حسين لوزير خارجيته بإبرام المعاهدات من غير علمه .. ولم تكن دهشته مصطنعة ، ولا لإثارة وزير خارجية العدو ؛ فهو نفسه يصدر أمره لوكيله في الكويت النفيسي بأن يحوّل جميع المراسلات التي تصل من الشيخ أحمد الجابر حاكم الكويت ، أو ديكسون المقيم البريطاني إلى ممثله السياسي حافظ وهبة ، ويأمره - أي حافظ - : فتكسره .. أي تفتحه ، وتشرف عليه ؛ لتعلمنا برأيك فيه ، ونعرف خطتك التي تمشي عليها .. كما أشرنا في غير هذا الموضع إلى عرضِ ردّه على الحكومة البريطانية على مستشاره ، وكتابته بخطه: إنه أخذ بنصيحة المستشار ، وكتب الرد كما اقترح المستشار»^(٢) .

قال أبو عبدالرحمن: ديننا أمر بالشورى ونظّمها ، والملك عبدالعزيز رحمه الله يطلب من رعيته حرية الرأي من منطلق التنظيم الشرعي للشورى؛ ففي الخطبة

(١) برقية رقم ٣٨٤٣ بتاريخ ١٦/٥/١٣٥٥هـ - أغسطس ١٩٣٦م من تسجيل خاص يحتفظ به الأديب الفاضل الشيخ عبدالله السديري رئيس مجلس إدارة جريدة الجزيرة .. ومعروف سيطرة المساعدين الخصوصيين على المسؤولين والسياسيين ؛ فليس المقصود هنا أي موقف طبقي ؛ بل التحذير من إخضاع السلطة للعواطف الشخصية والشهوات الرخيصة والعقليات المحدودة كما حدث في أواخر خلافة العباسيين ، وفي حالة الملك فاروق ؛ بل ورئيس وزراء بريطانيا الذي خضع لسكربتيرته [كشك] .

(٢) السعوديون والحل الإسلامي ص ٣٤ - ٣٥ و ص ٧٦٨ .

المذكورة آنفاً نص بأن لا يخاصم أحد أحداً في رأيه .. وفي خطبة له بمكة طالب كل فرد بأن «يقول ما يعتقد فيه منفعة» .. نعم إن السيرة تبين السريرة .. ولو كان عبدالعزيز ناشد ملك فحسب، وطالب ثأر فحسب : لكان يلتبس منهجاً وضعياً يتنفس كما يشتهي من خلاله .. والواقع أنه جمع العلماء ، وحملهم مسؤوليتهم، وفتح المحاكم الشرعية وأعلنها سلفية .. والشرع يمنع من الظلم والنزوات ، ويقدم مصالح الأمة .

ويلاحظ أن الدولة العثمانية في أعقاب خلافتها الإسلامية ارتكبت وفرضت مالا يرضي الله من أمور تخالف سيرة السلف ومعتقدهم (وهي أمور أشار إلى بعضها الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد رحمهم الله)، وجندت عامياً أمياً جلفاً من صنائع الدونمة هو محمد علي ودعيه إبراهيم .. وهو الذي جرّ الدولة الصليبية على الخلافة، وفتك - باسم الخلافة - بأهل الدعوة في الجزيرة، وعطل معالم الشريعة^(١) .. وكان حكم الدولة العثمانية للأطراف حكم جباية أموال فحسب، ومع هذا فكان موقف عبدالعزيز من الدولة - على الرغم من كل تلك المظالم - موقف من تحكمه العاطفة نحو تاريخ الخلافة قديماً ، وقد بيّن علي فؤاد باشا في مذكراته ثمرة موقف عبدالعزيز الحيادي في الحرب العالمية الأولى بأنه كان في صالح الدولة، وبيّن أن عبدالعزيز قريب من المراكز البريطانية مما يجعله دوماً عرضة لانتقامهم .

قال أبو عبدالرحمن : ولو كان عبدالعزيز صاحب ثأر فحسب لكانت فرصته أن لا يحايد، ولكنه رحمه الله لا يبيع دينه بدنياه .

(١) انظر : ما ارتكبه إبراهيم باشا من موبقات في حق أتباع الدولة السعودية الأولى وأئمتها وأمرائها في تاريخ مصر في عهد محمد علي لمؤلفه فيلكس ما نجان ، وقد ترجم منه ما يخص الدولة السعودية الأولى ونجد وحملات محمد علي على الجزيرة العربية وتشره دارة الملك عبدالعزيز .

عبدالعزيز وهموم التمزق العربي والإسلامي :

وأخطر تاريخ للأمة العربية ، وأرهفه حساً : تاريخها الحديث ، وما قبَّله من عصور ضعف بني عثمان .. ولكن أخصبه حساسية وخطورة هو ما بين ١٩٥٦م و١٩٦٧م وما بعيده من أعوام !! .. في مدة الأحد عشر عاماً الأولى تجلّى عنفوان الطموح العربي ، وأصبح كل منبر يُلوّح عليه خطيب عملاق الذراعين (واحدة تجذب أقصى المحيط ، والأخرى تدفع طرف الخليج) ، وكاد العربي يبطش - بالبلاغة العربية في خيالاته وتحديه !! - بالقوى العالمية الضاربة في البحار والأجواء .. وتجسّد مجد القبيلة في مجد الدولة ؛ فقد كان الزعيم العربي إذا غضب غضب له مئة ألف سيف، ورأينا الخطيب إذا غضب غضب له ما ينيف على أربع عشرة راية تحتها ملايين السيوف .. وانقسمت المشاعر على ثلاثة أنحاء : مشاعر قسم أصيل المعدن، صادق الولاء، عظيم الاعتقاد بأن المجد العربي لا يموت.. ولا عيب فيهم إلا حسن النية المطلق ، وغرة الكريم ، والتزام زاوية واحدة للرؤية والإيمان الراسخ بحتمية التجربة الجديدة وأنها المخلص .. اختاروا للإعلام في الوطن العربي الأم زاوية واحدة للرؤية والسماع .. لم يدر بخلداهم قط أن الإعلام يمعن في التغرير بهم، ويبالغ في اختلاق المكاسب وتهويلها .. ولم يخطر ببالهم قط أن ما يرونه قشة تطفح على جانب التيار، ولم يعادلوا قط معادلة حسابية بين الهتاف الإعلامي الكلامي عن نسيج الميثاق، وأخوة القومية، ومبادئ الاشتراكية، وأثر ذلك في التحام الأمة .. وبين الواقع العملي من تمزق في الصف ، وتناحر على السلطة ، وحلم كل رويضة بالتحرك .. وأحصى الدارسون يومها أن خسائر وفوداح التقلب على الكراسي كلّفت ما لم تكلفه مواجهات عسكرية عديدة - لو وجدت - مع

عدو مشترك، وأهدر إذلال الزنزانة ومخاوف التغريم والتشريد كفاءات ومواهب علمية قامت وتقوم عليها بعد الله قدرة الأمة .. وفي فورة الحماس الأعمى للإخوة القومية نسي هؤلاء أن هذه أول تجربة عربية على الأرض العربية بعد أمجاد التاريخ الإسلامي ، وأنها لا يمكن أن تكون تجربة صحيحة ؛ لأنها خلاف سنة التاريخ ، ولأن الأخوة القومية افتراض عقيدة وليست ممارسة لعقيدة واقعية ، وأن رقعة العالمين الإسلامي والعربي منحة إسلامية وليست إرثاً قومياً ، وأن القومية قبل التجربة العربية من تدبير الكواليس ، وأن الأمم التي مزقتها القوميات سابقاً لم تغنها قوميتها ، وبدأت تجتمع : إما على مبادئ أيديولوجية ، وإما على استحياء دين صوري ، وإما على منافع تحليلية .. ونسي هؤلاء الخيرون أن القومية التي تحمسوا لها أعظم خطراً سيسمع دويُّ الأمم بعد أحداث عام ١٩٦٧م ؛ لأن الولاء للأخوة القومية مشروط بفصل الدين عن الدولة والحياة (أي العلمانية) .. ونسي هؤلاء أن منطق القومية العربية لن يكون أقوى من منطق الأقليات ، ونسي هؤلاء أن منطق القوميات المفترض ليس ألصق بالقلوب من منطق الأديان الممتزج باللحم والدم ، ونسي هؤلاء أن دعاية القومية أوجدت الأحقاد والطائفية في الصف العربي ، وأن البيوت المتخذة للعبادة ذات النواقيس أصبحت تستعمل ترسانة للأسلحة منذ ذلك الوقت .. والعربي البليد يلمس بيده اليوم الانشقاق الطائفي العايب بقدر الأمة في مختلف أجزاء الرقعة .. ونسي هؤلاء أن قائد الأمة ومعلمها ﷺ (وهو أصح الأمة نسباً ، وأصرحها عروبة) نهى عن دعاية الجاهلية ، وأنه لا خير في تجربة حذر منها شرعه .. ونسي هؤلاء أن الرقعة بلد المسلمين ، وأن دينهم مثالي على خلق عظيم يضمن حق المواطنة للأقليات الطائفية والدينية .. ونسي هؤلاء أن الاستسلام للقومية استسلام لمغالطة المنطق للدول المنتصرة التي اقتسمت تركة الخلافة

الإسلامية! .. ومنطق هؤلاء - فيما تحكمه مصالحهم إذا كان المتحاورون متكافئين - ترك سياسة الرقعة لأكثريتها وجذرها التاريخي .

والمشاعر الثانية مشاعر قسم يرى بقلبه مالا يراه الآخرون بعيونهم .. إلا أنهم قلة مستضعفون ، مغلوبون على أمرهم ، آيسون من جدوى التضحية .. وإن كان بعضهم أثر أعواد المشنقة لعلمه أن الكلمة لا تضيع .. ولهؤلاء سمعتهم التاريخية في تصحيح الأوضاع عام ١٩٥٢م ، وفي محاربة المحتل فيما بعد ذلك .. وتقع وتلفع بأمجادهم من أعدوا إعداداً معقداً للتلاعب بالأمة ، وظلوا يتلاعبون بعواطفها إلى أن وصلوا إلى الحضيض الذي هم فيه اليوم ؛ فكانوا يوصفون في أحلك الأزمان بغزлан الصحراء .. وفي عقيدة أولئك الخيرين : أن العرب لم ولن يفلحوا إلا بإمامة نبي الثقلين ﷺ .. ورأى هؤلاء أن فتنة التقدمية وروح العصر حق أريد به باطل ؛ لأن التقدمية التي تلزمهم إنما هي تحقيق الحرفة والمهارة التي تكون مصدراً للرزق وشغلاً للعاطل ، وتحقيق العلم المادي الذي يُحقّق لها الاعتبار في كون الله ، ويُحصّل لها حظها الدنيوي الذي نُهيّت عن نسيانه ، ويضمن لها بإذن الله القوة العسكرية عوضاً عن رباط الخيل؛ لتحمي العدل والأمن والكرامة. وتتصر المستضعفين في الأرض، وتغز منهج الله الذي اختاره للبشرية جمعاء .. وعلم هؤلاء - وهم أهل الذكاء والزكاء - أن الاستسلام للغالب في قوته وفكره وسلوكه ودعايته لن يحقق شرط التقدمية ؛ لأن الدول الغالبة أقوى وأذكى في إقامة الحاجز .

وإنما حصل بالاستسلام عفن التقدمية من إغراق في المتعة والفضول وشهوة الجدل وحياة غير طبيعية لا تترك فرصة للمرء لكي يفكر ، وأوشاب من المظهر في الزي والمأكّل والمشرب والملبس لا تتحملها فطرة العربي الذي يسد رمقه يوماً ويجوع يوماً .. وفي دينه أن حَسَبَه من حياته لُقيمات يُقمن صلبه .. وفي الرقعة ملايين

التقدميين وليس فيهم من يحسن صنع إبرة أو منقاش !! .. ورأى هؤلاء أن شرط وجودنا من التقدمية لا يتحقق إلا بالتجمع بدعاية الإسلام في الإرث التاريخي للمسلمين من الرقعتين ، وأن الاستغناء بموارد ومواهب العالمين العربي والإسلامي يحقق كتلة ثالثة تزن المعادلة في أرض الله ، وتكبح جماح الاستكبار العالمي على منهج الله .. والتقدمية المشروطة تأتي تلقائياً بعد هذا .. ورأى هؤلاء قباحة النفاق في كل مصير متجدد ؛ فعلى سبيل المثال ما نَعِيَ قبل عام ١٩٥٢م من ترف ومجون ومداينة للغالب ليس أسوأ من لصوصية ما بعد عام ١٩٥٢م ، وأحد هؤلاء اللصوص باغته كارثة الأمة عام ١٩٦٧م وكانت له القيادة وهو في غاية الانقياد لمستلذاته مع بقية الرفاق .. وكل المتغيرات بعد عام ١٩٥٢م لم تثبت لنا ولو مرة واحدة أن هناك شيئاً واقعياً اسمه «عدم الانتماء» !! .. ما رأينا قط إلا الانتماء المستسلم الأرعن .. إلا أنه انتماء يُعمى عنه بالمغالطة والسفسطة والتضليل الإعلامي .. وعلمنا قبل المتغيرات قيادات عريقة في تاريخها، رزينة في تصرفاتها، ثقيلة الوجود على الساحة .. وكان انتماءؤها وفقاً^(١) لمصالح أمتها وظروف ضعفها، وانتهاج أحلى الأمرين مع شهامة وكبرياء جريئة .. ولو ملكوا الحظ السعيد لكانوا أغير على مصالح أمتهم .. وهؤلاء يتفادون كثيراً من المصالح المؤقتة الزائلة ، وكثيراً من الشهرة والتطويل ؛ خوفاً من أن يكون انتماءؤهم فوق الحاجة .

وأيقن هؤلاء الخيرون بجدوى شرح وجهة النظر الإسلامية مع جبروت الإرهاب الفكري للتضليل الإعلامي ، وصبروا على قاموس الشتائم ابتداءً من الرجعية وانتهاءً بأصحاب الفضيلة في صيغة السخرية ، ولم يَغَرُّهُمْ تَقَلُّبُ الذين كفروا في البلاد ؛ لاعتقادهم بأعباء الضياع مستقبلاً ، وبأن الكلمة لا تضيع، وبأن

(١) الشائع الآن الوفاق بكسر الواو ، ولم أجد للشيء الموافق إلا الوفاق بفتح الواو .

الأمة ستحنُّ لدينها على الأنقاض، وبأنها ستمد أعناقها إلى المورد العذب كظماء الإبل، وأن أكثر من تجربة فاشلة مغتصبة على الرقعة لن يلغي عودةً إرادية جماعية إلى طبيعة الوجود العربي، وهو الوجود المشروط بالإسلام.

والمشاعر الثالثة مشاعر قسم تشملهم دائرة القومية العربية الممؤهة .. إلا أنهم أقليات يدينون بطائفية عرقية ودينية ، وهم يعلمون أن انتصار القومية أنسب لهم من انتصار الإسلام ، ولكنهم مع هذا يخافون أن تحقق القومية العربية وجوداً عربياً متلاحماً ، ويعلمون أن الحماس للقومية لحظة سكرة سيتبعها لحظة فكرة ، ومن ثم لن يجد المنتمون إلى القومية إلا ما هو شرط لوجودها ، وهو عودة الإسلام للدولة والحياة ؛ لهذا انقمعوا وتواروا وتظاهروا بالقومية والوطنية ، وهم لا يضيِّعون انتهاز أي فرصة للإفساد والتفريق .. فلما كانت نكسة عام ١٩٦٧م ظهرت وجوههم القبيحة على حقيقتها ، ولم يكن موقفهم من النكسة موقف المتحمسين الأولين الذين فقدوا طعم المذيع والجريدة ، وحطمت الهزيمة إرادتهم ، وأنفت كبرياء بعضهم من التراجع عن أجواء المناخ المخدر .. وأكثرهم لم يجعل الهموم السياسية قضية ، وإنما انصرف إلى ما يشغل وقته وموهبته من تثقُّف عام ، أو تخصص في فرع ثقافي ، أو تجارة ، أو لهو ، أو احتراف السخرية والتشاؤم .. ولم يكن موقفهم من النكسة موقف المتتورين الآخرين الذين عمرت العقيدة الإسلامية عقولهم وقلوبهم ، ونعوا جيل الهزيمة نعي الأب لعقوق أبنائه ، وكان ألمهم عتياً وتحسراً ، وكانوا يترقبون في كل لحظة المناورات الفكرية والسياسية بقناع آخر ، ويثقون بعد الله بقدرة الجيل اللاحق على قلب الموازين بعد صحوة الفكر ويقظة الضمير .. كان موقف هؤلاء الطائفيين من النكسة موقف العدو الشامت المتشفي .. اتخذوا النكسة جسراً للاستهزاء بدين الأمة ، وتاريخها ، وتحطيم ثوابتها .

ومجدنا التاريخي في هذه الجزيرة لا يتخلّى عن العروبة وهو دوحته ، ولكنه يؤمن بها بشرطها ، وذلك الشرط إنما هو الإسلام تاريخاً وسلوكاً .

قال الأستاذ محمد جلال كشك عن الملك عبدالعزيز : «كان مسلماً عربياً ، لم تقم في ذهنه شبهة تناقض مزعوم بين الإسلام والعروبة ، ولا حاول أن يتجنب أفاضل القومية كما يفعل المسحورون اليوم ؛ فهو يقول : «الحمد لله الذي حفظ لنا ديننا وعروبتنا وقوميتنا»^(١) .. ويقول بالفم المليان : «أنا مسلم عربي رأست قومي بعد مصاعب طويلة»^(٢) .. هو الإسلامي الداعية للحل الإسلامي .. واجه الأتراك وقاتلهم باسم العروبة ودفاعاً عن العرب ، وكان يقال في مجالسه : إن الأتراك من نسل إبليس ؛ لأنهم من أولاد التتار^(٣) .. وحملاته على الأتراك معروفة ومشهورة ، ومعظمها يدور حول ما أنزلوه بالعرب من أضرار .. بل يفخر ويعتز بانتصار العرب على الفرس المجوس .. كانت العرب قبيل ظهور الإسلام ذليلة خاضعة لسلطان الفرس ، ولما بعث الله النبي ﷺ أخضع العرب و الفرس لسلطانهم ، وقد تم لهم ذلك ؛ لتمسكهم بكلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله^(٤) .. وهو المعتز بجزيرة العرب الذي - باختيارها اسماً للمملكة التي أسسها - كان أول من وضع العربية في اسم الدولة ، وإن كان بمفهوم آخر غير مفهوم الستينات ، وهو أحد الأركان المؤسسة للجامعة

(١) خطاب عيد الأضحى ١٣٦٥هـ - نوفمبر ١٩٤٦م [كشك] .

(٢) خطابه يوم الجمعة ٥ ذو الحجة ١٣٥١هـ - مارس ١٩٣٣م [كشك] .

(٣) قال أبو عبد الرحمن : هذا مضمون تافه ، وعقيدة عوام ، وليس ذلك عقيدة عبدالعزيز رحمه الله ، ولا دليل على أن تلك الجملة تردّد في مجالسه .. وعلى فرض أنه صدرت من عامي في مجلسه مرة أو مرتين ؛ فهو يتجاهل التعليق ؛ ترفعاً عن عقائد العوام ، وليس في تاريخ أولئك في تعاملهم مع الدولة السعودية ما يبهج نفس الملك عبدالعزيز ؛ فيرد مثل تلك الكلمة .

(٤) من خطابه ذو القعدة ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م [كشك] .

العربية، وقد روى العقاد عنه قصة أو مثلاً ضربه عن أهمية الجامعة العربية، وأن مصلحة العرب في الحفاظ عليها ، وأن الذين يُعَرِّرون بالعرب بطرح شعارات مزيدة (بالرَّعم من أن تحطيم الجامعة يحقق مكاسب أفضل مثل جامعة الشعوب، أو الوحدة الاندماجية .. إلخ) : إنما يريدون هدم حصن العرب ؛ ليتمكنوا منهم»^(١).
قال أبو عبدالرحمن: من المهم أن نورد خطبة الملك عبدالعزيز لأنها تضع النقاط على الحروف حول العروبة والإسلام والخلافة .. قالت مجلة الفتح: «يقيم الملك ابن السعود في يوم من أيام الموسم من كل عام مأدبة عظيمة يدعو إليها ذوي الكلمة وأصحاب الرأي من حجاج الأقطار ووفود الممالك على بيت الله ، وهو يُحيي بذلك سنة قُصي وبني عبد مناف بما سنُّوه من رفادة الحاج ؛ توثيقاً للأواصر، وانتهازاً لفرصة التعارف .. وفي هذا العام أجاب وجهاء الحج دعوة الملك ابن السعود إلى موائده الكبرى ، وخطب في هذا الحفل سعادة وزير الأفغان المفوض في مصر السيد محمد صادق المجدي .. ولما انتهى من خطبته وقف جلالة الملك ابن السعود؛ فحمد الله وأثنى عليه، وقال: إن مصائبنا من أنفسنا؛ لأننا نحن أعداء أنفسنا، والأغيار [أي غير المسلمين] لم يقدرُوا على إذلالنا إلا بعد أن رأوا منا العداوة لبعضنا ؛ فاللوم واقع (والحالة هذه) علينا لا عليهم ؛ لذلك يجب أن نصلح أنفسنا ، وأن نطهرها من الأضغان العالقة بها ، وأن نكون مسلمين حقاً إذا كنا نريد النهوض والخلاص ، وأن نعتصم بحبل الله جميعاً ؛ فنترك كل المنهيات والمنكرات إذا رغبنا في النجاح والصلاح .. يجب أن يُعنى كل واحد منا بأمره أولاً، وبأمر إخوانه ثانياً، وأن يبذل جهده في إصلاح نفسه، وإصلاح إخوانه، وأن يقوم المعوجَّ من أعمالنا وأخلاقنا، وأن يوجه كل منا مجهوداته نحو هذه الخطة المثلى .. أما أنا فإنني أعمل

(١) السعوديون والحل الإسلامي ص ٣٣ .

جهد الطاقة في سبيل إعلاء كلمة الدين، وإجلال عقيدة السلف الصالح في نفوس المسلمين والعرب ؛ لذلك أنا مُبَشِّرُ أدعو لدين الإسلام، ونشره بين الأقوام .. أنا داعية لعقيدة السلف الصالح ، وهي : التمسك بكتاب الله ، وسنة رسوله [ﷺ] ، وما جاء عن الخلفاء الراشدين [رضي الله عنهم] .. أما ما كان غير موجود فيها فأرجع بشأنها لأقوال الأئمة الأربعة؛ فأخذ منها ما فيه صلاح المسلمين .. أنا مسلم، وأحب جمع كلمة الإسلام والمسلمين ، وليس أحب عندي من أن تجتمع كلمة المسلمين ولو على يد عبدٍ حبشي ، وإنني لا أتأخر عن تقديم نفسي وأسرتي ضحية في سبيل ذلك .. أنا عربي وأحب عزَّ قومي ، والتآلف بينهم ، وتوحيد كلمتهم ، وأبذل في ذلك مجهوداتي ، ولا أتأخر عن القيام بكل ما فيه المصلحة للعرب ، وما يوحد أشتاتهم ، ويجمع كلمتهم .. أنا مسلم ومدافع .. أنا مسالم للناس ، وأحب النصيحة قبل كل شيء ؛ لأن الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وأنا مدافع ؛ لأنني ما حاولت في وقت من الأوقات أن أعتدي على إخواني وأبناء قومي .. كنت في كل وقت أقابل ما يصدر إليَّ من إساءة أو خطيئة بصدر رحب على أمل أن يرجعوا إلى الصواب ، ولكني إذا رأيت تمادياً في الغي والإساءة أضطر حينئذ للدفاع .

وبعد أن أشار جلالته إلى عيوب بعض المسلمين، وما في أخلاقهم من نقص قال: إن الجهل قد تَفَشَّى^(١) ، وساد التخاذل بين المسلمين؛ فوصلنا إلى ما وصلنا إليه، ولم يبق من الدين إلا اسمه، وتفرقنا أيدي سبأ، وأصبح المسلمون فرقا وشيعاً.. أما أولئك الذين يطبّلون ويزمّرون لحضارة الغرب ومدنيته ، ويريدون منا أن ننزل

(١) أسلفت كثيراً أن العبرة في الرسم بالنطق ، أما أصل الكلمة صرفياً فليس من مهمة الرسم الإملائي، بل هو من شأن علم النحو والصرف ؛ فكان منهجي الرسم هكذا «تفشاً» ؛ ولكن اجتهادي لم يجد قبولا ؛ فأنبت عنه تأصيلاً لا تطبيقاً في كتابي «رسم القلم ورموزه» .

عندها : فَنَمَتَتْهَا فِي بِلَادِنَا وَبَيْنَ أَقْوَامِنَا : فَإِنَّا نَسُوقُ إِلَيْهِمُ الْحَدِيثَ بِتَوْجِيهِه
أَنْظَارَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْأَزْمَةِ الْخَائِنَةِ ، وَإِلَى هَذَا التَّبَلُّبِ السِّيَاسِيِّ ، وَإِلَى الْفُوضَى
الاجتماعية السائدة في تلك البلاد .

واستطرد جلالته فتكلم عن مركزه الشخصي وسياسته ؛ فقال : فريق من
المسلمين ينقمون علي : لأنني أدعو لعبادة الله عبادة خالصة ، ولأنهم يريدون أن
أرتكب المنهيات ؛ فأمر بإقامتها في البلاد ؛ فأنا أبرأ إلى الله من هذه الدعوة
الباطلة ، وأفخر بأنني سلفي محمدي على ملة إبراهيم الخليل [عليه السلام] .. إن
دستوري وقانوني ونظامي وشعاري : هو دين محمد ﷺ ؛ فإما حياة سعيدة على
ذلك ، وإما مorte سعيدة .. أما أني أدعي الرئاسة على الناس ، أو أطلب بها ؛ فهذه
ليست صحيحة .. على أن مقامي ليس دون ذلك ، وليس هنالك من هو أسمى مني
نسباً إلا بيت الرسول ﷺ فقد أعزهم الله بقرابتهم للرسول الكريم [ﷺ] ، ولكن
هناك شرط يشترط على ذلك : فإن آل الرسول يتقدمون الناس إذا نفذوا الشريعة
الإسلامية ؛ ففضلهم يتأتى عن هذا الطريق^(١) ؛ فإذا انحرفوا عنها لا يبقى لهم
فضل على غيرهم .. أنا عربي ومن خيار الأسر العربية ، ولست متطفلاً على الرئاسة
والملك ؛ فإن آبائي وأجدادي معروفون منذ القدم بالرئاسة والملك ، ولست ممن
يتكلمون على سواعد الغير في النهوض والقيام ، وإنما اتكالي على الله ، ثم على

(١) قال أبو عبدالرحمن : سيأتي إن شاء الله آخر هذا الكتاب تحقيق القول إن حديث
«الأئمة من قریش» من ناحية الخبر خاص بعصور معينة ، ومن ناحية الأمر عام لكل من
انعقدت له البيعة وإن لم يكن قرشياً .. ولو كانت الخلافة لآل البيت رضي الله عنهم لسلما
رسول الله ﷺ لعنه العباس ، أو ابن عمه علي رضي الله عنهما .

سواعدنا يَتَكَيَّ الآخرون ويستندون .. أنا لا أفتش ولا أسعى للرئاسة ، ولا أريد علواً في الأرض ، وإنما يهمني في الدرجة القصوى جعل كلمة الله هي العليا ، ولا يهمني في هذا الشأن ما يعترضني في الطريق من المصاعب والمتاعب .. لقد حاربتنا جيوش جرارة في أدوار مختلفة منذ أن قمنا بهذه الدعوة المباركة ؛ فكان نصيبها رغم كثرة عديدها وَعَدِيدُهَا الفشل والخسران .. ولله الحمد .

ماذا يريدون من ابن سعود ؟ .. ماذا عمل ابن سعود ؟ .. هذه أعمالي واضحة بيّنة : أزلت كل سيئة ، وأقمت كل معروف ، ونهيت عن كل منكر .. وحجتي في ذلك كتاب الله وسنة رسوله [ﷺ] .. إنني أبرأ إلى الله من كل محرم أن أبيحه ، وأبرأ إلى الله من كل منكر أن أمر به .. وأنا على استعداد لمعالجة كل من يريد محاججتي بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .. يقولون : إنني أطلب الملكية ، وأن أصير خليفة على المسلمين .. أنا ما ادعيت هذا ولا طالبت به ؛ لأن على الخليفة واجباً هو تنفيذ أوامر الدين على كل أفراد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .. وهل هنالك من رجل يستطيع أن يُنفذ ذلك على المسلمين في هذه الأيام ؟ .. لقد كان من المستطاع أن يكون ذلك في عهد الخلفاء الراشدين أيام كانت كلمتهم تسري على كل فرد من أفراد المسلمين ، أما اليوم فلا يمكن ذلك .. وإنني أتمنى أن يتم جمع المسلمين وتوحيد كلمتهم ، وإنني لعلّى استعداد لأن أكون أنا وأسرتي كجندي بسيط أجاهد في هذا الشأن، وأن لا أدخر جهداً في سبيل توحيد بلادي ، وتوحيد كلمة العرب ، وتأسيس الوحدة بين العرب .. وإذا كنت أنا أسعى في ذلك فلست أريد من وراء ذلك جزاءً ولا شكوراً ، وإنما يهمني وأتمنى من صميم القلب أن يتم لمُ شعث المسلمين ، وأن يسالم بعضهم بعضاً ؛ فيكفوا الأذى بعضهم عن بعض .

وأنا مسلم عربي .. رأست قومي بعد مصاعب طويلة ولا فخر في ذلك .
وتسير الآن ورائي جيوش جرّارة لا تقل عن أربعمئة ألف مقاتل إن بكيّت بكوا، وإن
فرحت فرحوا، وإن أمرت نزلوا على إرادتي وأمري ، وإن نهيت انتهوا .. وهؤلاء هم
جنود التوحيد إخوان من أطاع الله ، يقاتلون ويجاهدون في سبيل الله ، ولا يريدون
من وراء ذلك إلا رضا^(١) الباري جل وعلا .. وإن هذه القوة هي موقوفة لتأييد
الشرعية، ونصرة الإسلام في الديار التي ولّاني الله أمرها: أعادي من عادى الله
ورسوله، وأصالح فيها من لا يعادينا ولا يناوئنا بسوء، وإني وجندي جنود في سبيل
جعل كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر .. نسأل الله أن يأخذ بيدنا ، ويوفقنا لما
يحبه ويرضاه»^(٢) .

قال أبو عبدالرحمن : وفي يوم الخميس ١٣ صفر سنة ١٣٦٥هـ كان الملك
عبدالعزیز رحمه الله في مصر ؛ فقال مخاطباً أعضاء الوفد المكوّن من مشايخ
العرب في مصر الذين قدموا للسلام عليه بقصر الزعفران : «إن جامعة الدول
العربية ليست بنت اليوم ؛ فقد فكّرنا فيها منذ زمن بعيد ، وقد كان يعرف ذلك أخي
المرحوم أحمد الباسل كما يعرفه البشير السعداوي» .. وإذا أعلنها عبدالعزيز فإنما
يعلنها عن أهلية أولاً ، وعن تجربة صادقة ثانياً ، وعن رؤية شاملة ثالثاً ؛ فأما
الأهلية فعبدالعزیز من أرومة الأمة العربية نسباً وبلداً ومنشأً، وتربية ، وهو الذي
وصل المنقطع من تاريخ دولة مسلمة صميمة العروبة والمنشأ ذات سبق في توحيد
العرب تحت راية الإسلام، وهو ذو الإجماع التاريخي على مواهبه العقلية وخصائصه

(١) رضا : مصدر بالقصر .. وإذا مد هكذا «رضاء» فهو اسم .. هكذا روى الأخفش .

(٢) مجلة الفتح العدد ٣٤٢ في ١٣٥٢/١/٢هـ ص ٤ - ٥ .

التي تتوزع عناصرها في عدد من المرموقين (وقلما انطوى عليها إهاب واحد) ..
والندرة في اجتماع الخصائص من أميز ملامح العبقرية .. وأما التجربة فقد فجّر
الجزيرة العربية - وليس فيها غير عربي - طيلة نصف قرن بانتصارات لا تزال
الأمّة تجني مكاسبها ، فقد انتهت آحاد الحكومات وعشرات الإمارات ، واتحدت
في دولة واحدة .. ووجّه هذا القائد العظيم فروسية العرب التي تُريق الدماء في
الرمال للنهب والسلب والنخوات القبلية؛ فجعلها جيشاً منظماً يحمل أعباء أمة
وهوموها .. وقبل توحيد عبدالعزيز للجزيرة ، وبعد نتائج الحرب الأهلية بين أبناء
الإمام فيصل ابن تركي رحمهم الله : مر بنجد - بل بالجزيرة - فترة من الإمارة
المستتبّة ، ولكن لم يعايشها تفكير حضاري .. أما عبدالعزيز الذي يعايش أبناء شعبه
بفكرهم ولهجتهم العامية أحياناً : فقد كان ينطلق من عقل حضاري ، وكلما فجّر
انتصاراً عسكرياً شفعه بتفجير حضاري ابتداءً بتهجير البادية وتعليمهم تعليماً
ابتدائياً ، وانتهاءً بإيجاد مناخ في رقعتنا العربية القاحلة الأمية .. إيجاداً تفجّر
عنه الوعي الثقافي ، والوعي بالعمل في كل مرفق من مرافق الحياة .

وليس الطريق أمام عبدالعزيز مما يُظنُّ أنه قابل للتعبيد؛ فقد كان يعتوره
ترمُّت غير الواعين أمام كل عمل حضاري ، ولكنّ تمكنه في الفقه الإسلامي،
ومعرفته بالأحكام الشرعية : مكنّ له جلالاً في المنطق ، وقوة في الحجة .

وكل من في الجزيرة يعرف أنه لا دعاية لعبدالعزيز غير دعاية الإسلام :
يتكيف مع ثوابته ، ويستثمر موهبته ومشورة ذوي الرأي في التكيف الحضاري وفق
سعة الإسلام ويسره ، ووفق ما جعله الإسلام لاجتهادنا في شؤون دنيانا .. فمن كل
هذا الواقع إضافة إلى تبصّر علماء الشريعة الذين حمّلهم عبدالعزيز أكثر الأعباء

التي هي من شرط الدولة الإسلامية : استطاع أن يزيل التزمت من النفوس بالحجة والإقناع حتى حولهم إلى خلايا حية .

ولا تُقاس الجزيرة بأي دولة عربية عرفت شيئاً من الوعي الثقافي كمصر التي عرفت الحضارة منذ عام ١٧٩٨م .. وفي أقل من نصف قرن بدت جزيرتنا وكأنها تُدَلُّ بخبرة قرون طويلة ؛ ولهذا لا يعتقد أبناء الجزيرة أن عبدالعزيز ملك المملوك : عبر في حياتهم ، وطويت صفحته مشكورة ؛ لحفظه النظام وإقامة العدل فحسب .. إن هذا أقل منة يعترفون بها لعبدالعزیز ، والمنة لله أولاً .. أما الأهم فهو أنهم يعتبرونه أستاذاً لهم ؛ فلولا الله ثم عقل عبدالعزيز الحضاري لكان من المتوقع أن نضل على حرف آبائنا البدائية ، وعلى أميتهم وعاميتهم .. وهم يعتبرونه أباً حنوناً ؛ لأن إقامته للأمن الذي تلاشى نهائياً ، ورده للحكومة الإسلامية إيجابيتها ، وإتاحته فرص العمل للكادحين .. كل ذلك جعل لكل أسرة بناءً كريماً صحيحاً شريفاً .. وهم يعتبرونه باعث طمأنينة للأمة على رأس القرن الرابع عشر بعد طول ضياع وعذاب ، وهذا من المبشّر به في الشرع عمن يجدد للأمة أمر دينها ، وعن قيام طائفة على الحق منصوره ؛ ففي نصاب الشرع عبدالعزيز رجل علم وعمل .. وكون الحاكم عليمًا بأحكام الشرع : ذا أثر عظيم في صلاح الأجهزة ومراقبتها ؛ ولهذا كان الفقه في الدين من أهلية الحاكم في الفقه الإسلامي .

وأما الرؤية فكان عبدالعزيز ذا وعي تام بأعباء الأمة الواقعة وراء جغرافية دولته التي لا يملك لها إلا ما يملكه الشقيق الذكي من بث الوعي والتبصير .. والعروبة والوطنية في تفكير عبدالعزيز نتيجة حتمية إذا كانت الدعاية للإسلام حيث لا يفلح عربي إلا خلف نبي .. وأصدق نجاح للعروبة والوطنية - منذ أنخمنّا

بهذين الشعارين - هو هذه النتيجة لما جدهه عبدالعزيز من عهد الدولة الإسلامية؛
فعروبة الجزيرة أخلص عروبة عرفت لصفائها من خليط العرق والمذهب.. ووطنيتها
أصدق ؛ لأنها دولة واحدة ، وجغرافية واحدة، وتاريخ واحد، وبيئة واحدة .. وواقعها
هو المعقول لواقع القومية والعربية ؛ لأن الولاء للإسلام وأهله هو المعيار لصحة
العروبة ، ولأن الصدق في جعل الإسلام واقعاً عملياً هو المحك لصدق الوطنية ؛
فحرارة الولاء للوطن بقدر ما يكون دار إسلام .

لقد عمل عبدالعزيز للوحدة العربية منذ عام ١٩٤٢م ، وتبادل الزيارات مع
حاكم مصر لهذا الغرض ، وعبر عن غبطته باجتماع رضوى في خطاب وجهه إلى
شعبه في يناير سنة ١٩٤٦م .

وعصر عبدالعزيز أسوأ ظروف العرب ، وهو ربيع حياة عبدالعزيز في
توحيد الجزيرة والنهوض بها .. ومع سوء الظروف خارج خريطة الجزيرة فقد أبقى
التاريخ لعبدالعزیز الصدق والحصافة في مشاركاته السياسية تجاه مفهوم الجامعة ،
وقضية فلسطين ، وسورية الكبرى .. ولا يزال يذكر له التاريخ شرف الموقف ونزاهة
النية حيال أعباء الأمة وقضاياها .

الملك عبد العزيز - رحمه الله -

وخصائص الدولة ، والقائد ، والدين ، والرقعة ، والأمة

[٣ - ٥]

أبو

عبد الرحمن

ابن عقيل

الظاهري*

* محمد بن عمر

ابن عبد الرحمن

العقيل .

- ماجستير من

المعهد العالي

للقضاء في

التفسير ، وله

مشاركات كثيرة

في التأليف

والمقالة والإذاعة .

وعضو مجمع

اللغة العربية

بالقاهرة ،

ورئيس الشؤون

الثقافية بجمعية

الثقافة والفنون ،

ورئيس تحرير

مجلة التوباد ،

وأول رئيس

للنادي الأدبي

بالرياض .

من خصائص عبد العزيز التاريخية وبعض أعماله الإيجابية:

لقد ألمحت إلى أن اجتماع الخصائص مقياس الندرة في العبقرية، وهذا ملمح جذاب لكل من تناول تاريخ عبد العزيز من عربي وأجنبي ؛ فهذه الجاذبية جعلتهم يعبرون بأسلوب أدبي فني بعيد عن جفاف المؤرخ (ولا سيما الذين شاهدوه من الأجانب) .. واحتواء الشخصية الجذابة بمثل تلك الأساليب الفنية يعني صدق الواقع الذي يُنطق الأصم .. اسمعوا ما قاله الرحالة الإنجليزي كنت دليمز: «ومن النادر أن تجد رجلاً تجمعت فيه المزايا التي تجمعت في عبد العزيز^(١) ؛ فهو جندي موفق ظافر، ومصلح مبدع مبتكر، وتقي ورع صالح، وإنساني لطيف مهذب، وجواد سخي سمح، وراسخ وطيد متين، وذكي حذق لبيب، وشجاع جريئ

(١) قال أبو عبد الرحمن : ههنا تقدم علامة التفريع « ؛ » على علامة

التقسيم « : » .

الطبعة

السنة السابعة

العددان: السابع والثامن والعشرون

رمضان - ذو الحجة ١٤٢٥هـ

أكتوبر ٢٠٠٤م - يناير ٢٠٠٥م

مقتحم .. وفوق كل هذا نبيل في تواضعه ، نبيل في احتشامه» (١) .

ورؤية عبدالعزيز التي أسلفتها - المنبثقة من نشأته وتاريخ أجداده - أعلنها في وقت مبكر إعلان الفقيه المجتهد : فقال (رحمه الله ، وجزاه عنا خيراً) في تموز سنة ١٩٢٤م مخاطباً وفدًا من علماء الهند : «أعترف أمام الله وأمام كل المسلمين بأنني لا أريد إلا العودة إلى دين الإسلام الصحيح البعيد عن العقائد الوثنية التي ليست من الإسلام في شيء، وأننا نعود في كل شيء لأحكام القرآن الكريم وللسنة، ونحاول أن نعيش كما عاش الخلفاء الراشدون .. وكل ما نطمح فيه أن يتحد العلماء المسلمون اتحاداً قوياً متيناً، وأن يخضع العالم الإسلامي خضوعاً تاماً لأحكام القرآن والسنة» .. إن عبدالعزيز داخل دولته وخارجها جمع بين حسن العمل وحسن النية والطموح ، ولقي رباً كريماً جواداً رحمياً لن يبغسه عمله ، وندعو الله أن يضاعف أجره ، وأن يعامله بإحسانه . وكان رحمه الله من رواد الجامعة الإسلامية منذ المؤتمر الذي دعا إلى عقده بمكة المكرمة في حزيران سنة ١٩٢٦م .. ومن المؤلف - في تفكير العصر .. ودعك من الواقع العملي - : أن عنصر الأخلاق في السياسة ضعيف جداً ، ولكن التاريخ شهد بأن عبدالعزيز يأسره شرف الكلمة ، ووازع الخلق والدين ؛ فقد كان كريماً مع جيرانه، وفيأ لمعاهديه .. يصبر صبر من منحه الله القدرة حتى يبلغ العذر .. صبر على مالا يرضيه التزاماً بما أمضاه على نفسه من عهد ووعد في مصالحات الحرب، وأرجأ حسم بعض المواقف والمعكرات رجاء صلاح الحال .

والميزة الرابعة (٢) من ميزات الدور الثالث وقائده الملك عبدالعزيز رحمه الله خصيصةٌ لذات القائد استلمحها الشاعر ابن عثيمين بقوله :

(١) ابن سعود سيد نجد وملك الحجاز ص ١٤ - ١٥ .

(٢) مضت الميزة الثالثة .

خبينة الله في الأكوان أظهرها

وللمهمين في تأخيرها شان

إن عبدالعزيز بخصائصه الفردية والتاريخية التي أهّلته للقيادة هو مجموع المواصفات التي تريدها الأمة لِمَلء الفراغ باستعادة تاريخ محبوب محبوب يحنون إليه على الرغم من أن آخر عهدهم به حرب أهلية أكلت الأخضر واليابس ؛ وبهذا يبعد اعتبار استيلاء عبدالعزيز على الرياض مجرد مغامرة شابٍّ يائس في عملية فدائية انتحارية ؛ بل هو مغامرة شجاعة من شديد الوثوق بالله ثم بال جماهير التي تعيش حيناً مكبوتاً .. وحسبك بخصائص عبدالعزيز الفردية أن في أبطال المغامرة من هو أسن منه ويشاركه في الإرث.. إن حادثة المصمك ، وفتح الرياض أعجوبة بلا ريب ؛ ولكنها ليست مبتورة من سياقها التاريخي الحقيقي الذي يجعل صورتها تصور أسطورة لمغامرة صبي راهن على حياته وحياة رفاقه في احتلال العاصمة الثانية لآل رشيد .. وهم قلة .. كلا .. إن عبدالعزيز في طور الفتوة وليس صبياً .. ولم يأت برفاقه القلة لمحاربة الرياض المدينة ، وإنما جاء للقضاء على عمال ابن رشيد الذين هم في الرياض قلة واثقاً بأن أهل العارض كلهم ومن يليهم جنده ؛ لأنه لم يأت إليهم طارئاً ، وإنما جاء ممثلاً للتاريخ الذي قلت : إنه التاريخ الحبيب المحبوب الذي يحن إليه أهل نجد .. ولا سيما وسطها وجنوبها .

ومن البدهي أن مَنَّ التاريخ البشري يعني الأحداث التي يصنعها البشر، أو الأقدار التي يجريها الله عليهم في كوكبهم .. ^(١) ويُراعى فيها أنها غير رتيبة ولا يومية عادية في حياتهم ؛ فطلوع الشمس من مشرقها يومياً ليس حدثاً تاريخياً،

(١) ما بعد النقطتين قيد لما قبلهما ، وقد قررت في مباحثي عن علامات الترقيم أنه لا يُفصل بالشولة بين الجملة وقيدها .

ولكنَّ كسوفها حدث تاريخي .. وما استجد في حياة المجتمع من سكون أو فوضى حدث تاريخي، وما استجد في حياة الفرد من ولادة ولد أو موت والد حدث تاريخي تزداد أهميته بمقدار أثره في المجتمع .. واللب للمتن التاريخي أحداث الحرب والسلم والاقتصاد والثقافة في حياة الدول والمجتمعات .

ولا خلاف في أن للمتغيّرات التاريخية بواعث وعوامل مادية ومعنوية وقدرية .. وإنما الخلاف في الفرد التاريخي «البطل» هل هو أحد البواعث والعوامل في المتغيّر التاريخي أم لا ؟!.. وفردية عبدالعزيز تتكون من الخصائص التالية:

١ - أنه ليس طارئاً على الغاية التي سعى من أجلها؛ بل هو سليل الوراثة لبُناة تاريخ بلاده .. وهذه خصيصة ساعدته في تسهيل مهمته .. ولو جاء عبقرى في حجم عبدالعزيز ليست له هذه الدالة التاريخية لتعذرت مهمته أو تعسرت.

٢ - أنه عاين ساعات التأرجح في تاريخ بيته بأم عينه، وذاق في أول وعيه ونمو مداركه ومواهبه مرارة الغبن والظلم، وأبكى قلبه مصاب والده، وعمه عبدالله، وأبناء عمه، ورأى أن السياسة لا أخلاق لها، وأن العامل بالأمس للدولة، والمتشرّف بالولاء لها : يعمل بجدّ وأمانة لبناء مجده هو، والتنكر لمن أوصلوه لِسُدَّة^(١) المسؤولية .. وحَفِظَ مشاهدةً بالسند الصحيح المتصل عن أبيه وأخيه

(١) السُدَّة تعني في استعمال المعاصرين القمة والمنتهى والتوسط الذي يعني الإحاطة .. ولكل هذا أصل من اللغة كما يبين من هذا السياق للزيدي .. قال في تاج العروس ١١/٥ : «والسدة بالضم باب الدار والبيت كما في التهذيب .. يقال : رأيته قاعداً بسدة بابه ، وبسدة داره . وقيل .. هي السقيفة .. وقال أبو سعيد : السدة في كلام العرب : الفناء .. يقال لبيت الشعر وما أشبهه .. والذين تكلموا بالسدة لم يكونوا أصحاب أبنية ولا مدر ، ومن جعل السدة كالصفة ، أو كالسقيفة ؛ فإنما فسّره على مذهب أهل الحضر . وقال أبو عمرو : السدة كالصُفَّة تكون بين يدي البيت ، والظلة تكون لباب الدار .. جمعها سُدَد بضم ففتح .. وفي بعض النسخ: بضمّتين .

وعمه وأخته وعمته وأبناء عمه وحاشية أهله : عن جده الأقرب : عن جده الأعلى كلّ تاريخه المحلي ومتغيراته بما فيها من إيجابيات وسلبيات .
وليس مُعاشُ التاريخ الراضعُ لبانه كمن يتحرّاه بصيغ التمرّيز الشفهية ،
والفلتات المكتوبة .

٢ - الوعي السياسي الفريد للمتغيرات في العالم بين مجتمع عامي ، وزعامات محلية ، وزعامات مجاورة لا تعي بالمتغير العالمي بإطلاق ، أو يكون وعيها مبسّراً بأقل من مقدار الحاجة !! .

قال الدبلوماسي البريطاني السير ريدر بولارد: «إن أهم صفة تثير الاهتمام في الملك عبدالعزيز كانت حكمته السياسية، وقد مارسها أولاً مع رجال العشائر المتشبهين برأيهم المستعجلين، ثم نمت مع اتساع مسؤولياته ؛ حتى أصبحت قادرة على مواجهة أي موقف ، وكان يتابع العلاقات الدولية عن كثب .. وفي الثلاثينيات كان يُعير اهتماماً للإذاعات العربية في لندن والقاهرة وإيطاليا وألمانيا، وكانت هذه

== وفي حديث أبي الدرداء [رضي الله عنه] : أنه أتى باب معاوية [رضي الله عنه] فلم يأذن له .. فقال : من يَغشُ سَدَّ السلطان يَقم ويقعد .

وسدة المسجد الأعظم ما حوله من الرواق .. وسمي أبو محمد إسماعيل بن عبدالرحمن الأعور الكوفي التابعي المشهور السدي (روى عن أنس، وابن عباس ، وغيرهما - رضي الله عنهم -) : لبّيعه المقانع والخُمُر على باب مسجد الكوفة .. وفي الصحاح : في سدة مسجد الكوفة ، وهي ما يَبقى من الطاق المسدود .. قال أبو عبيد : وبعضهم يجعل السدة الباب نفسه ، ومنه حديث أم سلمة [رضي الله عنها] : أنها قالت لعائشة [رضي الله عنها] لما أرادت الخروج إلى البصرة : إنك سدة بين رسول الله ﷺ وبين أمته .. أي باب .
وقال الذهبي : لقعوده في باب جامع الكوفة [يعني نسبة إسماعيل السُدي] .. وقال الليث : السدي رجل منسوب إلى قبيلة من اليمن .. قال الأزهري : إن أراد إسماعيل السدي فقد غلط .. لا يعرف في قبائل اليمن سد ولا سدة .. وأغرب أبو الفتح اليعمري ؛ فقال : كان يجلس في المدينة في مكان يقال له : السد ؛ فنسب إليه» .

تُلْتَقَطُ وتسجل له كتابة، ثم تُقْرَأُ له بعد صلاة المغرب، وكان يسمى هذه «التايمس» الخاصة به .. وبها وبوسائل أخرى (خاصة قصاصات الصحف التي تصل من ممثليه في الخارج) : كان يتمكن من الإحاطة بالشؤون الدولية أفضل مما كان يستطيعه الكثيرون من الأوروبيين المتعلمين .

ويؤكد المعنى نفسه الوزير الأمريكي المفوض برت فيش ؛ فيقول : « أثارت إعجابي إحاطته بالمسائل الدولية ؛ حتى لكأنه في وسط الجو الأوروبي، وفي محيط السياسة العالمية .

ومع الدهاء الذي تقتضيه الدبلوماسية والتعامل الدولي فقد قدم عبدالعزيز قيمه الإسلامية ؛ فلم يسمح لنفسه أن يكذب قط ؛ بل كان يقول ما يمكن أن يقال صدقاً ، ويسكت عما لا يحب قوله .. وهذا منتهى الحكمة والسياسة والأخلاق » .

ويقول مندوب شركة أولشتاين الدكتور فون وايزل بعد أن زار الملك عبدالعزيز للمرة الثانية ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م : « وفي ابن سعود ميزة أخرى ، وهي أنه كريم صادق ، وقد جادلته مرتين في شؤون مختلفة كان بعضها دقيقاً جداً ؛ فلم ألحظ أنه يلبس الباطل ثوب الحق .. كان سياسياً أحياناً في أجوبته ؛ فلا يقول كل ما يعرفه، ولكنه لم يتلفظ بكلمة واحدة غير صادقة .. والظاهر أن هذا شأنه مع الجميع ؛ لأنني لما قابلت القناصل الأجانب في جدة قالوا لي : « إذا قال لك ابن سعود شيئاً فتق أنه يقول لك الحقيقة التي لا تشوبها شائبة » .

ويشبه النمساوي د فون وايزل الملك عبدالعزيز بِمُنَشِيّ الوحدة الألمانية بسمارك ؛ فيقول : « حسبي أن أقول : إني معجب به ؛ فقد خيّل إليّ وأنا أحادثه أنني أمام بسمارك مُنَشِيّ الوحدة الألمانية، ولا أظنكم تخالون أنني أبالغ في القول » .

ويقول الرحالة الأمريكي كينث وليمز مبيّناً ثقة ابن سعود في قدرته

السياسية : «كان للصلات الطيبة بين الإنجليز وابن سعود ثمرتها في شتاء ١٩١٣ - ١٩١٤م : فقد تمت هذه المعاهدة بين الإمبراطورية البريطانية وابن سعود .. هذه المعاهدة التي عرف كيف ينتفع بها في صد الخصوم عنه ، وقد استعان عند وضعها بحذقه السياسي واختباراته الشخصية ، وكان يقول : إنه في وسعه تجديد هذه المعاهدة تجديداً مستمراً إلى أن تتمشى مع كل مطامحه وأحلامه ، وإلى أن تنطبق على كل رغائبه ومراميه ، وأنه قد اتصل مع الإنجليز ، وأصبحت له سلطة على البحار والمدن الساحلية : فلا مناص من أن يكون سياسياً أدهى من الإنجليز» .

وفي شهادة أخرى له يقول وليمز: أؤكِّدُ بلا أي تحفظ أن نجاح الملك عبدالعزيز المستمر، ورزاقته، وحكمته هي أمور تُقدَّر في بريطانيا كل التقدير؛ فالملك كما لاحظ لأول وهلة كل من الرئيس روزفلت والمستر تشرشل (وكلاهما لا يستهان بحكمه) : هو من أبرز رجال هذا العصر ، وحصن من حصون العالم الحديث»^(١) .

٤ - الجبلية الفردية الأبية لشخصية بُنِيَتْ على الطموح، وعدم الرضى بالعيش - لو كان راغداً - عوضاً عن المجد الأسري ، والاستعداد الفردي .. وهو إباء وطموح يبلغ أقصى المدى إذا علمنا أن عيشه لم يكن راغداً، وأنه : في تطويع بين قبائل شرق الجزيرة وزعامات الساحل ، وعطاء مقطَّع بشرط المنة والمساومة .. بل كان والده الإمام عبدالرحمن في فاقة شديدة في الوقت الذي كان فيه لأخيه عبدالله وأبناء أخيه سعود قليل من الأمر قبل مغادرتهم دار ملكهم^(٢) .

ثمار الحق التاريخي :

قال أبو عبدالرحمن : دارس التاريخ يحلّ وحرية في أن ينظر إلى عبدالعزيز بادئ ذي بدء على أن باعث حركته هموم فردية ، ونفع شخصي ؛ لأنه خرج من رقعة

(١) كل النصوص الخمسة من كتاب الملك عبدالعزيز رؤية عالمية ص ٥١٢ - ٥١٦ .

(٢) انظر الحاشية آخر البحث رقم (٤) .

ذات تاريخ جهوري يديرها أجداده إلى جده القريب فيصل : فعمه عبدالله ، فعمه سعود ، فأبوه ، وأبناء عمه سعود .. خرج من هذا العز الباذخ ، والمجد الشامخ مجرداً مسلوباً لا يملك قوت يومه !! .. ليس على الدارس أن يشعر هذا الشعور ما دام عبدالعزيز غادر بلاده في هذا المناخ التاريخي ، وما دام تغيير هذا المناخ هو مطلبه .. ولكن حركة عبدالعزيز جهاد استمر نصف قرن ، ويصحب كل نصر جزئي تغيير وإصلاح ، ثم بعد الجهاد المستمر استقرت الأوضاع على نفع جماعي ، وإزالة هموم اجتماعية .. إذن انكشفت النية بأنها بريئة من كل نزعة أنانية ، وكثيراً ما ردّد عبدالعزيز المثل العامي المشهور : «السيرة تُبيّن السريرة» كما أسلفت ذلك ، ومن بيان السريرة ما ذكره معالي الدكتور عبدالعزيز الخويطر .. قال حفظه الله عن أسباب حب الرعية لعبدالعزیز: «أما حب شعبه له فمن منطلق اعترافهم بالفضل الذي ساقه الله لهم على يديه؛ فأمنوا بعد الخوف، واغتتوا بعد الفقر ، وتعلموا بعد الجهل . ولقد آخى رحمه الله بينهم بعد أن كانوا متناحرين ، وقرب بينهم بعد أن كانوا متباعدين ، وجعل منهم أمة واحدة متماسكة .. أحبه أولئك الذين عاصروا عهد الخوف ، وانعدام الأمان .. ذلك العهد الذي كان لا يستطيع فيه المرء الانتقال من بلد إلى بلد إلا تحت راية حرب، ولا يسلم فيه بلد من غارة قوي على ضعيف في اجتياح يأكل الأخضر واليابس دون خوف من الله ولا وجل .. وكان هذا بسبب ضعف الحكم المركزي ، وتقسيم المناطق إلى قوى مفتعلة أنهكت الناس ، وأرعبتهم، وأياستهم من حياة هائلة كريمة ؛ ولهذا لما نصره الله ، وأخذ بيده ، ورأوا ما كسبوا على يده: أحبوه ، واستماتوا معه في سعيه لإقرار الأمن ، وزرع الطمأنينة ، والقضاء على الفوضى التي كانت سائدة ، والحياة المزرية التي كان يحيها الناس .

ومن أراد أن يعرف ما كانت عليه الحال في تلك الحقب السوداء، والأزمان

الداكنة : فليرجع إلى كتاب الكاتب المعروف محمد بن عبدالله بن بليهد ^(١) : ففيه ثلاث مذكرات ، وسيرى نموذجاً مختصراً لتلك الحياة التعسة التي كان الناس يحيونها في ظل الفوضى ، واختفاء الأمن ، والعبث السائد ، وعدم وجود حكومة مسيطرة حكيمة ^(٢) .

قال أبو عبد الرحمن : وعن هذه الحالة قال الدكتور نفسه : «وكان الأمن مفقوداً داخل المدن ، والطرق مخوفة ، وكان المسافرون لا يسافرون إلا جماعات ؛ خوفاً من سطوة القبائل ، وتعديهم .. وكان من يحج ويعود يُعتبر مولوداً جديداً ؛ لأن السرقة والنهب متركز على طريق الحاج ، وتكاد تكون حياة أهل الصحارى التي تمر بها الحجاج قائمة على نهب الحجاج وسرقتهم .. حتى أن ^(٣) أمير الحاج يأتي معه بِسَرِيَّةٍ مستعدة ، ومع هذا فأطراف القافلة لا تسلم من النهب والاعتراض .. وكانت الحال الاقتصادية في وضع سيئ ^(٤)؛ لعدم انتظام تبادل السلع، وبيع المحصول .. وكان المحصول نفسه يتعرض للأذى ؛ نتيجة الوقائع التي تقوم بين البادية والحاضرة ، وبين الحاضرة أنفسهم ؛ مما جعل الناس في شظف من العيش يبحثون عنه في أبسط صوره ، وكثرت الهجرات إلى الهند والعراق والشام ؛ لطلب الرزق ، والبحث عن الأمان والسلامة أحياناً .. واقتصر التعليم على أبسط صوره من التعليم الديني ، ولم يكن الوقت يسمح بالتعمق فيه إلا لأفراد قلائل .. كانوا سرج المجتمع

(١) صحيح الأخبار ٢٧٢/٥ فما بعدها [الخويطر] .

(٢) يوم وملك ص ١٤٢ - ١٤٤ .

(٣) همزة «أن» مفتوحة ؛ لأن ما قبلها حرف جر يعني بلوغ الغاية .

(٤) الرسم المعتاد «سيئ» .. وإنما تُرَجَّح النبرة في مثل «جزئية» ؛ لجمال اتصال حروف الكلمة، وههنا الرسم الصحيح الأرجح رسم صورة الحرف كاملة كما أثبتته .

في ظلمة كانت مسيطرة ، وكان طالب العلم يرحل بعيداً عن وطنه طلباً للعلم ، وبحثاً عن مظانه .. يتحمل المشاق والغربة في سبيل ذلك» (١) .

وقال عن دوره رحمه الله في حماية الرعية من الأذى : «كان يحمي الرعية من الأذى ، يأخذ على يد العابث، ويزن ظرف المذنب معه قسوةً وليناً.. قد يتساهل إن كان الأمر دون الأذى العام ، ودون حدود الله، ويتشدد إذا خشي أن يكون الذنب ظاهرة ربما تتفشى، أو أن التساهل قد يغري بالاقتداء السيئ، أو التماذي في هذا الجانب، ويهتم لأمر يظنه غيره صغيراً ؛ لأنه مسؤولٌ يدرك مالا يدركه غيره، ويفض النظر عن أمر يعجب من حوله ؛ لتجاهله له» (٢) .

قال أبو عبدالرحمن : ومن نماذج إصلاحه - على الرغم من ضيق ذات اليد ، وشح الموارد - ما تحدث به الدكتور عبدالله محمد المكي صاحب ومدير جريدة صوت الحق في بومبي ، ومؤلف كتاب تاريخ الهند العام .. قال : «وقيّض الله لنا نحن في الحجاز حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز الفيصل آل سعود ؛ فسار بالأمة العربية سيراً حكيماً ، وتمكن بتوفيق الله تعالى من تقليص ظلٍ كثيرٍ من الخرافات والبدع في المملكة العربية السعودية ، ونشر لواء العدل والأمان في طول البلاد وعرضها ، ونال شرف خدمة الحرمين الشريفين (٣) ، وأرسل البعثات العلمية إلى الخارج بقدر ما سمحت به الظروف ، ورجع بعضهم يحمل شهادة الكفاءة والنجاح .. وهذا مما يشرح الصدور ، ويسر خواطر المسلمين أجمعين .. ووجه عنايته الكبرى نحو توفير الراحة لوفود بيت الله الحرام ، وزوّار مسجد المصطفى

(١) يوم وملك ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) يوم وملك ص ٦٦ - ٦٧ .

(٣) قال أبو عبدالرحمن : والآن أصبح أول لقب رسمي للملك المفدى فهد أيده الله .

عليه أفضل التحية وأزكى السلام : فأقام لهم وسائل الصحة ومظلات تقيهم الحر والبرد أثناء الطريق ، ووفر لهم الماء ، وجعل لهم مراكز لإسعاف المرضى بالأدوية الضرورية مجاناً ، ووضع نظاماً خاصاً للمطوفين وما يتبعهم تعميماً لراحة الحجاج .. ونحن حديثو عهد بما كانت عليه الحال في الحكومات السابقة ، وكانت الفوضى مضرب المثل في الحجاز ؛ فصلحت الآن بقدر ما تسمح به الحال ، وأصدرت حكومة جلالته رسالة طبعتها بمكة المكرمة في أغلب اللغات الشرقية ، وهي بمثابة دليل للحاج يجد فيها كل ما يحتاج إليه أثناء إقامته بالحجاز ، وهذه مآثرة جليلة لها قدرها» (١) .

وقال الدكتور محمود بك حمدي حمودة (الذي سمّته مجلة الفتح وزير الصحة بالحجاز) في حديث صرّح به لجريدة الأيام الدمشقية - وقد زار وطنه دمشق ، وسألته عن الأوضاع الصحية في الحجاز - : «دخلت جيوش جلالته الملك عبدالعزيز السعود الحجاز ، وكنت مع الجيش الفاتح ؛ ففوّض جلالته إليّ الإشراف على إدارة الصحة والإسعاف ؛ فوجدت أن البلاد بحاجة إلى كل شيء ، وليس هنالك عمل إلا الجزئي البسيط .. وكان في مكة مستشفى فيه عدة غرف من الورق استُحضر في زمن مدير الصحة الحجازية أيام الترك قاسم بك عز الدين ، وهي لا تردُّ حرّاً ولا تدفع قرّاً .. وينقصه شيء كثير من الأدوات والآلات الفنية والأسرّة للمرضى والأبنية اللازمة ؛ فكان أول ما انصرفت العناية إليه زيادة الأبنية ؛ لإيواء المرضى من الحجاج وأبناء البلاد ، وتوفير الآلات والأدوات الفنية المطلوبة ، واستحضار العقاقير والأدوية اللازمة، وإنشاء الفروع الضرورية لمختلف الأمراض .. وكان الحجاز حتى ذلك العهد لا يعرف البلاط المصنوع ؛ بل إن أراضي الغرف جميعها من الطبباط

(١) مجلة الفتح العدد ٢٢٧ في ١٥/٩/١٣٥١هـ ص ١١ و ١٤ .

(المصنوع من رماد قصر الملك) .. وهذا لا يصح أن يكون في مستشفى أو غرفة جراحية على الأخص ؛ فاستحضرنا معملاً خاصاً لصنع البلاط ، وورصفنا به جميع الغرف القديمة والمستحدثة ، ووسعنا المستشفى ببناء جناح كبير فيه، وإزالة جميع الغرف التي كانت مبنية من الكرتون .

وكاد يتم الآن الجناحان اللذان تبرع بإنشائهما - على الطراز الفني الحديث - المثري المعروف الحاج مصطفى بك عز الدين أحد أعيان طرابلس الشام ، وخُصِّص أحدهما بشعبة أشعة رونتكن (X) وما يتعلق بها ، وخص الجناح الثاني بشعبة الجراحة والأمراض النسائية .. ووضعنا أساساً لمستشفى كبير في ظاهر مكة ، وفي أفضل مكان من الناحية الصحية وجودة المناخ .. ^(١) وإني أؤمل أن يكون هذا المستشفى هو المركز الرئيس لجميع مستشفيات الحكومة في المستقبل .

وكان للحكومة في منى وعرفات مستشفى واحد صغير وقديم من بقايا عهد الترك يُتخذ مركزاً لتداوي المرضى من الحجاج ، وللأعمال الصحية ؛ فقمنا بإنشاء مراكز صحية تبدأ في مكة ، وتنتهي في عرفات .. وهذه المراكز صنعت من الخشب ؛ ليجد الحجاج ما يستظلون به من الحر ، وفي كل مركز طبيب وممرضون والعقاقير اللازمة للإسعافات الضرورية ، كما يجد فيها الحاج الماء الكافي يبل به غليله ، وكل مركز من هذه المراكز يقوم بعمل صحي كامل .

وبهذه الوسيلة أصبح الحجاج يستفيدون من مراجعة الطبيب حالاً، وتستفيد إدارة الصحة من الاطلاع على حالة الحجيج الصحية، وعلى كل ما يحدث من الوقائع الصحية كضربات الشمس وسواها بين مكة وعرفات، ويبلغ عدد هذه المراكز ثمانية.. يبدأ العمل فيها من السادس من ذي الحجة حتى آخر موسم الحج ..

(١) النقطتان لاستئناف الكلام ، وشغل بقية السطر بدلاً من ختمه بنقطة وابتداء سطر جديد .

وجعلنا في عرفات نفسها مركزاً صحياً كبيراً مجهزاً بالأطباء والصيادلة والمرضى وجميع العقاقير ، وهذا المركز يُرسل هيئات صحية لمراقبة الحالة في مخيم الحجاج، وإجراء الإسعافات الواجبة .

وفي مكة مستشفى غير المستشفى المركزي يسمى «مستشفى القبان» أو «المستشفى الأهلي» يقوم بالخدمات الصحية ، ويكون فيه في غير الموسم طبيب وصيدلي وكل ما يُحتاج إليه من الأدوية ؛ وحباً لراحة الحجاج ، ومنعاً للحوادث الكثيرة التي كانت تقع بين مكة وجدة، ولداواة البدو والأهلين في غير الموسم : قامت حكومة جلالة الملك ببناء مستشفى في «بحرة» يستوعب ٥٠ سريراً ، وحُفِر فيه بئر ماء تتضح ماء عذباً غزيراً .. وبهذه الوسيلة أمكن إنشاء سبيل كثير لسقاية الحجاج ، وغرس حديقة حول المستشفى .

وفي جدة مستشفى لا بأس به وبموقعه، وقد قمنا بترميمه وإصلاحه؛ ليكون كالمستشفيات الحديثة، وأسَّسنا فيه شعبة خاصة للجراحين وأنواع اللقاح.

وفي جدة أيضاً مصلحة الصحة البحرية والكرنيتينات، وأمام جدة جزيرة صغيرة هي «جزيرة أبو سعد» فيها مصح كبير .. وقد ألفت الحكومة هيئة صحية فنية عند استيلائها على الحجاز كشفت على هذا المصح، وشاهدت جميع نواقصه، وأمر جلالة الملك حالاً باستكمالها .. وهذا المصح مستعد أتم استعداد في حالة ظهور مرض من الأمراض السارية لإجراء جميع الأعمال الفنية من تطهير وغيره مهما كانت؛ لأنه جُهِّز بجميع الأدوات والآلات الفنية الحديثة.

وأقمنا مركزاً صحياً في «ينبع»، ومثله في «الوجه» شمالاً، وفي «القنفذة»، و«جيزان» من بلاد عسير جنوباً^(١) .. وفي «الطائف» مستشفى ومركز صحي يقوم

(١) إنما هي من بلاد المخلاف السليماني .

بمداواة المرضى من الأهلين وإيوائهم ، وبإسعاف الحجاج القادمين من اليمن .
أما المدينة المنورة ففيها مستشفى كبير ، وأسسنا فيها مراكز صحية أيام زيارة
الروضة النبوية المطهرة ، وأسسنا أيضاً خارج المدينة مركزاً صحياً للمراقبة إبَّان
وجود حجٍّ برِّيٍّ .

أما نجد فأننا أول طبيب موظف أقام فيها، وفيها اليوم مراكز صحية في
الرياض والحسا والقطيف .. هذا عدا البعثة الطبية التي ترافق الركب الملكي في
تنقلاته في أنحاء نجد، والأهلون يُقبلون على التداوي أعظم إقبال^(١).

قال أبو عبدالرحمن : وفي أحد تذييلات كشك عزا إلى بعض الدراسات
الحديثة الزعم بأن بداية أمر عبدالعزيز كانت بلا هدف ديني ؛ بل لطلب ملك
أجداده .. ثم عقب بأن عبدالعزيز اكتشف فيما بعد دوره الحقيقي ! .

قال أبو عبدالرحمن: يصح هذا الزعم لو لم يكن مُلك أجداده هو أهم
الأهداف الدينية ، ويصح هذا الزعم لو أن عبدالعزيز اكتفى بكرسي الزعامة ،
وحكم حكماً عشائرياً ، وتخلّى عن الأهداف التي قام عليها امتداد تاريخ أجداده ..
ولقد وُجد من الأبالسة العوام من يشير على عبدالعزيز بأن لا يُعلّم شعبه ؛ حتى لا
يطمح ؛ ليبقى الجهل والتخلف عاملَ خنوع كما حصل في بعض البلاد المجاورة ..
ولكن عبدالعزيز في سباق مع الزمن .. يشفع كل نصر عسكري بتمدين للمجتمع ،
ونشرٍ للتعليم على مختلف مستوياته ومظاهره من الكتاتيب إلى المدارس النظامية ؛
بل كان يبعث لأهل القرى من يقنعهم بابتعاث أولادهم للتعليم ، وكان في أوقافه
وأوقاف أجداده ريع للتعليم .. بل كانت دور الأيتام موجودة في عهد الإمام فيصل
ابن تركي رحمهما الله .. فلما أفاء الله عليه لم يجعل التعليم مجانياً فحسب ؛ بل

(١) مجلة الفتح العدد ٣١٤ في ١٣/٦/١٣٥١ هـ ص ١٢ - ١٣ .

وضع له الحوافز والمغريات مادياً ومعنوياً .. إن جهاده في فرض التعليم على الأميين العوام الذين يريدون أولادهم للحرف البدائية في مستوى جهاده العسكري .. نضر الله ذلك الوجه ، ورحم شيبته ، ونور ضريحه ؛ فلولا الله ثم عبدالعزيز لبقينا على حرف الآباء الساذجة ، ولبقينا في ظلمة الجهل .. فهل من شاكر أبوة هذا الزعيم القائم لنا مقام الأب والأستاذ ؟ .. كان في آخر حياته يُدْفُّ على عربية وقد أَوْ لَمْ لطلبة العلم ، وكان يستقبلهم إلى المائدة ، وكان مما حفظ لي شيخي محمد بن عبد الرحمن بن داوود رحمه الله قوله : يا عيالي قمت إن شاء الله بما يجب عليّ ، وأدّى أبأؤكم دورهم في الجهاد ، وبقي دوركم أنتم في تحصيل العلم وتعليمه اه .. ولا يخلو زعيم من مناوئ، ومن شائئ له بحق أو بباطل ، ومن متقول عليه ..^(١) إلا عبدالعزيز ، فلم يستطع أعداؤه وأعداء بيته وتاريخه وسلفيته أن ينالوا جهاده وبرنامجه السياسي بكلمة تعيبه ؛ بل أذعن لإخلاص الشاء عليه كبار المثقفين كالعقاد وهيكل وكل من حج واعتمر ؛ لما رأوا واقع حاله وحال رعيته .. بل اعتبر وندربيل أن إنجاز عبدالعزيز هو النموذج الوحيد الذي تحقق في الواقع لكل دعاة القومية والوطنية ، ولكل رواد الجامعة الإسلامية ثم الجامعة العربية .. وهذا صحيح ؛ فمثلاً مصر أوسع وأحفل بلد بالزعامات القومية والوطنية .. على أن وحدة أرض مصر دولة ووطنية لم تتغير .. كانت قطراً واحداً ، ودولة واحدة قبل النهضة الوطنية والقومية .. وعبدالعزيز جاء ولم يكن الوطن واحداً ، ولا الدولة واحدة ، ولا التتميات قائمة .. ودعك من أن تكون منتظمة ، فوحدها بدعاية الإسلام ؛ فتحققت القومية والوطنية ثمرة ونتيجة .. وكانت المزايدة بالقومية والوطنية مع هذا معدومة في كل أوجه إعلامه .

(١) لما بُعِدَ المستثنى منه أصبح المستثنى مفصلاً عن المستثنى منه ، وهذا يُشبه الانقطاع ؛ فتناسب علامة الحذف والاستئناف .

ولما قسّم فيلبي أدوار الدولة السعودية ذكر أنها في عهد سعود الأول دينية بحتة، وفي عهد الإمام تركي سياسية بحتة، وفي عهد الملك عبدالعزيز دينية سياسية كما أسلفت .. وهو تقسيم مردود، فما السياسية في لحن فيلبي إلا الامتداد الجغرافي وتوحيد السلطة ، وكل ذلك موجود بين مدٍّ وجزر في الأدوار السياسية لآل سعود .. وما الدين إلا حكم الشريعة للحياة العامة ، وصدور الدولة عنه ؛ بحيث تكون جهاز حماية له وتنفيذ .. وكل هذا أيضاً موجود في الأدوار السعودية بمقدار نفوذ الدولة وقوتها وامتدادها .. لقد نقل الدبلوماسي باركر هارت وكيل وزارة الخارجية الأمريكية الأسبق، وأول قنصل أمريكي في الظهران قول الملك عبدالعزيز له : «دولتنا قائمة على الإسلام، ولا شيء أهم عندنا من عقيدتنا وعاداتنا»^(١).

وإنما ميزوا عبدالعزيز بميزة الجمع بين الحركتين ؛ لأنهما استقرتا معاً في عهده وفي عقبه في عصر تواصلت فيه الدول ، وكان للعالم موافق دولية ، ولأنه أراد أقصى ما يكون من الامتداد الجغرافي ، وأقصى ما يكون من قوة ونفوذ ووحدة السلطة للدين والدولة ، واستقرار ذلك ؛ فأتم الله له ما أراد .

وهذان الهدفان لا مطلب لأسلافه غيرهما إلا أن الرعيّة لم تستقر؛ بل كانت في مدٍّ وجزر .. وكانت سيادة الدين والدولة ثابتة قائمة فيما في أيديهم من الرقعة.

خصائص عبدالعزيز الجبليّة والاكتسابية :

٥ - المواهب الشخصية الفردية التي جبله ربه عليها^(٢) ؛ فكانت له وهيبه لأنهيبة: من شجاعة، وصدق ، وتوكل على الله ، وثقة بعائدة الكفاح دون يأس .. مع الذكاء ، والخلق ، والشيمة في التعامل ، وضبط النفس ضبطاً يمنعها من الغدر ،

(١) الملك عبدالعزيز رؤية عالمية ص ٥١٠ و ٥١١ .

(٢) انظر : الموهبة الرابعة ص ٩ .

والنكاية بالخصم نكاية تتجاوز السماح مع القدرة ، والقوة البدنية ، وكونه مهيباً ..
فكل هذه منح ربانية .

٦ - مواهبه الفردية الاكتسابية إذ أفاد من ثقافته ومعايشته وتجاربه وتجارب
غيره ، وطوّع كل ذلك للالتئام لنداء العقل والدين ، وضبط جموح النفس ، وكسر
شهواتها الغضبية والمرحّية .. مع توظيف الوقت لحق النفس والأهل والرعية ، وإحكام
صناعة الإدارة مركزية ولا مركزية ، وجلب الخبرات العصرية للمشورة ، ومباشرة
التمدين بما لا يحيف على الجذور .

قال أبو عبدالرحمن : أسلفت أن شعار عبدالعزيز - كما صرح بذلك في
إحدى خطبه - أن السيرة تُبين السريرة .. والسيرة بينت أن الغاية التي سعى إليها
عبدالعزیز همُّ فردي ؛ لأن قدره الكوني قضى بأن تكون غايته في وحدة الأمة همّاً
فردياً ابتداءً ؛ لأنه أحد أفراد الأسرة التي قادت ذلك التاريخ الذي أعاده عبدالعزيز
بغاية الله .. والسريرة بينت أن الغاية التي سعى إليها عبدالعزيز كانت مشروطة
بشرطها التاريخي السابق: بأن تكون - كما مضى -؛ لخدمة الأمة .. غاية ما هنالك
أن عبدالعزيز التمس أقصى الوسع لتاريخه الجديد بأن يكون في الذروة من خدمة
الأمة ؛ ولهذا تواتر تواتراً لا يقبل الشك دعاؤه المتكرر على نفسه ولها ، فاشتراط في
دعائه لربه بالنصر أن يكون في نصره صلاح للإسلام وأهله .. تكرر هذا الدعاء في
غير مناسبة ، وعند فئام عديدة ، ونُقِلَ ذلك نقلَ كافة .

وأحفل مناخ لتغذية مواهبه المكتسبة معيشتة بين بادية بني مرة والعجمان عام
١٣٠٨هـ و ١٣٠٩هـ ، وإقامته عشر سنوات ملازماً لمجلس مبارك الصباح وما يحفل
به من أعلام محلية وأجنبية ، وهو من هو في الدهاء والحيلة .

إن مغامرة عبدالعزيز في فتح الرياض مبنية على إدلال منه على أهل نجد

كافة بتاريخ البيت السعودي المحب إليهم بأنه جاء لإعادته إليهم : فنجاحه ، وامتنال القوم له ، وترحيبهم به : نجاح للتاريخ الذي جاء لإعادة صفحته .. ولو كرهت الأمة التاريخ السعودي (وقد جاء بقوة صغيرة لا تستطيع التغلب عليهم) لقالوا: لا حاجة لنا فيك؛ فقد سئمنا من تاريخ أسرتك ، وعانينا الظلم، أو الفقر، أو الجهل، أو الأمراض، أو التناحر في ظله .. ونحن تحت أمير رضيانه ، وحكومة عادلة لا نريد غير ظلها .. ولكن الواقع غير ذلك ؛ بل كانوا يترقبون منقذاً يكون من آل سعود بالذات ، وكانوا يحنون إلى نظام الحكم السعودي الذي عاشوا في عزه قوة وأمناً وجماعة وتديناً ، وكانت مخيلتهم تحلم بمثل سعود الأول ، أو تركي بن عبدالله، أو ابنه فيصل الذي أسر - بحب الناس له - القلوب والمشاعر مدة حياته المتأرجحة قوة وضعفاً .. إن عبدالعزيز غادر نجداً هو وأسرته وهو على علم يقيني وثيق بالحنين المكبوت إلى التاريخ السعودي لدى الأمة ، وهذا الحنين المكبوت من أهم مقومات العزم لدى عبدالعزيز .

ولقد شقيت الأمة بالحرب الأهلية منذ وقع التصادم بين الإمامين عبدالله وسعود ابني فيصل رحمهم الله إلى انتهاء الدور الثاني .. شقوا بهذا الصدام ثكلاً وتمزقاً وجلاء وفقرًا ووباء .. وها هم يتخلصون من هذا البلاء ، ويتحدون على ابن رشيد ؛ فلو كان التاريخ السعودي مكروهاً لديهم لكانوا يرون في التمسك بواحد من آل سعود إحداث فتنة وفُرقة ، ولكانوا يأخذون من الشقاء بالحرب الأهلية حجةً على الشقاء بالتاريخ السعودي .. ولكن الواقع خلاف هذا كله ؛ فهم يحلمون بأي صوت من آل سعود، ومشاعرهم لا تفتأ تتوثب لما ألفوه من مرحمة التاريخ السعودي.

والسيرة كشفت أن سريرة عبدالعزيز هي التي أنجزت - بعد الله - أنجح مشروع وطني قومي ديني وحدوي ؛ فكان كما قال وندربيل : أسوة للحركات القومية

الوطنية التي لم تتحقق كما تحققت لعبدالعزیز؛ فالحركة القومية والوطنية في مصر مثلاً كانت ومصر دولة واحدة في رقعته؛ فلم يتغير غير تبدل دولة بدولة ، وهكذا بقية الحركات في العالم العربي ، وليس هكذا جزيرة العرب .. بل كانت دويلات لمقاطعات مجزأة ، وكل مقاطعة يمزقها استقلال زعامات بقرية أو قبيلة ، وكانت المشاعر والنخوات عشائرية أو إقليمية ليس فيها شعور بالأمّة الواحدة والوطن الواحد؛ فجمع عبدالعزیز القُوى على هدف واحد، وجعل الأمّة واحدة، والوطن للجميع.

وكان من المتوقع أن يكون في سيادة عبدالعزیز على نجد مقنع له ؛ لأنه حقق سيادة جده فيصل .. ولكن الواقع خلاف ذلك ؛ لأن سريرته تريد وحدة الجزيرة كلها على دولة التوحيد ودينها .. وكان رحمه الله أمام قوى كبرى بسطت نفوذها على الخليج والساحل وفي الجنوب ، وارتبطت مع الزعامات المحلية بمعاهدات ومحالفات؛ فاتخذ دعوى وحدة ما وصل إليه ملك أجداده ذريعةً لحقّ تاريخي يُطالب به؛ فكان يختلس تلك القوى عسكرياً ، ويراوغها سياسياً .. وهي تتعامل مع طموحه بحذر ومحاوره؛ فصانعته على مضض في توحيد ما وحّده من تركّة أجداده، ورأت أن تخلّيه عن الأجزاء (التي ارتبطت معها بأحلاف ومعاهدات) ميزان التعامل معه، والمصانعة له .. وكل هذا هو محك المعاهدات التي أبرمتها بريطانيا معه، وهي الدولة التي كانت منذ عهد بيلي تسعى إلى تقليص نفوذ فيصل بن تركي ، وكانت قبل ذلك على يد سادلير تبارك خطوات محمد علي في محيط دون محمياتها .

ولا يوجد مفهوم الدولة لأهل الجزيرة ، ولا مفهوم الانتساب إلى رعية مفهومة في الخارج ؛ فالحاجة إلى عبدالعزیز حاجة إلى تحقيق مفهوم أمة بالوجود المعتبر .

٧ - معاشته التاريخية لآلام وآمال الأمة ، وكان عبدالعزيز رجل هذه المعيشة .. عاش مصائب بيته وأمتة عند تفتح مداركه ، واستوعب تاريخه المحلي بأوثق سند متصل الرواية .

وبهذه الخصيصة والتي قبلها أشربت نفسه الجد والعزيمة ، وبعدت عن الترف والركود ، ومَلَك الأهلية الثقافية والفكرية لتطلعه ، ومن ثم فُقِّه في الغابر والحاضر والناظر ، وكان ذا وعي بالمتغيرات العالمية حوله ، ورسم طريق الإفادة منها دون أن يسبح في التيار .. وبهاتين الخصيصتين كان يملك نظام الحكم من تدنيته ، وطبيعة تربيته ، ومذخور تاريخه الأسري ؛ فليس هو بحاجة إلى حضانة يستعير منها نظام الحكم ، وليس هو مضطراً إلى التخبط في التجارب ؛ بل كل نصر عسكري حققه فإنه يُتبعه مباشرة بتنفيذه برنامج الإصلاح ؛ لأن عنده برنامجاً مسبقاً .

قال أبو عبدالرحمن : يُؤكِّد القول بأن الحق التاريخي لعبدالعزيز همُّ جماعي لمصلحة الأمة : أنه منذ غادر آل سعود دار ملكهم والأمة تتشوق إلى منقذٍ منهم .. وهذه الرغبة الجماهيرية حجة متكررة في عبارات عبدالعزيز وأبيه عبدالرحمن في شرح بعض المناسبات ؛ ففي شهر ربيع الآخر سنة ١٢١٨هـ كتب الإمام عبدالرحمن لنقيب البصرة قبل خروج الحملة الخطاب التالي : «ما يخفى على شريف علمكم قدِّم خدماتنا للدولة العلية أدامها رب البرية من وقت الآباء والأجداد ، وتعديات ابن الرشيد على بلداننا وعشائرننا ، وظلمه إيهم ، وهو ليس له حق في ذلك ؛ وبمقتضى تعدياته وظلمه أكثر علينا أهل نجد الإلحاح أن نتوجه لأجل استنقاذهم من يده ، وتوجهنا لذلك ؛ فنرجو من تفضلاتكم أن تسترحموا لنا من حضرة والي ولاية البصرة أن يكتب لابن الرشيد أن لا يتعرض لنا ، ولا يحرك أحداً من عشائره

علينا : حذراً أن تقع فتنة قتل ومقتول وسفك دماء المسلمين، وهو السبب في ذلك.. ونحن خدام الدولة قديمين ، وعلى هذا عهد الله وميثاقه أننا لا نزال نُؤدِّي الخدمات اللازمة لحضرة أمير المؤمنين أدام الله مجده وعزه، ونحامي أتم المحاماة على جميع أطراف الدولة العلية (الأحساء والقطيف وعشائرها) .. إلخ»^(١) .

قال أبو عبدالرحمن : دافع مثل هذا الخطاب أن السلطة في داخل الجزيرة - التي سمحت بها بريطانيا ما بقيت لها السيادة البحرية - إنما هي لتركيا ؛ إذ هي التي أجهزت على الدولة السعودية بحملة مدحت باشا ، وساعدت إمارات التجزئة.. وكان عبدالعزيز يعرض على مبارك الصباح الرسائل التي كانت تردده من أكابر نجد ووجهائها .. وعلى الأخص رسائل أحفاد الشيخ محمد بن عبدالوهاب الذين كانوا يحثون بها الأمير عبدالعزيز على استرجاع دولة آبائه ، ويخبرونه بأن أهالي نجد كلهم بما فيهم أهالي القصيم تؤيد آل سعود، وتتمنى اليوم الذي ينهضون فيه لاستعادة ملكهم ، وتخليصهم من الذل والهوان الذي لاقوه.

قال أبو عبدالرحمن : المحاولة الأولى للاستيلاء على الرياض كانت فيما بين يومي ١٦/١٠/١٢١٨هـ و ٢٦/١١/١٢١٨هـ ، وكان قد استولى عليها ولم يستعص عليه شيء غير عامل الأمير عبدالعزيز ابن رشيد الذي تحصن في القصر ، وامتنع عن التسليم ؛ فعزم عبدالعزيز على نسف القصر .. وفي أثناء ذلك وردت عليه الأخبار باندحار الشيخ مبارك في معركة الطرفية (الصريف)، وتمزيق جيشه ؛ فاستعجل الخروج من الرياض خشية مdahمة الأمير عبدالعزيز ابن رشيد له .

ويُعتبر أمين الريحاني كابن عبدالظاهر في كتابه سيرة بيبرس ؛ لأن الملك

(١) انظر الحاشية آخر البحث رقم (٥) .

عبدالعزیز أملی علیہ جل کتابہ ^(۱) .. والریحانی ذکر حدوث المعركة في ۱۳۱۸/۱۱/۲۶هـ ، وتابعه ابن عبید والمحققون ، وذكر أن عبدالعزيز لما علم بوقعة الصريف أخلی الرياض التي احتلها أربعة أشهر فقط ، وعاد برجاله إلى الكويت .. ولم يذكر الريحاني كيف علم عبدالعزيز ؟ ^(۲) .

وما أرى أربعة الأشهر صحيحة إلا إذا حسبنا مدة المسير والمقاتلة قبل تسلق الأسوار ، وتقتصر المدة مع ذلك ؛ لأن عبدالعزيز غادر الشوكي خلال شهر رمضان أو شوال عام ۱۳۱۸هـ ، وغادر الرياض آخر ذي القعدة .

وحدثني أحد مواليد عام ۱۳۱۴هـ (وهو الشيخ محمد بن عبدالله المرشد رحمه الله) أن المدة ثلاثة أشهر .. ويظهر لي أن الصحيح قول من قال : إن عبدالعزيز حاصر الرياض أربعين يوماً ؛ وعلى هذا يكون وصوله إلى الرياض في حدود ۱۳۱۸/۱۰/۲۰هـ ، وهو التاريخ المقارب لتاريخ توجُّه ابن الصباح إلى القصيم حيث توجهت حملته في ۱۳۱۸/۱۰/۲۲هـ .

ويظهر أن الزركلي نقل نقلاً سريعاً مخلأً عن ابن عيسى عندما ذكر أن عبدالرحمن مر بالرياض؛ فقد ذكر أن المعركة سنة ۱۳۱۸هـ في ۱۷ ذي القعدة، وذكر سقوط الرياض في يد عبدالعزيز وحصاره حامية ابن رشيد في القصر .. قال ابن

(۱) قال أبو عبدالرحمن : قال فضيلة الشيخ العلامة محمد بن عبدالعزيز ابن مانع رحمه الله تعالى في تعليق له خطي على طرة كتاب تاريخ نجد لفيليبي : «كنت ليلة عند الملك عبدالعزيز رحمه الله في قصر [الصواب : في قصره ، ولعل طرح الهاء سبق قلم] بمكة ؛ فجري ذكر التاريخ ؛ فقال : لم يكتب أحد في تاريخي .. فقلت : الريحاني .. فقال : كذب الريحاني .. كتب شيئاً ما قتله له ، وقلت له شيئاً لم يكتبه» .. قال أبو عبدالرحمن : وكان تملك الشيخ ابن مانع للكتاب في ۱۲۸۳/۶/۲۶هـ ، وهو ثقة ؛ ولعل هذا يحفز الباحثين إلى الكتابة عن الريحاني وكتبه ورسائله ومقالاته .

(۲) تاريخ نجد ص ۱۱۹ .

عيسى بالحرف الواحد : «وانهزم عبدالرحمن بن فيصل إلى الرياض : فلما قرب منها أرسل إلى ابنه عبدالعزيز وأعلمه بالخبر ؛ فخرج عبدالعزيز هو ومن معه من الرياض ؛ فسار هو وأبوه ومن معهم إلى الكويت»^(١) .

ويذكر يوسف يزبك أن عبدالعزيز حاصر الرياض ستين يوماً ، ثم بدأ يحضر خندقاً تحت السور؛ ليصل إلى قصر الحاكم وهو يومئذ عبدالرحمن بن ضبعان^(٢) عامل ابن رشيد^(٣) .

وسمعت من فضيلة الشيخ عبدالعزيز ابن الشيخ عبدالرحمن المبارك (ومن غيره) أن أبرز من كان يحضر الخندق ابن هدهود ، وأن أمير الرياض من قبل ابن رشيد يومئذ قطع إحدى يديه عندما فك ابن سعود الحصار^(٤) .. واسمه سليمان ابن هدهود من أهل قرية المصانع جنوب منفوحة .. وفي دخول الرياض عام ١٢١٨هـ كانت أحدية عبدالعزيز :

يا دارنا لا ترهبين لا بد ما نرجع عليك^(٥)

وقال المؤرخ عبدالرحمن ابن ناصر^(٦) : «وكان من عناية الله بالشهم الهمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن حفظه الله أن استأذن والده على الموضع المعروف

(١) تاريخ بعض الحوادث ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : الأمير في هذا الوقت عجلان وليس ابن ضبعان ، وقيل : إن ابن ضبعان مساعده .. وقد أحصيت الخلاف في ذلك في بحثي عن استرداد الرياض بالعدد الثالث من مجلة الدرعية .

(٣) ليلة المصمك ص ١٢ .

(٤) ثم وجدت هذا الخبر في كتاب : السعوديون والحل الإسلامي ص ٢٧٥ .

(٥) انظر الحاشية آخر البحث رقم (٦) .

(٦) في كتابه «عنوان السعد والمجد فيما استظرف من أخبار الحجاز واليمن ونجد» .. وهو ثلاثة أجزاء ، ولا يزال مخطوطاً .

بالشوكي أن يذهب إلى الرياض ؛ فلم يحضر هذه الواقعة الشنيعة ؛ فدخل بلد الرياض بعدما قاتلوه ، وكان أمير ابن رشيد حينئذ عجلان وابن ضبعان ^(١) في قصر منيع؛ فتحصنا فيه مدة حتى بلغهم خبر الواقعة؛ فانصرف عبدالعزيز وتركهم ، وكان ذلك في شهر ذي القعدة من هذه السنة» .

عاملان خارجيان ساعدا الملك عبدالعزيز رحمه الله :

وإذا كانت مقومات وخصائص الفردية في حياة عبدالعزيز ذات أثر فعال في نجاحه ، وتحقيقه لأنجح مشروع على الصعيد الوطني القومي الديني في تاريخ العرب الحديث : فلا ننسى عاملين خارجيين وثيقين هما :

١ - أن الغاية التي تحرك عبدالعزيز من أجلها (وقد أبدتُ رفع الحرج عن كل دارس للتاريخ ينظر بادئ ذي بدء إليها على أنها نفع شخصي لعبدالعزیز، وهمُّ فردي): كانت حيوياً اجتماعياً تطلّع لها المجتمع، ويرى المجتمع والأمة فيها كسباً له وضرورة لحياته .. لا يهمه أن يكون باعثها لدى عبدالعزيز همُّ مجد فردي ، أو هم فرد عن مصير أمة ؟! .. لماذا ؟ .. لأن التاريخ الذي جاء عبدالعزيز من أجله لم يكن مكروهاً لدى الأمة، ولم يسقط برغبة من الأمة، ولم يوجد لدى الأمة باعث أيديولوجي أو إصلاحية تلمس به تاريخاً غير التاريخ السعودي.. إنما سقط تاريخها المغتصب على الرغم منها بعد معاناتها من أجله الثكل والأمراض والمجاعات والتشرد والانقسام في الحرب الأهلية.. والذين اغتصبوا تاريخها لم يتحركوا ابتداءً بمقتضى برنامج سياسي سحر الأمة شعاره ودعايته، وإنما تحركوا باسم حماية ذي الشرعية الإمام عبدالله بن فيصل، والاحتفاظ بحقه، والتمكين لامتداده التاريخي المبني على حفظ الأمن ، وتحكيم الشرع ، وتهيئة الفرص .. ثم جاء اغتصاب التاريخ السعودي تحت هذا الترويج .

(١) قال أبو عبدالرحمن : هذا متعذر ؛ بل الأمير يومها عجلان ، وابن ضبعان مساعده .

لم يكن سقوط الدور الثاني بدافع كره أو ملل لدى المجتمع من التاريخ السعودي ، ولم يكن بباعث طموح لدى الأمة متجدد لدى القيادة الجديدة ، وإنما كان انقساماً في البيت السعودي نفسه .. كان انقساماً تلاحمت فيه خيوط مسمومة كريهة : من تهमيش ذوي الكفاءة ، والاستثناء دونهم ، وتقديم الخامل ، وتهميش من له خطر .. مع الأنانية ، وطلب السلطة ، ومقابلة ما بدر من غبن أسري أو بعض حيف بإباء فردي لا يفكر في العواقب .. كل هذا متداخل بين أطراف النزاع .. إن ما حدث - بكل المقاييس لدى الأمة - مصيبة وفتنة وبلاء لم تسع إليه ، ولم تفرح به .. وبعد هذا فالأمة مرغمة غير مختارة في تحمل مسؤولية هذه الفتنة ، غير قادرة على الحياد .. فمن كان في صف الإمام عبدالله بن فيصل فحجته أنه مع إمامه الشرعي يرى الدينونة لله بنصره مهما كان يسمع من وجهة نظر الطرف الآخر المتظلمة .. ومن كان بصف الإمام سعود يرى أنه مع أحد بُناة تاريخه المحبوب لم يخرج عنه إلى أجنبي ، وقد تجسّد له ما يسوّغ له الوقوف بهذا الصف من نقداً و جهت لذي البيعة الإمام عبدالله .. ولا سيما بعد صدور فتوى المشايخ لصالح الإمام سعود بعد استقدام الدولة التركية التي حكى لوريمر عنها - بتدبير مدحت باشا - أنها شحنت لجنودها باخرة من النبيذ والبغايا بحجة حماية أهل الأحساء من إباحية الجند !!.. وهذا أمر لا تقوى على تحمله نفسية تلك الأمة في ذلك المجتمع الطاهر . ولم يُحسم الأمر لصالح أحد الطرفين ؛ لتقول الأمة : أهلاً بأي واحد من الطرفين ؛ فنحن إذن لا نزال مع تاريخنا المحبوب .. بل استمر الانقسام ، وتضخّم ، وتقطعت أوصال الدولة ، ثم غلبت بتاريخ آخر لم تقبله ابتداءً ، ولم تأنس له بآخرة ؛ فترغب في امتداده .. بل ظلت في تطلّع إلى عودة تاريخها المحبوب .. إذن الغاية التي سعى عبدالعزيز من أجلها مطلب جماعي سواء أكانت عند عبدالعزيز همّاً فردياً ، أم

كانت بهذا التفسير عند غيره من أفراد المجتمع، أو من أفراد غير أفراد المجتمع السعودي .. إن الغاية التي تحرك عبدالعزيز من أجلها، وكانت همّاً جماعياً: لم تكن محبوبة لدى عامة المجتمع بشعور عاطفي غامض غير مفسّر، ولم تكن همّاً جماعياً حسب أغلبية تستأثر بمنفعة ذلك التاريخ المحجوب من أفراد قبيلة أو أهل إقليم .. بل كان الهمُّ الجماعي عامة، المتشوق إلى ذلك التاريخ الذي سعى عبدالعزيز إلى إعادته: همٌّ وشوق كل شرائح المجتمع؛ لأن تاريخ آل سعود منذ نشأته لم يقم على قوة قبيلة ذات منعة؛ بل كان بنو حنيفة - قبيلة آل سعود يومها - أسراً متحضرة ليست حريباً في ثقل عنزة أو شمر أو عتيبة .. ولم يقم على قوة إقليم من رقعة الجزيرة كالعارض مثلاً .. وإنما كانت قوة الدولة أخلاطاً من القبائل والأسر والأقاليم جعلت للأسرة السعودية تحقيق وحماية وحدتها القومية والوطنية والدينية (وإن لم تكن يومها - لغلبة العامية - تحسن التعبير عن الوحدات الثلاث، وإنما كانت تعلم أن المسلمين في ظل كل دولة مسلمة يجب أن يكونوا أمة واحدة، ويعون توصية الله عباده في كتابه الكريم بالاجتماع والتحذير من الفرقة وذهاب الريح، واشتراط أن تكون الوحدة على ما يرضي الله) .. ولما استقر الأمر لعبدالعزیز سمع شعوراً إقليمياً ضيقاً، وسمع بشعر عامي لابن دحيم يغذي ذلك؛ فتحرى اجتماع القوم بمسجد الإمام عبدالرحمن بشارع الثميري؛ ففاجأهم بقامته الفارعة، وطلعته المحبوبة المهيبة؛ فقام خطيباً كعادته، وسوّى بالرّغام ذوي النعرة، وأسهب في شرح مكارم الأمة من كل إقليم وقُبل في بناء الوحدة، وحذّر من العودة لمثل هذه الثثرة، ولوّح إلى مغبّة النكال الشديد؛ فزال كل منغصات الوحدة من ساعتها .

والشوق إلى ذلك التاريخ المحبوب لم يكن شعوراً غامضاً إرادياً حراً غير مفسر كما أسلفت .. وإنما كان حتمية سلوكية، وإيجابية فكرية مفسراً بكل الشمعات

المضيئة في ذلك التاريخ، ومفسراً بانتفاء كل عوج أو أمّت في نظامه .. وهذا الانتفاء بميزان المعادلة بين المصالح والمساوئ، وبميزان واقعية النظرة ، وبتجربة المجتمع الراهنة وذاكرته التاريخية عن ذلك البيت السعودي ، وأنه عناصر خير في الجملة ، وأنه ذو تدين وحياء ورحمة وشيعة وشعور بهوم الأمة ، وأنه تُتال - بصيغة المجهول - منهم البغية بالوازع الذاتي عندهم أكثر مما ينالون هم بالوازع السلطاني لديهم .. ولا يعني ذلك الانتفاء الكمال المطلق؛ فإن القرون الممدوحة لم تخل من الشوائب المنغصة .. وتعني النظرة الواقعية أنهم خير الموجود فيما حولهم .. ولا تكفي منهم أمتهم بذلك ؛ بل ظلت - وستظل - تدفعهم من الحسن إلى الأحسن بالمسارّة والمعالنة ، وشروط البيعة على كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ ، وتحمل الرعية مسؤولية العمل الذي يُنَاط بها بشرطه في تنظيم القيادة .. ولم يستمر قط في تنظيم ولاية الأمر تنظيم تكرهه الرعية ويأباه الدين .. وجوهر حياة الأمة (مجتمعاً ودولةً) النظام وسيادته ؛ فما كان من النظام ذو استمرار (لانتفاء حاجة جديدة تقتضي التغيير) فقد صادف الحق بقطعية أو رجحان من ذوي النظر الشرعي ، واختصاص ذوي الخبرة ، وهذان هما ذوا المسؤولية في سن النظام^(١) .. وما لم

(١) قال أبو عبد الرحمن : دورة مشروع النظام في السعودية من أجل معاني الشورى في

الإسلام، وقد تبلورت في دولة التوحيد (السعودية) على هذا النسق :

١ - أخذ الحكم الشرعي من علماء الأمة العدول العليمين بأحكام الشريعة حفظاً واستنباطاً .

٢ - أخذ أحكام الوقائع من ذوي الاختصاص من مهندسين وأطباء .. إلخ .

٣ - استشارة ذوي الحل والعقد من الوجهاء والزعماء وأصحاب المال بشرط الدين والأمانة والولاء .

٤ - استشارة عامة الناس - بما فيهم الذمي لو كان في الرعية ذمي - في الأمور الدنيوية

عامة النفع إذا لزم الأمر كإنشاء مرفق أو إلغائه .. وتقل هذه الحاجة بقدر ما يكون لدى

==

الدولة من ثراء من رجال الخبرة والاختصاص .

الطريقية

السنة السابعة

العددان: السابع والثامن والعشرون

رمضان - ذو الحجة ١٤٢٥هـ
أكتوبر ٢٠٠٤م - يناير ٢٠٠٥م

يكتب له الاستمرار من التنظيم - على قلته - كشف التطبيق مرجوحية بعض عناصره ؛ فتداركته رعاية الله ثم عناية ولي الأمر باللوائح ، والتعديلات .
ومن الشمعات المضيئة في التاريخ الذي سعى عبدالعزيز إلى إعادته ، وأيدته الأمة بالقبول؛ فبسطت يد البيعة : تمخضت الحقيقة بأن ذلك التاريخ منذ نشأته قائم في الشرح التثري والتطبيق العملي السلوكي على العبودية لله بأداء حقه الشرعي، والوفاء برغبة الرعية في أمور معاشها ، وتحقيق القوة لحماية هذين الهدفين ؛ فندبت العلماء الموجودين ، وأكملت نصابهم بالتعليم في المساجد ثم المدارس ؛ فجعلت عليهم مسؤولية تحقيق العبودية لله فتوى وقضاءً ووعظاً وحسبة وتدریساً وإعلاماً .. وكان الحكم قبل التاريخ السعودي ، وخلال الانفلات آخر الدور الأول والثاني لهوى الفرد من زعيم أهل قرية أو شيخ بادية .. لا حضور للقضاء والفتوى والحسبة ألبتة .

== ٥ - اليقين بأن إشراك الناس خير وأبقى ؛ لأن ما لا يُقبل رأي الناس فيه من التنازل عن بعض حقوق الله وحدوده وأحكام دينه متروك للعلماء الربانيين ، مستدرك باستدراك علماء آخرين .. وأما أمور الناس فيقوم الإشراك فيها بأنواع الخبرات الاستشارية في كل جهاز حكومي ، وبالدستور الإسلامي الواحد ، وبخضوع أنظمة الدولة لملاحظات ذوي الخبرة النبوية ، وذوي العلم الشرعي ؛ فمشروع كل نظام يبدأ عن حاجة باقتراح خبرات استشارية متعددة ، ثم يعمم على الوزارات والدوائر الرسمية لإبداء الملاحظات من خلال أجهزتها الاستشارية .. وفي قمة هذه الخبرات الأجهزة الشرعية .. ثم يظل النظام تحت طائلة الملاحظة الجماعية والفردية ؛ ولهذا تكثرت التعميمات تعديلاً في الأنظمة واللوائح التفسيرية التي يسبقها لوائح إيضاحية .. وإذا قامت الحياة على دستور إسلامي يرضى به المؤمن ، ويُرغم عليه الملحد في مجتمع مسلم ، وقامت على نظام يحكم الحياة - وهو يمثل هذه المشاركة الجماعية - : فكل دعوى بعد ذلك للمشاركة الجماعية فإنما هي غوغائية تهويلية ، وكل استدراك (إن صح) فهو جزئي .

وأما تحقيق مصلحة الرعية مما جعله الله إلى نظرها فكان تواشجاً من الاجتهاد الفردي الذي يملكه العقل المجرب للقائد ، ومن الشورى ذات الأنماط: فمجلس القائد مع خاصة شيوخ القبائل وأمراء القرى - وهي مجالس علنية مشتركة - مجالس شورى .. ومع أهل الحرف والمهارات وأهل القضاء والفتوى مجالس شورى في بيان الواقعة وحكمها ومنفعتها، وسلوك المجتمع مبني على النظام ، والتنظيم نتيجة شورى من أهل الشريعة والخبرة .

والقوة قوتان : قوة عسكرية للردع والحماية ، وقوة تنمية تظهر بها قوة المجتمع واستعداد الفرد؛ فقام التاريخ السعودي على إسقاط الثارات والنعرات، وجمع القدرات الحربية على راية واحدة، وشعور بأمة واحدة. وكان تهجير البادية بأخرة . وقام التاريخ السعودي على تنمية الفرد بتعليمه ، وحماية أمنه ليعمل ، وتحقيق تكافؤ الفرص .. وعندما دخل الملك عبدالعزيز الرياض وجلس للبيعة أعلن للقوم هدف بناء القوتين : فالفلاح يذهب إلى حرثه ، وطالب العلم إلى حلقاته .. إلخ .. إلخ .. «والزكري» - وهو العاقل من العمل ذو القوة البدنية - يلتحق بخدمة الدولة .. ذكر ذلك محمد آل الشيخ في ضميمته له لم تطبع بعد .

قال أبو عبد الرحمن : ولقد أسلفت في الكلام عن خصائص الملك عبدالعزيز في تربيته الأسرية العربية الإسلامية ؛ فهو ، أُسرياً ، سليل مجد وملك ؛ فتربيته تربية كبراء عظماء ، وهو ، عريباً ، من العروبة في الذروة يحمل بين جنبيه كل همّ عربي دون تعمّل ، وهو ، إسلامياً ، تربية مشايخ في مجتمع متدين ، وملكه السليب يُسمّى دولة التوحيد أكثر مما يسمى ملك آل سعود ، والدين باعث تاريخ أجداده وشرط وجوده واستمراره .. وهذه التربية ذات الأبعاد الثلاثة من أهم مقومات الشخصية لعبد العزيز ؛ لأنها عربون تعامل الأمة معه ؛ لأن الأمة المشردة المكبوتة لا

تثق بعودة تاريخها الحبيب لديها ، ولا تراهن على المغامرة في سبيله إلا بقيادة عَلمٍ من أعلام ذلك التاريخ يُمثِّل طموح ذلك التاريخ : بأن يكون شديد الحماس للدين ؛ لأن ذلك التاريخ هو تاريخ دولة التوحيد ، وبأن يكون العَلمُ من البيت السعودي ذاته ومن تربية كبرائه وعظمائه ؛ لأن الأمة لم تَقْدُ لغير هذا الحي من آل سعود ، ولم تقم لهم دولة على غير هذا البيت ، وذاقت عز الوحدة والأمن والقوة والرغد وسيادة الدين في ظله ، وجربت العزائم والمغانم في ظل نوادر من ذلك البيت من أمثال عبدالعزيز الأول ، وسعود الأول ، وفيصل ، وعبدالله ؛ فلن يقوِّي عزمها ، ويسهِّل لها أمر المغامرة سوى واحد من أمثال أولئك يملأ الفراغ ؛ فكان عبدالعزيز هو الأعجوبة التي منَّ الله بها لملء الفراغ .

٢ - أن المنطقة تشكو فراغاً ، ولو كان إقليم نجد يدين بالسلطة لحكومة واحدة؛ لما كانت حاجة عبدالعزيز استبدالَ حكومة جديدة بحكومة تاريخية.. كلا .. بل الأمور غير مستقرة؛ فمناخات البادية باقية، والثارات في البوادي فيما بينهم، والثارات لدى أهل القرى لا تزال تتجدد، وعناصر التمدين لا تزال معدومة، والتعليم في فئة محصورة لا يتجاوز الكتابات لمجرد الهجاء، وسلطة الشرع غائبة، ودور العلماء أقل من كونه ثانوياً، والسلطة مجزأة في نجد والحجاز والأحساء والشرقية والجنوب ، وكافة طبقات المجتمع الأمي العامي تعي أوجه الفراغ هذه باستثناء ما يتعلق بضرورة الوحدة ؛ فهذا كائن في وعي الخاصة من العلماء والمتقنين على قلتهم، وذوي المتابعة التاريخية .

إن التاريخ السعودي ليس غلبةً عشائرية مجردة، وإنما هو إرادة شرائح المجتمع الموحدة الهدف على الدين وخصائص الجزيرة العربية الشرعية.. مع اختلاف الأنساب والنزعات الإقليمية المؤذية التي قضى عليها التاريخ السعودي؛ ولهذا كان من نظام هذا البلد الصريح أن لا تُمنح الجنسية لكافر ؛ لأن من

خصائص جزيرة العرب الشرعية أن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان (ولعل دولتنا وحيدة في هذه الظاهرة) ، وأن لا تُبنى الكنائس في المملكة : لأنه لا يجتمع في جزيرة العرب دينان أيضاً ، وأن لا يدخل الحرم كافر ، وأن لا تُتَّكَّس راية المملكة في أي ظرف ، وأن لا تكون السعودية طرفاً في موقف مخز كالانفتاح على إسرائيل .. ومن الاستماتة في الحفاظ على خصائص الجزيرة ، وملك الرحمة : التصميم على إقامة الحدود على الرغم من الضغوط باسم حقوق الإنسان ، وإقامة شعيرة الحج بملايين الفداء على الرغم من الضغوط باسم حق الحيوان ^(١) .

رأي هيكل حول هموم عبدالعزيز العربية والإسلامية ومناقشته :

قال أبو عبدالرحمن : من قواميس السياسة المعاصرة الأستاذ محمد حسنين هيكل ، وهو شاهد حقبة من الزمن خطيرة ، وليس هو بحاجة إلى جاه أو سمعة أو مال ؛ فقد بلغ الذروة من كل ذلك .. وإنما حق الأمة عليه أن يصارح أمته بأسرار التخبطات السياسية التي يركن إلى صفها حتى هذا اليوم؛ لأن العمر قصير، والزاد قليل؛ ولأن مصارحته إضاءة وتبصير للأمة، وتكفير لما أحدثه الميل العاطفي من المراوغة والغمغة السياسية^(٢) .. وكان طموح القارئ إذا تناول محمد حسنين هيكل علماً مثل الملك عبدالعزيز رحمه الله : أن يتحدث بكل صدق وصراحة بعيداً عن ترسبات عهد ١٩٥٢م، ولقد أحسن بعض الإحسان في تناوله لعبدالعزيز في مقدمته لكتاب «لسرة الليل هتف الصباح»^(٣) ؛ فمجرد التفاتته لتاريخنا السعودي

(١) انظر الحاشية آخر البحث رقم (٧) .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : سمعتُ هذه الأمنية من فم صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز آل سعود حفظه الله .

(٣) قال أبو عبدالرحمن : هذا الكتاب مادة ثرية جديدة للمؤرخ السعودي مع ما صاحبها من إضاءات لمؤلفها معالي الشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري ، وقد أبنت عن رأيي في هذا السفر النفيس أيام صدوره بمساهمة في جريدة الشرق الأوسط .

بركة تاريخية نعتز بها .. إلا أنه أبدى عناصر ذات ثُلَمٍ لم تسترها ألمعية المؤرخ الكبير للسياسة المعاصرة، وجعل فيها مدخلاً لمغالطات أعداء الأمة من الشعوبيين .. وهذه هي العناصر :

١ - أن عبدالعزيز آل سعود أنشأ دولة ونظاماً ، وأن ذلك حدثٌ عهدت به المقادير ، وأن تأسيس الدول وإنشاء النظم يحتاج إلى إرادة تحرك التفاعل الكيميائي بين الجغرافيا والتاريخ .. ووصَفَ التفاعل بأنه خلاقٌ، وبأن أولئك المنشئين المؤسِّسين لا يتكبرون بسهولة .

قال أبو عبدالرحمن : هذه أبجديات يعرفها العامي ، ولا يحتاج إلى شهادة من الحس التاريخي المعاصر لهيكل .. إلا أن العامي أرهف حساً من هيكل ؛ لأنه لا ينسب هذه الظاهرة الباهرة إلى مقادير مجهولة الفاعل، ولا يرى في مَجِيئِ عبدالعزيز تحريكاً خلاقاً للتفاعل بين الجغرافيا والتاريخ ؛ بل جاء ليعيد التاريخ إلى ظرفه المكاني، وهو جغرافية الجزيرة العربية .. لم يَفِدْ لها بفكرٍ دخیلٍ يقتضي معاناة لتفاعل خلاق !! .. وإنما فَجَّرَ عبدالعزيز التفاعل الفعال في الكوادر البشرية من قطاع يخصف النعل ، ويرتق الثوب ، ويخز القربة ، ويسحج الخشب - في إطار من الأمية والعامية والجهل والمرض والفقر والخوف - إلى طلائع تستورد الميزة من التمدن وتحذف المجل، وتسعى إلى امتثالها تعليمياً وتعلماً بعبقريّة فكرية ، أو مهارة تلقينية .. كلُّ ميسّر لما خلق له .

٢ - أن فعل المباشرة للتأسيس والإنشاء يتأتى من ضرورة طبيعية وإنسانية في جزيرة العرب التي سادت فيها الفوضى قروناً طويلة !! .. وهي رقعة ذات اهتمام عالمي - أي لا تقبل الاستمرار في الفوضى - .. إذن فعل عبدالعزيز نوع من الحتمية التاريخية !! .

قال أبو عبد الرحمن : أما الواقع التاريخي فلم تسد الفوضى في الجزيرة قبل عبدالعزيز قروناً طويلة .. وإنما كان قبل الملك عبدالعزيز : عبدالعزيز بن محمد ، وسعود ، وعبد الله ، وتركي ، وفيصل ، وعبد الله الذين وطدوا الأمن أزيد من قرنين .. وإنما اختل الأمن فترات فيما بين عام ١٢٨٨ هـ ووقت توحيد الملك عبدالعزيز للمملكة ، ومنذ عام ١٣١٩ هـ والأمن أخذ يمد رواقه الذهبي .

وأما الاهتمام العالمي الذي تُضَفِّرُ مرائره الأماكن المقدسة ، وطرق التجارة المشتركة : فقد كان هذا هو واقع قلب الجزيرة منذ عهد بني أمية وبني العباس والعثمانيين .. إلى الدويلات العقيلية بالشرق انتهاء بآل عريعر الخالدين .. إلى دولة الأشراف بالغرب .. إلى الحملات الظالمة منذ محمد علي ، وخورشيد ، ومدحت باشا عام ١٢٨٨ هـ ، ومباركات سادير ولويس بيلي .. ما فُكَّرَ هؤلاء أن يحكموها حكماً مباشراً يمد ويؤهل طاقاتها للعمل المثمر ، ويقم فيها دين الله عقيدة وشرعاً .. وبَعِيدٌ أن يفكر الأشرار هذا التفكير ولو باسم دعوى التمدين العالمية التي حملتها ثورة فرنسا تحت شعار حقوق الإنسان !! .. لا يهم أولئك أن يُعبد في جزيرة العرب الوثن أو الرب .. ولا يهمهم عودة الجاهلية الأولى ، وتمزق القلة تحت وطأة اللصوصية ، والثارات ، والجهل ، والفقر ، وتعطيل المواهب والخبرات والمهارات .. إنما كانوا يستكفون شرها ، ويتحايلون على أمن الطرق بالخفارات والأعطيات لرؤوس العربان ، أو بالحملات العسكرية عليهم ، ثم ترتيب كفلاء عليهم «درك الطريق» مع بقاء الأعطيات والهبات لشييوخهم .. لم تصدر إرادة عالمية ألبتة (من عهد دولة بني أمية المسلمة إلى عهد دول الحلفاء الاستعمارية) بضرورة الأمن والعمران والدولة والنظام في ذلك القلب من جزيرة العرب حتى يكون عبدالعزيز حتمية تاريخية لتلك الإرادة لاقت بالمصادفة رجلاً مُؤَهَّلاً لهذه الحتمية اسمه

عبدالعزیز آل سعود .. كلا كلا .. إنما كان عبدالعزيز هبة ربانية رحمانية جاء فعله نتيجة طبيعية لثلاث ظاهرات :

أولاهن : تاريخ أجداده المحبوب المرغوب الذي أصبح حقاً للأمة المشتتة بعد وحدة دينية قومية وطنية : تجاهد من أجله ، وتستमित في سبيله .

وثانيتين : إيمان عبدالعزيز الصادق بدوره القيادي ، بل إيمانه بشرط دوره القيادي من إرضاء الرب ، وإسعاد العبد .

وثالثتهن : كفاءاته الوهبية والكسبية .. ولا دخل للمصادفات في الرجعة الكبرى لذلك التاريخ المجيد ؛ بل هي العناية الربانية بإتمام مسيرة من بدأ الجهاد وصمم عليه بذكاء وعزم وإيمان وثقة بنبل الهدف ؛ ولهذا كان شعاره : السيرة تبين السريرة ، ولا عبرة بالأقوال دون أفعال ، أو خلاف الأفعال ! .

٣ - انحياز عبدالعزيز التلقائي الفطري - في بعض الأحيان - لقضايا الأمة (وفي مقدمتها فلسطين) جزء كبير من شرعية الدور الذي قام به !! .

قال أبو عبدالرحمن : أما الفطرية فلا شك فيها ؛ لأن عبدالعزيز من صميم العرب في الذروة ، ولأنه وريث تاريخ عائدته للأمة ، ولأنه تربية أحمد ابن حنبل ، وأبي العباس ابن تيمية ، ومحمد بن عبدالوهاب رحمهم الله ؛ فلا فطرة له غير العروبة والإسلام ، ونتائجهما من الوطنية والحرص على أن تكون المعمورة كلها دار إسلام ! .. وأما التلقائية فلا تصنع دولة ووحدة في شتات وتمزق من الخوف ، والجهل ، والمرض ، والفقر ، وخمول المجتمع ، وانعدام الكوادر البشرية الفعالة .. إنما هذا العربي - الذي يُظنُّ أنه في عباءته بدوي أمي انطلق في الأشدُّ ، وترجع على عرش الوحدة كهلاً - : كتلة من المواهب ، والبصيرة ، وفراصة المؤمن ، والخبرة بعلل المجتمع وأدوائه ، والوعي المحنك بالمتغيرات العالمية من حوله ، والتحرك

المنظم المدروس المخطط له الذي كشف عن دقة تنظيمه في منجزات شتى .. جمع الله في إهابه ما جمعه لكبراء القادة ذوي النيات الخيرة على مدار التاريخ .. وأما انحياز عبدالعزيز لقضايا العرب في بعض الأحيان فلا يُمثل أي جزء - ودعك من كونه كبيراً ١ - من شرعية الدور الذي قام به .. بل الذي قام به أم الشرعيات على فرض أنه ليس للعرب أي قضية تنتظر عبدالعزيز .. وعلى فرض أنه عاجز عن المساهمة في أي دور عربي ينتظره .. إن ما هو فيه هو المساهمة الكبرى لخدمة العرب بإيجاد دولة وأمة ونظام في رقعة لا يعرف أهلها معنى «الرعية» ، ثم يؤهل هذه الرقعة الشاسعة وأهلها الممزقين - بعد تنمية طبيعية وبشرية - لتحمل أعباء الهموم العربية والإسلامية .. ثم نسأل عن «بعض الأحيان» .. نسأل عن لحظة واحدة دُعي فيها لهموم العرب فلم يستجب ؛ ليكون انحيازه بعض الأحيان ؟ .. إن عبدالعزيز أخذ زمام المبادرة (لا مجرد الاستجابة) في مؤتمراته الإسلامية ، وفي دعوته إلى التأهيل الذاتي الفلسطيني - بالدعم المالي والعسكري - ؛ لأنه يرى بقلب المؤمن ، ما يُحَاك من مؤامرة عالمية .. أولٌ مظهر لها جميع جيوش عربية لا تملك إرادتها ، وإنما يقودها اللورد فلان تحت ظل العميل فلان ! .

قال أبو عبد الرحمن : وهذا لقاء مع الملك عبدالعزيز جسّد فيه همومه العربية والإسلامية ورد بهذا العنوان : «رأي جلالة الملك ابن سعود في موقف الحجاز من جيرانه ، وفي المؤتمر العربي ، وفي فكرة الحلف العربي .. حديث لجلالته مع صاحب جريدة صوت الحجاز :

س : ما الموقف الحربي على الحدود الشمالية بعد قتل ابن رفاة ، وتطهير المنطقة ؟ .
ج : تعلمون أن الذين دفعوا ابن رفاة لم يجنوا عليه فقط ، بل جنوا على الفقراء المساكين من البدو ، فأوردوه وإياهم حتفهم حتى صاروا عبدة لكل معتبر ..

أما موقفنا في الحدود الشمالية فهو أن الأمن مخيم في كل نقطة من تلك الحدود ، وحرصنا وما يستند عليه من قوات الحدود مهياً لتأديب كل من تحدثه نفسه بتحريك شفتيه بما يخل بالأمن .. وأنتم تعلمون أن أهم ما أسعى إليه هو تأمين الأمن في جميع أنحاء بلادي حاضرتها وباديتها .. حتى في القفار المنقطعة ؛ فلا يمكن أن يذهب لأحد مال أو حلال إلا وأمرت بالتتقيب عنه حتى يؤتى بالسارق أو الجاني ؛ فيجازى حسب نص الشريعة المطهرة (ولو أدى هذا التتقيب إلى صرف كل جهد ، وطول زمن ، وصرف كل عزيز لدي) ، وهذا عندي الركن الأعظم في حياة بلادي الشاسعة المترامية الأطراف .

س : ما موقف جلالتكم مع الحكومات المجاورة لبلاد جلالتكم ؟ .

ج : يعلم جميع من عرفني أنني من الذين يسعون إلى السلم ، ويرجعونه مادام يؤول إلى حفظ الأرواح والأعراض وحفظ البلاد التي في وديعة من الله .. وقد درجت على هذا المبدأ حتى يومنا هذا ، وأسأل الله أن يكون هو ديدني في المستقبل أيضاً ؛ لذلك ترونني مع كل الحكومات المجاورة لبلاد الحجاز ونجد وملحقاتها بحالة سلم وصداقة صريحين لا غبار عليهما .

س : نرى كل يوم في الصحف الخارجية مقالات كثيرة عن المؤتمر العربي الذي عُقد في القدس ، وأيضاً عن المؤتمر العربي العام المنوي عقده في المستقبل القريب ؛ ونظراً لأن بلادنا تشمل القسم الأكبر في الجزيرة العربية ، ولها منزلتها الدينية والجغرافية الممتازة ، وأنها مادة العرب في أحسابهم وأنسابهم وتاريخهم اللغوي والسياسي منذ أقدم عصور التاريخ ؛ فمن الضروري أن يكون لنا اتجاه سياسي واضح يتناسب مع هذه المنزلة ؛ فأسترحم من جلالة مولاي الإدلاء برأيه العالي في هذا الموضوع الذي تشرَّب له أعناق العرب ؟ .

ج : تعلم أن أول واجب عليّ هو السير في بلادي وأهليها سيرة السلف الصالح: من حيث إيصال كل ذي حق إلى حقه ، وأن يكون الناس على اختلاف مراتبهم في رغد من العيش والأمن والسعي : لترقيّ مرافق البلاد ، وتنظيم النظم اللازمة لإدارتها سالكاً بذلك الطريق التدريجي الممكن .. أما أحوال ما يجاورها من البلاد العربية (أي المجاورة لبلادي) : فهي تهمني كما تهتم كل ناطق بالضاد ، ولا شك في أن العرب لا يمكن أن يبقوا على تباعد بعضهم عن بعض مدى الدهر ، ولا شك في أن ما يسعون إليه من عقد مؤتمر تلو آخر إن هو إلا اعتقاد راسخ تسلسل معهم منذ عرفهم التاريخ .. تغلغل في دمائهم : ليكونوا يداً واحدةً على إعادة مجد الإسلام ، وليعودوا فيكونوا العضو الصالح في المجتمع الإنساني كما كان آباؤهم المثل الأعلى لتتویر البشر : في التشريع ، والعلوم ، والصناعات ، وفي كل ما يعلي شأن البشر ، ويهوّن احتياجاته .. وهذا الأمر حق طبيعي لهم لا يلومهم عليه أحد : فالمؤتمر العربي الذي عقد قبل أشهر كان وليد الشعور العظيم بالحاجة إلى التفاهم بين العرب ؛ للعمل على ما فيه منافعهم العامة المشتركة .. وإني أمل أن تكون أبحاث المؤتمر العربي المقبل ، وغايات أعضائه موحدة وخالصة من شوائب الشخصيات والمنافع المادية التي أخرت العرب عن الاتحاد والتضامن حتى اليوم .

س : هل ترون جلالتم أن المؤتمر العربي المقبل سيدعو إلى اتحاد العرب ، وإذا دعيتم إلى حلف عربي فهل أنتم مجيبون الدعوة ؟ .. وإني أسترحم من جلالة مولاي أن لا يرضنّ عليّ بجواب سؤالي ؛ لأنني أرى أن كل مفكر يجب أن يعرف رأي جلالتم نحو هذا الأمر ؟ .

ج : المستقبل بيد الله يُصَرِّفه كيف شاء ، ولكنني أكرر قلبي : إنه إذا كان قرار المؤتمر هو خال من دعوى الشخصيات، ومنافع الأفراد، وجر المغانم لأناس دون

آخرين، وإهمال المثل الأعلى (ألا وهو عز الأمة العربية، وإئتلافها، وحفظ حقوق أبنائها) : فهذا أمر لا يمكن لعربي أن يتأخر عن معاضدته ، وهذا من شيم العرب في جاهليتهم وإسلامهم .. وإني مع ضعفي (ولا حول لي ولا قوة إلا بالله) أقول : إذا دعيت إلى أمر فيه عز العرب ، ويُراد به خير العرب ووحدتهم ، وكانت الدعوة إلى ذلك خالصة لوجه الله : فإنني سأكون كما هي عادتي فرداً من أفراد الأمة العربية ، ولا أهمية عندي للرتب والمناصب الجالية للغرور ، وأقدم كل معونة ممكنة في هذا السبيل»^(١) .

٤ - دور عبدالعزيز : بناء دولة ، وإقامة نظام .. ثم قيادة الدولة والنظام إلى الإقليم والأمة ، ثم وضع الدولة والنظام على طريق العصر .

قال أبو عبدالرحمن : نعم حصل هذا .. نعم هذا هو الواقع الكبير .. ولكن أين هي حرارة قلم هيكل أمام هذا الحدث الجلل الباهر النادر غير العادي الذي خاض من أجله عبدالعزيز جهاداً عسكرياً وفكرياً خلال نصف قرن ١٩ .. أبهذا الإيجاز الجاف المبتسر تبارك مواهب القادة الخيِّرين ؟ .

٥ - إن قال قائل (أي كما يفترض الهيكل) : «إن دور عبدالعزيز ألهمه الطموح الشخصي ، وإن العصبية كانت وقوده ، وإن السيف كان أدواته ، وإن قوى دولية كانت تتابعه» : فالجواب - أي جواب الهيكل - : «أن تلك تفاصيل : لأن أي دور يستمد قيمته (قبل أي شيء، وبعد كل شيء) من الفكرة وقوة الفعل الكامنة فيها»^(٢) .. وكان جوهر الفكرة في دور الملك عبدالعزيز أن الفضاء الجغرافي التاريخي ، والمطلب الإنساني الحضاري في شبه الجزيرة وفي مطلع القرن العشرين، والداعي

(١) مجلة الفتح / العدد ٣١٢ ص ٧ في ٢٨/٥/١٣٥١هـ .

(٢) يعني قوة الفعل الكامنة في الفكرة ، وهو ما يُسمى الوجود بالقوة .

الإستراتيجي المحلي والإقليمي والعالمي .. جميعها تلح على وجود دولة ونظام .. وقد قام الرجل بهذه المهمة ، وأدار مراحلها على اختلاف الظروف، ودقة التوازنات في اقتدار يشهد بجسارة عقل وأعصاب!!.

قال أبو عبد الرحمن : إن المراد بالقوى الدولية التي كانت تتابع عبدالعزيز الدولة العظمى العجوز يومها دولة بريطانيا .. ولا أظن الدعوى تشمل حلفاءها ؛ لأن العلاقة المعتبرة يومئذ مفقودة .. إن الدولة العظمى العجوز ذات تاريخ أسود مع الوجود العربي .. لقد رصدت منذ آخر الدور السعودي الأول سادلير ولويس بيلي على السواحل الشرقية ؛ لقمع امتداد دولة التوحيد .. إن الدولة العجوز لم تكن مسرورة بعودة هذه الدولة بأوسع إهاب وأمتته .. وأقصى امتداد كان على يد عبدالعزيز !!؟ .. وربما هوّل بعضهم بثناء تشرشل على عبدالعزيز في كلامه الشفهي، وفي الجزء الثالث من مذكراته .. والأمر كله بغير هذه الصورة .. كان عبدالعزيز على وعي بالمتغيرات في العالم، وعلى علم وفراسة بإدبار تركيا وحلفائها .. وكان عبدالعزيز على علم ووحي بموازين القوى الأرضية ، والأسباب المادية التي أمر الله بالنظر فيها بتبصر ومعادلة بين المصالح والمفاسد ، والمحاسن والمساوئ .. لم ير بيده - ولا بيد العرب من حوله - ما يحمل على مواجهة دول الحلفاء الغالبة (بقدر الله الكوني) التي ستكون معسكرين (شرقياً وغربياً) .. وليس في ذاكرته ما يفريه بالنازية ، ولا بحليفتها التي حشدت كل جهودها لتحطيم أصدق وأقوى دولة عربية إسلامية وحدوية بجزيرة العرب .. وهو يرى أن تقاسم الحلفاء للتركة يسير وفق مخططهم ، وهو يرى الجزيرة معرضة لأن تكون دويلات كدويلات ساحل عمان، وهو يرى عمال حليفة ألمانيا سيسقطون ولا بد بسقوط الحليفة!!.. وإذن تكون دائرة نفوذ إنجليزي .. ولا سيما أن العمال المتصارعين والمتهادنين ليس لهم دعاية لآمال

وآلام تشترك فيها الأمة ، وليس عند أحدهم تاريخٌ سالف جَمَعَ الأمة والدولة على الدين والمقاصد المرعية لسواد الأمة .. وإنما هو تنازع على الزعامة، ودعوة لاستبدال حكم عشائري أُمي بحكم عشائري أُمي آخر.. ورأى أن أول ما فقدته أمته من دولتها أول ما يسترده، وبعد ذلك يكون الالتحام بالهم العربي الجماعي بتحرير دويلة لا تزال تحت الحماية الأجنبية ، أو مساندة شعب انتفض على عدوه الجماعي ؛ فتعامل مع حليفة ألمانيا بما يليق بقدرها الخائب العاجز ، وبما يقتضيه ماضيها الأسود .. وتعامل مع دول الحلفاء المنتصرين المقبلين على انتصار أكبر بما تفرضه مواهبه وقدراته وتاريخه من مَلء الفراغ .. فراغ زعامات أسلفت شأنها، وزعامات بسطت صدرها للحلفاء فلم تجد عندهم إلا خيبة الظن .. ووجدت دول الحلفاء أن هذه الزعامات عاجزة عن التحدث باسم أمة تنطق باسمها، وعارية عن جموع تدين بحبها وولائها .. ودول الحلفاء منذ ذلك التاريخ لم تقهر إرادات الشعوب بمواجهة علنية، وإنما تخدعهم بدعم - أو إنشاء - زعامات دعايتها الظاهرة لهموم الأمة، وباطنها العبودية لإرادة الأجنبي .. وعبدالعزيز ليس من ابتكار الحلفاء ، ولكنه وارث تاريخ مجيد كان قبل أن يكون الحلفاء حلفاء .. وعبدالعزيز يزحف شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً بالله ثم بإرادة شعب يريده ويهيب به ؛ لإحياء دولتهم السعودية السالفة الموحدة .

إن حليفة ألمانيا وهي في حال إدبار رأت عاملها في الحجاز في وضع تعتبره خيانة للإسلام ودولته، ودول الحلفاء رأت حليفها الجديد لا يتكلم بصوت عربي إلا عن طريق فَرَضِها لزعامتة على العرب ، وتوزيع أهل بيته في أقطار ؛ فكان ذلك ؛ فلم يزدادوا من العرب والمسلمين إلا كرهاً .. ورأوا عبدالعزيز يزحف تحت إهابة عربية جماعية تحفزه ، ورأوا العرب خارج الجزيرة يصفون له ، ويتشوفون بإعجاب إلى

أدنى كلمة تصدر منه كما في صحافة العرب ما بين ١٩٤٥-١٩٤٨ م .. وكما في كلمة كاتب العربية الكبير إبراهيم عبدالقادر المازني التي سيأتي إلحاح إليها ، وكما في كلمة الكاتب وليم شكسبير المعتمد السياسي البريطاني في الكويت في مذكراته : «إن الضباط العرب في الجيش العثماني قد قرروا بالإجماع أن يكون عبدالعزيز آل سعود زعيماً للثورة، وأنهم سيطلبون إليه قيادتها»^(١) .. وأعلنت اللجنتان الوطنيتان العربيتان في كل من بيروت ودمشق أن ابن سعود زعيم تلقائي للشعوب العربية^(٢) .

بل وجد عبدالعزيز في النهاية شعوراً دينياً من أحد عمال حليفة ألمانيا المولّية؛ فأبلغه بما ينتظر الأحساء من مصير مَشْؤوم خلال قسمة التركة ؛ فتحرك عبدالعزيز بأعجوبة جمعت بين الرزانة والسرية وسرعة التحرك بوثبة صاعقة مباغطة حتى كانت الأحساء (البلدة العربية المسلمة) أمام الأمر الواقع في ولاية حاكم مسلم رشيد ، ووارث مجد للأمة سليب ؛ فأعاد التاريخ إلى مجراه .. إذن عبدالعزيز لفت اهتمام بريطانيا ، وهو رحمه الله منذ وقت مبكر قد لفتت بريطانيا ودول الحلفاء نظره ؛ فحاورهم ، وعاهدهم ، وعاقدهم ، ولم يُفوّت فرصة في الاستفادة منهم معنوياً أو مادياً .. ولكن ما الثمن ؟ .. هل اقتطع لهم من جزيرة العرب نصيباً مفروضاً ؟ .. هل استورد منهم قانوناً يجعل بلاده محكومة بأيديولوجيتهم ؟ .. هل استغل سمعته العربية الإسلامية المحبوبة المسموعة ؛ ليقود جيشاً سورياً ضد المؤامرة العالمية الكبرى على فلسطين ؛ فيجعل الجيش يُذبح على مرأى ومسمع منه ، ثم يقول : ما كو أوامر ؟ .. هل سكت عن أي قضية عربية يقدر أن يساعد فيها ولو بإدلاء بكلمة ؟ .. كلا .. إنما كان يزحف لضم أطراف الرقعة باسم حقه التاريخي ،

(١) لسراة الليل ، ص ٢٥ عن جواسيس العرب لرياض نجيب الرئيس .

(٢) المصدر السابق .

وباسم أهل الرقعة الذين يستحثونه على مواصلة الزحف ، وباسم أن جزيرة العرب للعرب .. وكانوا على الرغم من زهادتهم في عميلهم بالحجاز يبعثون لعبدالعزيز عرباً وخوارجات من أمثال أمين الريحاني وفيلبي والسير كوكس ؛ ليظل سلطاناً في نجد ، ويكون للخلافة شأن آخر بالحجاز !!.

وقابل عبدالعزيز دعوى التجزئة بمراوغة عبقرية ، متين الدين مع استمرار في الزحف كما نرى في أجوبته لرسائل الريحاني وما يجري في ذلك الظرف من زحفه العسكري، وقبلت بريطانيا الأمر الواقع، وقبلته حليفاً قوياً - كما في إشارة مذكرات تشرشل - وإن كان يؤذيها قيام دولة التوحيد .. وبعد هذا كله فكل عنصر من الواقع يأبى إلا أن يكون عبدالعزيز ضد الأجنبي والاستعمار وكل تحالف صهيوني أو صليبي .. ويأبى إلا أن يكون تعامل عبدالعزيز مع أعداء الأمة - حال القوة والضعف - مشروطاً بفقهِه رباني مُسبق يكون الخاضع له فوق الشبهة ؛ لأن عبدالعزيز من العروبة في الذروة ، ولا دعاية له - تأصيلاً وتطبيقاً واعتقاداً وفعلاً وقولاً - غير ما جاء من أجله ، وهو حاكمية الإسلام للعرب والمسلمين .. وليست بريطانيا وحلفاؤها في وقت يسمح بالتدخل المباشر في شؤون العرب في عقر دارهم ومركزهم الديني الحجاز ، ومواجهة العرب والمسلمين (وهم يومها لم يتحولوا إلى غثاء محض كغثاء السيل) .. وعبدالعزيز يزحف بإرادة عربية إسلامية في الداخل ، وبمشاعر عربية وإسلامية في الخارج ، وقد حرص رحمه الله على تكريم تلك المشاعر منذ تلك اللحظة ، وصار ذلك ذمة في أعناق بنيه وأحفاده إلى هذا اليوم .. إذن مطلب بريطانيا - التي تبذل من أجله الدعم المادي والمعنوي - أن لا يخرجها دولياً ، وألا يزعجها عسكرياً بتهيج ثورات شعبية ضد محمياتها وحليفاتها .. ثم يجني ثمارها على أكثر تقدير ، ويسلم من غائلتها على أقل تقدير ؛ فعاهد

عبد العزيز ووفى^(١)، وكانت المعاهدات ذات عقود معينة قابلة للتجديد أو التعديل.. وهل أمام عبدالعزيز إلا أن يرى أنه أعظم كاسب للرهان ما دام تركُّ هذه المحميات والحليفات (الصغيرة على هامش الجزيرة في السواحل، أو الكبيرة خارج الجزيرة) أقصى ما يُطلب منه؛ لأن هذه البلاد المستعمرة، أو شبه المستعمرة: لم تكن من البلاد المحكومة مباشرة في تاريخ أجداده ٩٠٠.. وما دامت تلك الحمايا الأجنبية لم تكن من صنع أجداده؛ بل حارب الإمام فيصل بن تركي رحمهما الله (وهو في منتهى الضعف مالياً وعسكرياً) الزعامات المحلية التي استجلبت الأجنبي.. وما قصة ضرب الإنجليز لقلعة الدمام عنا ببعيد في عهد الإمام فيصل.. وهذا الإمام الورع المحبوب حياً لا مثيل له بين الرعية وولاتهم: لا يدري أيصانع بريطانيا الضاربة بقوتها من الهند إلى منتهى سواحل الخليج، أم يحارب متسلطاً يدعي الأخوة في الدين وقد بعث خورشيد باشا ليتمِّم ما بدأه سلفه من تهديم ما بقي من معاقل الدين في الجزيرة ١٩٠.

وتبارى سادليز^(٢) الخواجي وإبراهيم باشا المسلم (٩٩) يتصافحان على النصر، ويتفاهمان على دور كل واحد في المنطقة !! .

إذن المحميات العربية في ذل المعاهدات الأجنبية لم تكن مما يُحكم مباشرة في تاريخ آل سعود السابق، ولم يكن الارتباط الأجنبي بإبرام من القادة السعوديين

(١) أرجح كتابة الواوي واليائي بالألف مطابقةً للنطق، وليس من شأن الرسم الإملائي تعليم الصرف، وليس من شأن الصرف أن يغير قاعدة الرسم .

(٢) الكاتب ج . فورستر سادليز، له مذكرات عن رحلة عبر الجزيرة العربية من القطيف على الخليج العربي إلى ينبع على البحر الأحمر عام ١٨١٩م، جمعها من سجلات حكومة بومباي ب . ريان راسك، ترجمها أنس الرفاعي، أشرف على طباعتها وحققها ونشرها سعود بن غانم الجمران العجمي، الكويت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

في تاريخ آل سعود ؛ بل كان خيانات محلية لمحادّة دولة التوحيد .. قاومها القادة المؤمنون على يد الإمام فيصل وابنه عبدالله وهم في حالة ضعف شديد، وأخذت تلك الخيانات طابعها الرسمي العلني منذ الفتنة التي حصلت في نهاية الدور الثاني.. ولم يكن عبدالعزيز - بعد هذا الطابع الرسمي العلني - مستولياً على عرش دولته (المملكة العربية السعودية الآن المعترف بها رسمياً) ؛ ليعمل ما هو عليه أقدر ، وما هو به أعلم من الضغوط العسكرية والسياسية .. إنما كان يهادن قوى الشر المتفوقة عسكرياً ومالياً أمام زحف يقوم به على رقعة لم يُوحّدها بعد ، ولم تقع تحت يده بعد ؛ ليكف عما ليس في تفكيره ابتداء ، وليس في قدرته ضم محميات ليست من تاريخ أسلافه المباشر ، وقد أخذت صفتها الاستعمارية الكريهة من إخراجات محلية قانونية بطوع اختيارها !! .. على أن عبدالعزيز رحمه الله جسّ النبض ، واصطنع حكمة العرب : «لم أمر بها ولم تسأني» في حادثة الجهراء ؛ فرأى هو وأرى غيره : أن هذا الأمر فوق الطموح .. بل كان رحمه الله (بمراوغات سياسية، ومبادرات عسكرية) يختلس انتصاراته في ضم بلاد لا شبهة فيها لأجنبي إلى حظيرة الدولة الإسلامية ، وبعد النصر العسكري يبذل أضعاف جهده في تسكيت القوى الكبرى في شكل مراسلات ومحادثات ؛ فهو طيلة نصف قرن في جهاديين متلاحمين : جهاد عسكري ، وجهاد سياسي .. إن القوى التي تتابع عبدالعزيز إنما تتابعه متابعة من لا يريد عودة عبدالملك بن مروان ، أو هارون الرشيد .

عبدالعزيز والوعي التاريخي والفقهية :

قال أبو عبدالرحمن : لقد أنقذنا الله على يد الملك عبدالعزيز رحمه الله من ظلمات الجهل ، وروعات الخوف ، وسعى في تحصيل الأسباب الدنيوية المشروعة في مكافحة الفقر ، والمرض ، وتنمية القدرات البشرية وتوحيدها .. تحسبه عامياً

كأبناء جيله : فتكشف لك سيرته ورسائله عن وعي عميق لجُيِّ بمتغيرات العالم ، ونور فراسة صادقة عن أحواله المرتقبة .. وتحسبه مجرد طالب مجد ، واستعادة تاريخ سليب لأهل بيته وأسرته : فتكشف لك سيرته وتطلعاته ورسائله عن آفاق أوسع وأبعد مدى من مجرد زعامة تدين لها العربان !! .. بل كان منطلقه من زعامة دانت لها العرب قرابة ثلاثة قرون ، ومتعذر أن تدين لغيره إلا بفرقة وانقسام : فجعل هذا الحق التاريخي الجزئي منطلقاً لأبعاد - يحملها قلب هذا الكهل الفطري - لا تقنع بغير اجتماع على عقيدة وشريعة يستوي في ظلها والاحتماء والانتفاع بها الأبيض والأسود .. ولا يقنع بغير كيان (من سعة الأرض ، وكثرة القوى البشرية) يتم به مفهوم الدولة.. وأي جزءٍ من رقعة هذه المملكة يُسترضى به ممكن أن يُرضى زعيماً كان شريداً مسلوباً : فحصل له جزءٌ من الأرض والأعوان والسيادة فيهم .. ولكن سيرته ، ومواقفه مع المندوبين ، ورسائله - ولا سيما المتبادلة مع الريحاني :- كشفت عن كهل خبر الحياة حلوها ومرها .. عالم بدين ربه في تواضع ، مؤمن غير موارد في إيمانه .. ومعنى عدم المواردية أن بعض فترات الضعف التاريخي تجبره على الرضى بما هو دون طموحه، وإخفاء ما يريده من انطلاق أبعد .. لكنه حال القوة والضعف معاً لا يساوم على إيمانه، ولا يخفي أن هدفه جمع الرقعة صغرت أم كبرت .. وجمع أهلها قلوباً أو كثروا .. جمع كل أولئك على عقيدة الإسلام وشريعته دون فصل بين الدين والدولة ، أو الدين والحياة العامة .. لم يساوم ألبتة ، ولم يقبل المزايدة بأي نظام حكومي سياسي .. ومعنى سياسي أن يكون مرضياً لدعاية المعسكرين المنتصرين في الحربين الكونيتين عندما شجَّعا حكومات الاستقلال السوري على أنظمة حكومات علمانية بدعايات مختلفة تُسقط حق فاطر الأرض والسموات ، وتدعو إلى ما يُدمر الخلق من إرواء حريات الشهوات والشبهات ، وتمنع

من وصل التاريخ - حسب القدرة - بحكومة رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين ، ثم الملك المتوارث من معاوية إلى عبد الملك إلى هارون الرشيد إلى صلاح الدين .. وما جعل الله الملك عيباً شرعياً إلا أن يكون ملكاً عضوضاً ؛ بل كان داوود وسليمان عليهما السلام نبيين مَلَكَيْنِ كريمين ، وقد امتن الله على بني إسرائيل بأن جعل فيهم ملوكاً .. وكان مفهوم الحكومة الإسلامية الحقيقي (في كمال الخلافة الراشدة، وبعض نقص في الحكومة الملكية الإسلامية) : أن عُلِنَ المسلمون معصوم من ظهور المنكر استباحة، أو تنظيمًا ، أو حماية .. وأن الفتوى الشرعية عامرة ، والقضاء الشرعي لازم ، والحسبة الشرعية منصورة مدعومة ، وحلقات المساجد والمدارس والرباطات مُدَلَّلَةٌ : بالأوقاف ، وبذل الأغنياء ، ودعم الدولة، ورعاية الأكابر .. وأن حكومات المسلمين الملكية دولة واحدة في مواجهة الصليب ، أو التتار ، أو غيرهما مما يسمى بالعدو المشترك في لغة العصر الحديث .. وهذا التاريخ الإسلامي - من خلافة إلى ملكية - يطنُّ في أذن الملك عبدالعزيز رحمه الله بصوت العجيري والقويز وغيرهما من صحيح البخاري أو البداية والنهاية لابن كثير ، ويتلقاه محادثة من أمثال : عبدالله بن عبداللطيف ، وصالح بن عبدالعزيز ، ومحمد بن إبراهيم ، ووالده، وعمه محمد .. ومن أمثال ابن عتيق ، والعنقري ، وابن بليهد ، وغيرهم .. وكان من ماثور تتلمذه في الصبا على مؤلفات شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ، ومؤلفات العلماء من بعده ورسائلهم: أن حكم الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم عهد واختيار .. عهد من ولي الأمر ، واختيار ممن حضر من أهل الحل والعقد .. بأول يد تصافح بالبيعة تصبح البيعة لازمة بلا اختيار لمن حضر أو غاب ، ولكن البيعة مشروطة بالعمل بالكتاب والسنة .. والكتاب والسنة حدًّا مواضع السمع والطاعة والانقياد ، ومواضع الحسبة .. على أن السمع والطاعة للحاكم المسلم

أخص من عموم الحسبة ، وحددا براءة الذمة والتغيير بكفرٍ بواحٍ متعمدٍ لا يزيله النصح .. ومعاوية رضي الله عنه لو انقاد لعلي رضي الله عنه لكان خيراً له في خاصة نفسه .. على أن الله جمع المسلمين على يده ، ولم تذهب ريحهم .. ولما أخذ الأمر غلبة أصبح ملكاً ؛ فلو صرف الأمر من بعده لغير أهل بيته لكان في ذلك فتنة وفرقة ؛ لأن الشام ومصر والعراق والحجاز والممالك الإسلامية اجتمعت على هذا المُلْك ، وأصبحت العصبية لأميةً من قريش .. ولو فعل لكان كل قطر يستقل بأميره الذي أُلِفَ منه حسن السياسة والمدارة والصبر والبذل ؛ بتدبير الله ثم تدبير معاوية نفسه الذي حرص على أن يكون عُمَّاله نسخةً منه حُلماً وسياسةً وكياسةً .

وبغير تاريخ آل سعود (بعد الله) ما كانت الجزيرة لتدين لرجل واحد - مع ما عرف عنهم من الأنفة من الدينونة لزعيم لا دعاية له إلا الزعامة وحب المجد الدنيوي .. وما عرف عن واقعهم من التمزق إلى إمارات قرى أو أقاليم ، أو مشيخات قبائل - .. وتاريخ آل سعود الذي قام عبدالعزيز بإعادته تاريخ أمة كانت مجتمعة على دولة ، ودين ، وجهاد ، وتمدين ، وتنمية في الأرض والقوى البشرية علماً وعملاً .. وهو تاريخ كل فرد يطالب بحقه في الأرض والعمل والجهاد وإتاحة الفرص للكفاءات والمهارات .. بل كان هذا طموح منهم خارج حدود المملكة العربية السعودية ؛ فعلى سبيل المثال كان عام ١٣٦٥هـ عاماً تحققت فيه الوحدة والدولة ، ولكن الموارد كانت شحيحة ، والتنمية البشرية في بداية الانفتاح والعمل والتطلع .. ومع هذه الظروف كانت المملكة مطمح كاتب العربية الكبير إبراهيم عبدالقادر المازني في ملمحين مهمين : أولهما أن تكون السعودية قدوة في الأمن ، وثانيهما أن تتوسع حدودها ؛ ليغتم العرب أكبر قدر من الوحدة .. قال المازني عام ١٣٦٥هـ : «فليس بين الدول العربية - إذا استثنينا المملكة العربية السعودية - دولة آمنة أو

مطمئنة على حقها وحريتها ، أو في فسحة من أمرها تسمح لها بالتخلي للعمل على العناية بمراشدها .. وحق الدولة العربية السعودية [أن] لا ترى أن لها أن تطمئن إلا إذا أدركت بعض الغايات ، ومدت حدودها هاهنا وهاهنا بعض المد ، واستولت على بعض الموانئ - مثل العقبة - ^(١) أو البلدان ، وضمنت خلوص النية وصدق السريرة من هذه الناحية أو تلك ، ووقفت في بعض المساعي مثل الحيلولة دون قيام دولة صهيونية في فلسطين ، ومثل تحقيق مشروع سورية الكبرى ^(٢) إذا كانت له صلة بشرقي الأردن .. ولا يلام أحد على الحذر الذي يدعو إليه الدفاع عن النفس ، وقد ذكرنا بعض ما يشغل الدولة السعودية على وجه الإجمال ؛ لنقول : إنه حتى هذه الدولة (التي لا تستطيع أن تكون في أمان من عدوان الدول الغربية عليها) لا تخلو مما يقلقها» ^(٣) .

قال أبو عبدالرحمن : إن التاريخ الإسلامي - حقبة خلافة راشدة قصيرة ، وحقبة ملك إسلامي مديد - كان تربية مُعاشة من كل مناحي تربية الملك عبدالعزيز ، وكان الانطلاق من التاريخ السعودي الإسلامي الذي دانت له جزيرة العرب هو المنطلق الذي انطلق منه عبدالعزيز ، وكانت خصائص ذلك التاريخ من اجتماع على الدين والمصالح الدنيوية والأخروية هي التي تجعل كل امتداد في الرقعة مكسباً للأمة يرجو به ربح المنقلب .. ولا ريب أن توسع الفرد في الخير والحق يعود بآخرة إلى مجد له ولآل بيته .. وقد أبت سنة الله الكونية (إذا مكن للمصلحين، وأورثهم خلافة أو ملكاً) إلا أن تجعل ذلك مجداً دنيوياً لهم ولبيتهم مع ما يرجونه في الآخرة من ربح

(١) انظر الحاشية آخر البحث رقم (٨) .

(٢) انظر الحاشية آخر البحث رقم (٩) .

(٣) مجلة حديقة الأفكار/ السنة الأولى/ الجزء السادس الصادر في شهر ربيع الآخر عام

١٣٦٥هـ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

المنقلب .. وقد حرص عبدالعزيز أن يتأسى ما يقدر عليه من أحوال الخلافة الراشدة ، وأن يحقق أمثل وأنجح ما وعاه من تاريخ الملك الإسلامي منذ بني أمية . وأن يأخذ ميزات تاريخه السعودي، ويضيف إليه قصارى ما يملك من امتداد في الرقعة ومثالية في الحكم .. وقد رضي بطوعه واختياره وكامل رضاه أن يحدّ ويقيّد كل نزعة فردية - لا يخلو منها حاكم - بإعلان سيادة النص الشرعي اعتقاداً وتطبيقاً، وتقديم كلمة القائمين عليه من علمائه العاملين ؛ فكانت بيعته ابتداء وتجديداً على يد العلماء، ولم ينفصل حكمه لحظة منذ دخل الرياض عن حضور ومشورة ومشاركة من أشير إليهم بالعلم والعمل .. بل كان عبدالعزيز يعلن معاناته من غياب واحد من هؤلاء تقتضي الظروف ندبه إلى مهمة .. أو لم يقل رحمه الله لأمير رنية وأحد كبار الأشراف : «أوصيكم ونفسي بتقوى الله، وطاعته ، والامتثال لأمره ، واجتناب ما نهى عنه .. وتفهمون أن لا استقامة في أمر الدين والدنيا إلا بالتحاب في الله وعدم الاختلاف .. قال سبحانه وتعالى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران/ ١٠٣] .

والذي علينا وعليكم شكر الله على نعمة الإسلام الذي رضيهِ الله لكم ، ومنّ عليكم بقبوله .. معنى الإسلام الاستسلام لله ، والانقياد له .. ولا بد أن كل شيء له حقيقة ، وحقيقته [يعني الإسلام] أن يكون الفعل موافقاً للقول .. تفهمون أننا ولاة أموركم .. ما عندنا إن شاء الله شيء من الأمور [إلا] التي [ما] لنا فيها هوى أو قصد يخالف الشريعة ، إنما قصدنا أن تكون كلمته [أي الله سبحانه] هي العليا ، ودينه هو الظاهر .. أيضاً قصدنا راحة المسلمين .

ولما بلغنا عنكم بعض الاختلاف حقيقةً تكرر الخاطر؛ لموجب أن التخالف في أمر الدين ، والتمادي في الجهل : يخل في أمر المسلمين ؛ لذلك كلفنا الشيخ

عبدالعزیز (١) - ولو أن ذهابه عنا مشقة علينا ، وصعوبة عليه .. لكن أجبرنا على ذلك محبة لسكونكم وراحتكم ، وتبييناً للجاهل ، وزيادة توضيح للعارف العاقل ، وحجة على مخالف الأمر - ، وألزمنا على حضوره بحضور الشيخ عبدالرحمن بن داوود (٢) ، والشيخ عبدالرحمن بن ناصر (٣) .

هكذا يعلن عبدالعزيز عن المشقة التي تحصل له من غياب عالم كبير من مجلسه .. على أن كثيراً من ملوك المسلمين (في لحظات الضعف والقرب من مدلول «عضوض») يحرصون على إبعاد الفقهاء عن محل نقضهم وإبرامهم ، وربما تسلي بعضهم بحضور الشعراء والأدباء اللاهين ، وغواية الفن ، وتوددوا للعلماء فرداً فرداً - أي على انفراد كل واحد منهم - في سويغات مجاملة ، وربما جمعوهم في مناسبةٍ مظهراً أمام العامة .. أما عبدالعزيز آل سعود فيشق عليه أن يغيب عن مجلسه عالم مثل الشيخ عبدالعزيز .

والملك عبدالعزيز يعلن مسبقاً لمن أريد اصطلاحهم على الحق أنه لا ينبغي غير سيادة الدين، وتحكيم مفهومه الذي يعرفه العلماء؛ ولهذا فهو راض مقدماً بما انتهوا إليه . فهل بعد هذا الصدق من صدق ؟ يقول رحمه الله : «فيجب عليكم أن تجتمعوا - أعني أنت الأمير، وجماعتك - ، وتبينوا جميع ما أشكل بينكم، وتستفتوهم فيه .. ونحن راضون ، ومقدموهم في جميع الأمور، ومعتمدون على الله ثم عليهم ؛ لو ثوقنا بالله ثم بهم» (٤) .

(١) من المحتمل أن المراد الشيخ عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن ناصر ابن بشر [١٢٧٥ - ١٣٥٩هـ] ،

(٢) هو الشيخ عبدالرحمن بن محمد بن حمد بن داوود [١٣٠٠ - ١٣٥٥هـ] .. انظر عنه : علماء نجد خلال ثمانية قرون ٣ / ١٥٧ - ١٦٢ .

(٣) لسراة الليل ص ١٦٣ .

(٤) المصدر السابق ص ١٦٣ - ١٦٤ .. ولا أدري هل المراد عبدالرحمن بن محمد بن ناصر الخريف ، أو عبدالرحمن بن ناصر ابن فرج ، وأستبعد أن يكون المراد المؤرخ .

وليست ثقة عبدالعزيز بعالم الشريعة ثقة عمياء مغلفة باعتقاد العصمة!..
كلا .. بل ثقته بهم ابتداءً عن سابق علم بصلاحهم سيرةً ، وكفاءتهم علمياً .. يكون
ذلك بعلم عبدالعزيز وتجربته الشخصية ، ويكون بتزكية زملائهم وشيوخهم
وتلاميذهم وميل الناس إليهم .. ويكون ذلك انتهاءً بما تنتهي إليه آراؤهم : فهم
يكشفون عن الواقعة، ويبينون حكم الشرع فيها .. ولنتائجهم معيار يزنها : فإن انتهوا
إلى كشف غير صحيح عن الواقعة فلأهالي على حق المعارضة والمطالبة بكشف الواقعة
على وجهها الصحيح بمنتدبين آخرين ، والحكم الشرعي في الواقعة إذا بينوه
لعبدالعزيز فإنه يشاركهم - تعلماً ، وممارسة - العلم بما أخذه ، ولديه كبار العلماء
يراجعهم فيما أشكل عليه من ترجيح حكم القاضي أو ترجيح غيره .. وهذه
التفصيلات عن مدى الثقة بالعالم الشرعي وردت بالملاح وتقنين موجز، ولكن فيه
الكفاية .. قال رحمه الله في نفس الموضوع الخاص بفيحان بن صامل وجماعته: «إن
أميركم يكون فيحان بن صامل، وقاضيكم الشيخ عبدالرحمن [أي ابن ناصر رحمه الله]
كما رضيهم المشايخ ورضيتموهم .. فأما الإنسان الذي يعلم عليهم خللاً في أمر دينهم
أو دنياهم فلا يخفيه.. أما الأمر الكبير الذي يوجب عزلهم: ^(١) إذا تبين للشيخ
عبدالعزيز يعزلهم .. وأما الأمر الذي دون ذلك فينهاهم عنه وأنتم تسمعون» ^(٢) .
وبعد أن توعدَّ الملك عبدالعزيز رحمه الله من خالف أمير بلده وقاضيه عقَبَ
مستثياً بقوله : «ما عدا رجلاً يرى خطأً من الأمير أو القاضي ؛ فيجب أن يجيئهم
ويناصحهم بينه وبينهم ، ويستشهد بأهل العقل والمعرفة .. فإن قبلوا فالحمد لله ،
وإلا فيرفع الأمر إلينا بأن يأتي بنفسه ، أو يكتب رسالة .. لكن على شرط أن يكون

(١) تلزم نقطتنا التقسيم والتفريع هاهنا ، ليعلم أن ما بعدهما جواب لا قيد .

(٢) المصدر السابق ص ١٦٤ .

بلا مخالفة [يعني للواقع] ، ولا مشاحنة أيضاً ، وليحذر التزوير ..» (١) .

هذه ديموقراطية عبدالعزيز التي هي حكم الشرع للشعب .. الشرع الذي رضيته الجماعة ، وقاتلت من أجله ، وحمل الناس على السوية فيه (٢) .. ومن أصول هذا الدين إجماع أهل الحل والعقد والعلم ؛ لتحقيق المصالح الدنيوية الراجعة إلى النظر المشترك .

وليس في تعيين عبدالعزيز لعماله أمر تعسفي .. إنما كان يشاطرهم الرأي ، ويبذل لهم وسائل الإقناع فيمن وثق به واختاره لهم ، ويفتح باب التجربة والنقد أمام مستقبلهم ، ويبعث بكبار العلماء والعقلاء ينقلون له الصورة الصحيحة ، ويقومون له عماله وما طراً من نقد الرعية لهم .

ولم يكن أمر تعيينه قراراً جافاً ليس فيه إلا الرقم والتاريخ وإرادة غير معللة ، بل كان يُذكر عماله بمقتضى القواعد والأصول التي عُيِّنوا من أجلها .. يقول لأمير رنية : «أما أنت يا فيحان بن صامل فأنت أمير مطلق بأمر الشرع .. ورجع أمورك كلها لشرع الله ، وإياي وإياك أن يأخذك الهوى على أحد .. كن خادماً للشرعية ، واجزم على ما أمرتك» (٣) .

قال أبو عبدالرحمن : كيف لا يأمر عبدالعزيز بذلك وهو نفسه خادم للشرعية .. ولما وجه الملك عبدالعزيز نصائحه للقاضي ابن ناصر : نوّه بما هو نصب عينيه دائماً من الرأي المشترك : «والكلام موجه للجميع .. للأمير ، والقاضي، والجماعة» (٤) .

(١) المصدر السابق ص ١٦٤ .

(٢) انظر الحاشية آخر البحث رقم (١٠) .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٤ .

(٤) المصدر السابق ص ١٦٥ .

الملك عبد العزيز - رحمه الله -

وخصائص الدولة ، والقائد ، والدين ، والرقعة ، والأمة

[٤ - ٥]

عبد العزيز بين الواقعية والطموح - في تعامله مع القوى العالمية -

قال أبو عبد الرحمن: ومن عرف عبد العزيز، وعرف تاريخ دولته عروبةً وتديناً منقطع النظر في الحماس: فلن يكون في تصويره ألبتة إلا أن قدر هذه الدولة بإطلاق الكره والعداء الميرير لكل جبهات العداء للحضور العربي الإسلامي من صليبية وصهيونية ودول استعمارية يُفترض أن غايتها تحليلية نفعية غير أيديولوجية^(١) ..

(١) قال الملك عبد العزيز - رحمه الله في جواب لهوسكنز مبعوث روزفلت كما في شبه الجزيرة ١١٤٢/٤ - ١١٤٣ - : «وأما ما ذكر فخامتة من جهة مقابلتي للدكتور حاييم وايزمن : فأحب أن أعلم فخامة الرئيس بأننا نقابل كل من يأتي إلينا من جميع الأديان بكل ترحاب ؛ مع القيام بالواجب لهم حسبما يقتضيه مقامهم من الإكرام .. أما اليهود بصورة خاصة فلا يخفى على الرئيس ما بيننا وبينهم من عداوة سابقة ولاحقة، وهي معلومة ومذكورة في كتبنا التي بأيدينا ، ومتأصلة من أول الزمان ؛ فمن هذا يظهر جلياً أننا لا نأمن غدر اليهود، ولا يمكننا البحث معهم أو الوثوق بوعودهم : ==

أبو
عبد الرحمن
ابن عقيل
الظاهري*

* محمد بن عمر
ابن عبد الرحمن
العقيل .
- ماجستير من
المعهد العالي
للقضاء في
التفسير ، وله
مشاركات كثيرة
في التأليف
والمقالة والإذاعة،
وعضو مجمع
اللغة العربية
بالقاهرة ،
ورئيس الشؤون
الثقافية بجمعية
الثقافة والفنون،
ورئيس تحرير
مجلة التوباد ،
وأول رئيس
للنادي الأدبي
بالبهاض .

الطبعة

السنة الثامنة

العدد التاسع والعشرون

ربيع الأول ١٤٢٦ هـ

أبريل ٢٠٠٥ م

وإذا نظر إلى واقع الأمة المتردي، وتحقق المآرب الصليبية والصهيونية والاستعمارية - ولا سيما في فلسطين - : فلا يفسّرهُ إلا بأقدار كونية، وعوامل ضعف وراثية من أخريات الدولة العثمانية، وافتقار الأمة يومها إلى قيادات في مستوى عبدالعزيز .. وذلك في البلدان التي هي يومها أعظم موارد طبيعية، وكوادر بشرية .. ومنذ عهد الإمام تركي بن عبدالله آل سعود (وهو يواجه تحديات دولة الاستعمار البريطانية على السواحل) ، وتخاذل دولة الخلافة .. بل وتحالفها منذ سادليمر مع دولة الاستعمار لتحطيم دولة التوحيد .. منذ ذلك العهد إلى توحيد المملكة على يد الملك عبدالعزيز والشبهة منفية عن الأدوار السعودية في مقاومة محوري العداء للحضور العربي الإسلامي ، وهو الاستعمار (بمنطق تحليلي مصلحي) ودول الصليبية ، والصهيونية ،

== أولاً : نعرف نواياهم نحو العرب والمسلمين .

ثانياً : لم تتصل بالعرب لنعرف رأيهم ، وكما ذكرنا فيما تقدم : إذا رغب فخامته أن تقوم باستمزازهم واستطلاع رأيهم نحن نقوم بتحقيق تلك الرغبة حينئذ .. أما الشخص الذي هو الدكتور وايزمن : فهذا الشخص بيني وبينه عداوة خاصة ؛ وذلك لما قام به نحو شخصي من جرأة مجرمة ؛ بتوجيهه إليّ (من دون جميع العرب وأهل الإسلام) تكليفاً دينياً؛ لآكون خائناً لديني وبلادي؛ الأمر الذي يزيد البغض له ولمن ينتسب إليه .. وهذا التكليف قد حدث في أول سنة من هذه الحرب ؛ إذ أرسل إليّ شخصاً أوروبياً معروفاً يكلفني أن أترك مسألة فلسطين وتأييد حقوق العرب والمسلمين فيها ، وسلّم إليّ عشرين مليون جنيه مقابل ذلك ، وأن يكون هذا المبلغ مكفولاً من طرف فخامة الرئيس روزفلت نفسه .. فهل من جرأة أو دناءة أكبر من هذه ، وهل من جريمة أكبر من هذه الجريمة ؟ .. يتجرأ عليها هذا الشخص بمثل هذا التكليف ، ويجعل فخامة الرئيس كفيلاً لمثل هذا العمل الوضيع ؟!! .. إنني لا أشك بأن فخامة الرئيس روزفلت لا يقبل هذا (لا في حقي ، ولا في حقه) .. فهذه من جملة الأسباب التي أريد أن تعرضوها على فخامة الرئيس ؛ حتى يرى إلى أي حد يتجرأ اليهود للوصول إلى غاياتهم الباطلة، وينظر برأيه السديد في هذه الأعمال التي يُغني بيانها عن وصفها» .

والإلحاد (بمنطق أيديولوجي ديني وفكري) .. وأقصى نقدٍ وأمرُهُ للأدوار السعودية أن يقال : دولة العين البصيرة ، واليد القصيرة ، والمنجزات التي تفوق القدرة .. دولة خذلتها وحاربتها - بإجلاب لا مثيل له - دولة الخلافة ، ودول الاستعمار ، وبعض الأشقاء الذين خذلوها بمعاهدات حلف أجني يعني الاستعمار ظاهراً وباطناً ، ومطامع فردية لزعامات محلية داخل الجزيرة وخارجها ؛ فحققت هذه الدولة وجودها العربي الإسلامي السلفي في الجزيرة على الرغم من الإيجابيات الضارة ، والسلبيات في المنافع من الداخل والخارج .

ولم يكن عبدالعزيز في دور المزايدة بقضية فلسطين؛ للأمور التي أسلفتها، ولأنه يومها لم يكن بين شعب ذي وعي سياسي - على مستوى العلماء، أو الجمهور -؛ فتفسَّرَ مواقفه بضغوط شعبية .. بل كان هو في دور التثقيف للشعب ، وتوجيه العلماء إلى تعميم الوعي لدى الرعية بمخاطر الصهيونية، وأحوال اليهود مع المسلمين في فلسطين .. وذلك في رسائل له إلى العلماء ، وبرقيات له إلى أمراء المناطق .

إن مواقف عبدالعزيز من قضية فلسطين ليست وليدة التفنن الإنشائي في هذا العصر .. بل هي مثبتة مدونة في حينها في الوثائق والمذكرات والمراسلات والكتب وتحليلات السياسيين ، وقد تكفل بضميمة منها الأستاذ أحمد بن زيد العتيبي في كتابه الرائد «السعوديون ودورهم في قضية فلسطين» .. وكله بلغة الأرقام والوثائق والإحصاءات والإحالة إلى المصادر المباشرة .. وهو في سياق عشرات من الكتب عن الملك عبدالعزيز ، وفي سياق آحاد من الكتب عن عبدالعزيز والقضية الفلسطينية مثل كتاب : ابن سعود وقضية فلسطين لأحمد عبدالغفور عطار ، وسجل الشرف (ذكرى الخالدين) لفهد المارك ، وكتاب المملكة العربية السعودية وقضايا الصراع العربي الإسرائيلي للدكتور عبدالله الأشعل ، والمملكة

العربية وقضية فلسطين لعائشة علي المسند ، والملك عبدالعزيز آل سعود والقضية الفلسطينية لتاج السر أحمد حران ، وحدود الجزيرة العربية تأليف ولينكسون .
إن عبدالعزيز في تكوينه فوق الشبهة تجاه أعدى عدوٍّ لأمتنا، وهم الصهاينة.. ولو صدر منه موقف خاطئ قاصر - وهو ما لم يحدث ألبتة ، بل الإجماع على حنكة مواقفه - : لكان محمولاً بالضرورة على حسن القصد؛ لأنه متين الدين عقيدة وسلوكاً سلفي النزعة.. وهذا التكوين الديني العلمي لا يلتقي ألبتة مع نازع الحياد في صراع إسلامي يهودي، فما بالك بتهمة الممالة؟
وهو عربي صميم نسباً ، وممارسة ، وموطناً ، وميراثاً تاريخياً ، شديد العصبية لعروبه بشرطها الإسلامي .. وهذا التكوين لا يقبل الوشب في الرقعة العربية والإسلامية ألبتة .

إن عبدالعزيز بين الناب والمخلب يعمل عسكرياً، ويراوغ دبلوماسياً، ويلتزم الحياد ما أمكن .. فلما انتصر الحلفاء ، واقتسموا عالمنا العربي والإسلامي ، وتحكموا فيمن دولته قائمة بحدودها : كان عبدالعزيز يُحكم حبل السياسة مع القوى الغاشمة الغالبة ، ويسوي كل انتصار له عسكري على غرةٍ وانتهاز فرصة بالمحاورة السياسية مع قوى النفوذ .. وليس في معاهدته لبريطانيا العظمى يومها إلا ما يُبيّض وجهه ؛ فلم يتصل عن مسؤوليته تجاه أمتة العربية والإسلامية ، ولم يساوم على شبر .. وكل ما كسبته بريطانيا منه أن أمنت منه ضمّ دويلات تورطت بمعاهدات حماية .. وظل مع ذلك داعماً لحركات التحرر من الاستعمار .. وليس في قدرة عبدالعزيز التشبث بأي حق في محميات بريطانيا مع إبرام الزعامات لعقودها، ورضاهم بذلك ، ومع قوة بريطانيا عالمياً ، وضعفه إقليمياً .. وكانت حادثة الجهراء تجربة قابلها عبدالعزيز بمنطق : لم أمر بها ، ولم تسوّني كما سبق بيانه .

وكسب عبدالعزيز كل شيء. فضم أطراف المملكة، ولم يدع شبراً كان يرى أنه من دولة أجداده، ولم يترك فرصة للتدخل في دستور حكومته بأي تطبيع أجنبي .. وظل دستوره حراً إلى هذا اليوم .. وإلى أن تقوم الساعة إن شاء الله .. وكان أحد المؤسسين الاثنتين لجامعة الدول العربية، واتخذ مكة المكرمة منبراً يمثل جامعة إسلامية .. ولم يحقق هذه الوحدة في ذلك الظرف الحرج ولا بعده إلى هذا اليوم أي زعيم عربي! .
إن حق عبدالعزيز ليس على أبناء شعبه وحسب ، وإنما حقه على العالم العربي والإسلامي أجمع .. بالدعاء له ، وتطبيب ذكره .

باغت عبدالعزيز الأحساء ، وضمها قبل أن تكون في ميراث الحلفاء ، ثم بادر برسالته الدبلوماسية بهذا النص : «بالنظر إلى مشاعري الودية تجاهكم أود أن تكون علاقتي معكم كالعلاقات التي كانت بينكم وبين أسلافي» .

فهذه الرسالة المخنكة بعد تحقيقه الغرض بالنصر العسكري بجنده المحلي الضعيف عدة وعتاداً هي أساس «دور الأسرة السعودية في إقامة الدولة الإسرائيلية»^(١) .. وإذن فلتكن كل مجاملة سياسية مشحون بها التاريخ الدولي سند إدانة بالخيانة ! .
وبعد هذا فطلب عبدالعزيز في خطاب المجاملة بيّض وجهه : لأنه لا تدخل لبريطانيا في نفوذ دولة آبائه المباشر ألبتة على مدار تاريخهم ، وإنما كانوا يقفون دون طلبهم المزيد من سعة النفوذ .. ومع هذا الخطاب المجامل يقول برسي كوكس ضابط المخابرات الإنجليزية في رسالة وجهها لحكومته : «إن تجاهل محاولات الأمير عبدالعزيز المتكررة سوف تحوّل نظرته إلى نظرة عدائية تجاه إنجلترا» .

(١) كتيبٌ لكويّتب نكرة اسمه حمادة إمام يمثل الخواء العلمي ، والبهرج الإنشائي السخيف ، والتضليل المتعمد .. وكثير من دور النشر التي رسالتها الريح المادي المضاعف تشتري النكرات المجاهيل ، وذوي الضمائر الفاسدة: لتغذية أرفف العرض بما يثير القارئ ولو كان كذباً تافهاً.

إنه ليس بنية عبدالعزيز وإن وجدت عنده القدرة - شيمّة عربية - أن يتعرض لجيرانه من الأسر الحاكمة ذات العلاقة التاريخية الحميمة ، وإنما همه الرأفة بضم المستضعفين المشتتين المتناحرين من القبائل والقرى في مقاطعات المملكة الحالية ، وإعادتها إلى حظيرة الدولة الواحدة والدين الواحد ، وتمدينها ، ورعاية قدراتها ، وتوظيفها ، وتعليمها ، وبناء ظل الأمن الوارف عليها .

ولم تأخذ منه المعاهدة مع بريطانيا - كأى معاهدة دولية مشروعة - شيئاً كان له ، ولم تحل بينه وبين حقّ يدّعيه ، ولم تُقيّد واجبه تجاه إخوانه من العرب والمسلمين ، ولم تتدخل في إدارته المحلية .. وكان تبادل المنافع تبادل الند للند .

ولما فرغ عبدالعزيز من همومه الداخلية (بل وفي أثنائها) كان يسعى لبلمسة الجرح بعد خرافة الثورة العربية ، وغدر الحلفاء .. لقد كوّن عبدالعزيز دولته بالله ثم بجهاد نصف قرن ، ولم تنصبه دول الحلفاء في طرفة عين ببلد غير بلده .

والأحداث على سواحل الخليج منذ سادير ، إلى لويس بلي . له : رحلة إلى الرياض ترجمها وحققها وقدم لها د . عبدالرحمن عبدالله الشيخ والدكتور عويضة ابن متيريك الجهني ، مطبوعات جامعة الملك سعود بالرياض ١٤١١هـ / ١٩٩١م ، إلى حملة مدحت باشا الظالمّة على الأحساء : إنما هي تحالف تركي بريطاني على وأد الحضور العربي الإسلامي في جزيرة العرب .. يقول لوريمر عن نفوذ دولة التوحيد العربية الإسلامية - الذي يصفه بالاعتداء - : «ما يزال علينا أن نحلل سياسة الحكومة البريطانية تجاه هذه الاعتداءات المنظمة الوهابية على طول خط مواز للساحل ، ونستطيع أن نصف هذه السياسة بأنها تقوم على غض الطرف في عمان المتصالحة ، والمقاومة المعتدلة في سلطنة عمان ، والمقاومة التي لا مهادنة فيها بالنسبة للبحرين .. وخلال احتلال القوات المصرية لنجد في ١٨٣٨ - ١٨٤٠م كان

الممثل السياسي البريطاني في الخليج مفوضاً بأن يستخدم كل نفوذه لمنعهم من التوسع في أي اتجاه .. وحين حاول الأمير الوهابي بعد أن خَلَفَ القوات المصرية في الأحساء أن يواصل نفس السياسة العدوانية : كان هناك اقتراح بأن يُواجه بالمعارضة نفسها .. لكن حكومة الهند رأت أن مطامع الأمير فيصل في التوسع إنما هي أقل خطورة من مطامع محمد علي : فقررت التريث وانتظار تطور الأحداث ، وانتهاج سياسة متحفظة بعيدة عن التدخل المباشر قدر الإمكان» (١) .

ويقول هذا الصليبي مفتخراً بمواقف دولة الاستعمار العدائية لتقليم الحضور العربي الإسلامي في جزيرة العرب : «وفي سنة ١٨٤٥م ، وإزاء تهديد الوهابيين لمسقط : صدر تفويض للمقيم السياسي بأن ينقل رأي الحكومة البريطانية في هذا الأمر لأمير الوهابيين ، وأن ينظم مظاهرة بحرية .. ولكن أن يكون حريصاً : فيتجنب التهديد بما لا يمكن تنفيذه إلا بإرسال قوات برية من الهند .

وكتب على ضوء هذه التعليمات لكل من أمير الوهابيين ووكيلهم في البريمي ، وأعد في الوقت نفسه أسطولاً قوياً على ساحل الباطنة ، وقد رأينا أن هذه الأعمال قد حققت نتائج مرضية : فرضي الأمير الوهابي ، وانسحبت قواته من ماجيس ، وهبطت الجزية (٢) إلى الحدود المعقولة .

وفي سنة ١٨٥١م حين كانت جزر البحرين مهددة بالغزو من قبل الوهابيين الذين وصل أميرهم نفسه إلى مقربة من الجزر في الأرض المجاورة : أمكن تلافي هذا الخطر حين أمر المقيم العام على مسؤوليته الخاصة كل القوة البحرية البريطانية في الخليج بأن تكون على مقربة من الجزر ، وقد لوحظ بعد هذه الحادثة مباشرة أن

(١) دليل الخليج / القسم التاريخي ١٦٦٢/٣ .

(٢) يعبرون بالجزية عن المعونة التي يأخذها الإمام فيصل من أتباعه من الزكاة وللجهاد .

موقف الأمير فيصل من الحكومة البريطانية (ولفترة على الأقل) أكثر ميلاً إلى التهادن .. وقد كان من الضروري قبل هذا في سنة ١٨٤٦م توجيه إنذار حاسم للحاكم الوهابي في القطيف الذي كان يعطي لنفسه حق التهديد بالقيام بأعمال القرصنة . ومرة أخرى في سنة ١٨٥٣م (وحين كان ابن أمير الوهابيين يهدد عمان بالغزو) استدعى المقيم العام شيوخَ عمان المتصالحة من البريمي إلى الساحل .. حيث عقد معهم معاهدة السلم الشاملة ، ووجه إنذاراً لعبدالله [يعني ابن الإمام فيصل] : نظراً لاحتجازه شيوخ البريمي ، وأرسل سفينة حربية لتقوم بجولة على الساحل ، ووعد بمساعدة سلطان عمان إذا احتاج هذه المساعدة في الدفاع عن عاصمته .. وبهذه الإجراءات كلها أمكن انسحاب الوهابيين من صحار ، وقبولهم الصلح مع السلطان بشروط أقل إجحافاً له من حيث الجزية، وما كان الحصول على هذه النتيجة ممكناً دون كل تلك الإجراءات .

وفي سنة ١٨٥٩م أنقذت البحرية البريطانية البحرين مرة أخرى من نزول الوهابيين إليها نزولاً كان محتملاً أن يكون خطيراً ودائماً ، وقد أثار هذا العمل (بالإضافة لطلب إبعاد أبناء شيخ البحرين السابق من الدمام) غضب أمير الوهابيين وسخط على السياسة البريطانية .

وبالنسبة إلى الهياج الذي حدث في صور سنة ١٨٦٥م : فقد تعهدت الحكومة البريطانية بأن تحصّل من المعتدين على تعويض عنها ، وهذا أمر لم يكن حتى في مقدور سلطان عمان أن يحققه»^(١) .

«ويذكر فيلبي موقف بريطانيا العدائي من عبدالعزيز أيام لم تعترف به حاكماً لنجد والأحساء ؛ لعلاقتها الحميمة يومها بتركيا ، ويذكر توصية حكومة الهند

(١) المصدر السابق ص ١٦٦٣ - ١٦٦٤ .

البريطانية لسادليير - بعد كارثة الدرعية - بمظاهرة الدولة ، واتخاذ احتياطات صارمة ضد أي عودة لقوة الوهابيين»^(١) .

وعن موقفه رحمه الله من قضية فلسطين قال الأستاذ الزركلي : « ظلت قضية فلسطين شغل العالم العربي (ثم العالم الإسلامي) زهاء خمسة وأربعين عاماً ، ولا تزال .. ويمكن العود قليلاً إلى ما قبل ذلك .. إلى اليوم الذي أبرز فيه أحد رجالات العرب (شكري العسلي الدمشقي) طابعاً صهيونياً للبريد عرضه على مجلس النواب العثماني عام ١٩١٢م محذراً من خطر الصهيونية ، وداعياً إلى مقاومتها .

ومرّت بفلسطين أحداث ، وقامت فيها بعد الحرب العامة الأولى ثورات ليس هنا مجال الإسهاب في تفصيلها، ووقف العرب وجهاً لوجه أمام السياسة البريطانية، وأمام وعد بلفور لليهود بإنشاء وطن قومي لهم في تلك البقعة المقدسة من بلاد العرب والإسلام ، ودخلت أمريكا في معترك السياسة الدولية بعد ذلك : فكانت في قضية فلسطين ضغثاً على إِبالة^(٢) .. وكانت للملك عبدالعزيز مواقف

(١) بعثة إلى نجد ص ٧٥ .

(٢) ضغثاً على إِبالة : الإِبالة حزمة الحشيش أو الحطب، والضغث كل ما ملأ الكف من النبات.. وفسر الزبيدي هذا المثل في تاج العروس ٦/١٤ بقوله : أي بلية على أخرى كانت قبلها.. قال أبو عبد الرحمن : هذا مثل عربي اشتهر ، ولا أعرف الوجه لجعل حزمة الحشيش والحطب بلية، ثم جعل قبضة النبات بلية أخرى ١١٩ .. مع أن الضغث أقل من الإِبالة ، والمستغرب ما كان أكبر وأكثر بعد ما هو أقل وأصغر .. قال أبو الفضل الميداني [- ت ٥١٨هـ] في مجمع الأمثال ٤١٩/١ رقم ٢٢٠٢ : « الإِبالة الحزمة من الحطب ، والضغث قبضة من حشيش مختلطة الرطب باليابس .. ويُروى إِبالة .. وبعضهم يقول : إِبالة مخففاً ، وأنشد :

في كل يوم من ذؤالة ضغث يزيد على إِبالة
ومعنى المثل بلية على أخرى» .

وأورد البيت في تاج العروس ٢٥٠/١٤ بصيغة : لي يوم .. وقال : ذؤالة كثمامة اسم رجل ، وأيضاً الذئب ، وهي معرفة لا تنصرف للعلمية والتأنيث .. والبيت لأسماء بن خارجة .

العربي المسلم الصحيح العروبة، الصادق الإسلام؛ فساهم في قضية فلسطين بسعيه، وماله، ورجاله .. كما ساهم في القضايا العربية الأخرى بما كان يرى حِفْظه في سجل الدواوين ولا يأذن في نشره»^(١) .

قال أبو عبدالرحمن: وأوعب ما صدر عن علاقات عبدالعزيز ببريطانيا كتاب «حدود الجزيرة العربية / قصة الدور البريطاني في رسم الحدود عبر الصحراء» لمؤلفه جون . س . ولينكسون بترجمة مجدي عبدالكريم .. وليس في هذه الكتب ، وليس في تلك المفاوضات والمعاهدات : أن الحجاز ، أو قضية فلسطين هي محور العلاقة .. بل بيت القصيد الحد من طموح ابن سعود إلى ضم بلدان مربوطة بالحماية الأجنبية ربطاً رسمياً، وأن بريطانيا سلباً تساومه على ما هو جزء من المملكة العربية السعودية الآن .. وإيجاباً تقدم له بعض المنافع - التي يقتضيها التعاقد العلني المشرف -؛ ليتخلى عن أجزاء ليست من المملكة الآن .. كان عبدالعزيز يدعئها تاريخياً بمختلف الحجج الدبلوماسية الذكية .. قال ولينكسون : «ومن ناحية أخرى فإن ابن سعود ألمح في أول لقاء له تلا لقاء عرض فيه وجهات نظره : أنه مستعد جزئياً لإسقاط أو التفاوض عن حقوق أجداده ، وأشار ابن سعود [إلى أنه] بالرغم [من] أن مطالبه في ساحل عمان وقطر هي جزء من سيادة وسلطة أجداده، ويمكنه بسط نفوذه هناك .. إلا أنه راغب تماماً في تلبية رغبات الحكومة البريطانية فيما يتعلق بهما .. وأوضح أن السبب الوحيد الذي جعله يمسك عن السيطرة على قطر وساحل عمان بعد احتلال الأحساء والقطيف هو رغبته ألا يخسر تعاطف الحكومة البريطانية (مذكرة اجتماع ابن سعود ١٥ و١٦ ديسمبر سنة ١٩١٣م) .

هذا من جانب ابن سعود .. أما السبب الذي دفع بريطانيا إلى التفاوض مع

(١) شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز ١٠٧١/٣ .

ابن سعود هو تحقيق بعض أشكال التفاهم معه (وإن ظلت المشكلة التي تواجه بريطانيا قبل الحرب كيفية توقيع اتفاقية رسمية معه، وإلى أي مدى تكون؟)»^(١) .

وقال - وفي ذلك الإيماء إلى زعامته الحقيقية التلقائية - : «وظل الأتراك حائزين لقطر والبحرين (وحتى قبل عام من اندلاع الحرب) .. لكن الوضع في الأحساء مختلف ؛ فقبل سيطرة ابن سعود كانت سلطة العثمانيين هشة إلى حد كبير جداً .. إن الاحتلال التركي قبل مايو سنة ١٩١٣م لم يكن له تأثير كبير بأي حال ، وابن سعود نفذ حملته في مايو سنة ١٩١٣م ، وكان قادراً قبل ذلك في أي وقت في السنوات الخمس الأخيرة .. رسالة شكسبير إلى هرتزل ٢٦ يونيو ١٩١٤م .

وفي مايو ١٩١٣م فقد الأتراك السيطرة نهائياً على ذلك الإقليم ، ووجد العرب الآن قائداً يقف عالياً بقامته الشامخة ، ورأسه يعلو أي زعيم آخر ، وكل المشايخ الآخرين في الحلف العربي يرجعون إليه في شتى الموضوعات سائلين النصيحة (وخاصة الذين يؤثرون علاقاتهم بالباب العالي)»^(٢) .

قال أبو عبدالرحمن : ومما يدل على أن عناء عبدالعزيز في سبيل توحيد الجزيرة (وهو بين المخلب والناب) كان مباغتات ، واهتبال فرص ، ثم جهداً دبلوماسياً ویرسّخ الأمر الواقع الجديد أمران :
أولهما : الاطلاع على تاريخ معاركه .

وثانيهما : شهادة خصومه الأجانب الذين يراقبون كل تحركاته .. قال ولينكسون : «ورغم كل ذلك اللجاج القانوني فإن ابن سعود قد حصل على استقلاله عن الأتراك دون مزيد من المفاوضات مع بريطانيا»^(٣) .

(١) حدود الجزيرة العربية ص ١٥ - ١٥١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٨ - ١٥٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦١ .

قال أبو عبدالرحمن : كان اقتراح من وزير الدولة لشؤون الهند هذا نصه :
«أحب أن تعتبروا وتفكروا فيما إذا كانت تلك المعاهدة يجب أن تتضمن مادة ونصاً يُقَيِّد ابن سعود فيما يتعلق بالوضع الراهن للحدود وتحديدها ، وألا يتدخل في البحرين والكويت أو إمارات ساحل الصلح .. ولكن أترك ذلك لتوجيه نائب الحكومة»^(١) .

وقال ولينكسون : «ولذلك رسمت بريطانيا المنطقة التي اعتبرتها ملكاً لابن سعود في المشروع الأصلي البريطاني، وهي نجد والأحساء ، والقطيف .. وابن سعود أوضح بدوره أن تلك التحديدات غير ملائمة ، وأضاف : إن تلك المناطق والأماكن لها توابعها .. ولكن ما هي حدودها بوضوح ١٩١٤ .. إنما تتحدد في وقت لاحق»^(٢) .

وقال : «من الواضح أن ابن سعود كان يؤكِّد على استقلاله المطلق ، ولم يكن مجرد حاكم لبعض الأراضي المعيّنة ، ولكن صعد بذلك إلى مرتبه من بلد^(٣) ، وكان زعيماً مطلقاً لقبائلها وحاكمها بالوراثة .

وبعض من مغزى نص عبارة الأجداد لم يكن واضحاً لدى بريطانيا في ذلك الوقت ، وذلك خطأً بريطانيا ؛ لأن ابن سعود فسّر لهم ما كان يعنيه كل مرة التقى بهم منذ سنة ١٩١١م ، وقرر وأكد على أن الاتفاقية التي تحدد مسار العلاقات المستقبلية بينهما رسمياً يجب أن تعترف باستمرارية حقوقه التاريخية .. وخاصة إذا عدنا واستحضرنا ذلك التفاهم الذي تم بين آبائه على عهد بللي ، ففي المقابل كانت

(١) انظر المصدر السابق ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٠ .

(٣) قال أبو عبدالرحمن : لا ريب أن الترجمة سيئة غير موصلة ؛ ولهذا كانت الجملة الأخيرة غير مفهومة .

بريطانيا أقل اهتماماً بـماضيهِ عن مستقبلهِ، وهو أيضاً من جانبهِ تمسك وأصر على تخوم تلك الأراضي الموروثة»^(١) .

وقال : «وكانت بريطانيا راضية بالصفقة التي أبرمتها مع ابن سعود .. وخاصة فيما يتعلق بعدم الاعتداء على قطر والبحرين والكويت وإمارات ساحل الصلح.. وهذا ما يحتاج إلى فحص وتقييم لصلته بمستقبل النزاع على الحدود .

اعترف وزير الدولة للشؤون الخارجية : «إن أراضي المحميات يجب أن تكون موضوعاً لتحديد فوري للحدود» .. وجاء في المشروع البريطاني : يلتزم ابن سعود كما فعل آباؤه بالامتناع عن أعمال العدوان على (أو التدخل في) أراضي الكويت ، والبحرين، وقطر، وساحل عمان ، وضد الزعماء والقبائل الآخرين في المحميات الخاضعة لحماية حكومة صاحبة الجلالة البريطانية، والتي تتحدد حدودها وتتقرر فيما بعد . وفي النص الذي وقّع عليه ابن سعود ، وأعادته إلى كوكس (أدخل عليه تعديلاً جاء فيه) : يلتزم ابن سعود - كما فعل آباؤه - بالامتناع عن أعمال العدوان على (أو التدخل في) أراضي الكويت، والبحرين، ومشيخات قطر وساحل عمان والخاضعين^(٢) لحماية حكومة صاحبة الجلالة البريطانية ، ولهم معاهدات مع الحكومة البريطانية والتي تتحدد حدودها ، وستقرر فيما بعده .. هذا النص المعدل كان مقبولاً بعدما ألغيا قبل حذف^(٣) عبارة : «والزعماء والقبائل الآخرين» ؛ لأن ابن سعود قال : إن

(١) المرجع السابق ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٢) الواو قبل «الخاضعين» لحن في هذا السياق ؛ لأن المراد بالخاضعين من سبق ذكرهم ، ولا عطف بين الصفة والموصوف - وسياق التعديل في باقي العبارة يدل على أن الخاضعين وصف لا عطف .

(٣) هكذا في الأصل ، والعبارة غير مفهومة لسوء الترجمة .. ولعل الصواب «حذف» بدون ألغيا .. أو ألغيا بدون كلمة حذف .

كل الزعماء الذين تحميهم بريطانيا قد ذكروا من قبل ؛ ولذا فالعبارة زائدة»^(١) .
قال أبو عبدالرحمن : ولا أزال على تأكيد الحقيقة بأن أمهات المنافع لدى
بريطانيا في كل علاقاتها مع ابن سعود : أن لا يجرها تجاه محمياتها ..
وعبدالعزيز رحمه الله يعلم أن تعرضه لتحرير المحميات دخول حرب مع القوى
الأجنبية ، وهو لا يستطيع ذلك ، ولا يثق بالنتائج .. وإنما كان رحمه الله يضرب
على هذا الوتر ، ويساوم بريطانيا على ما في يدها ؛ ليأخذ راحتته في إعادة توحيد
دولة لم يحكمها الأجنبي قط .. قال ولينكسون : «إن إعادة ابن سعود توطيد سلطته
كان له آثار على كل منطقة النفوذ البريطاني في جنوب شرق الجزيرة العربية ،
وأصبح نذير سوء متزايد ؛ لأن ابن سعود وسَّع دولته ، وكانت قطر في مقدمة
الأهداف العاجلة .. وطبقاً للوكيل السياسي : إن ابن سعود سيبتلعها»^(٢) .
وأشار ولينكسون إلى طرف من نذر السوء في تقديرهم نتيجة الانتصارات
لعبدالعزيز؛ فقال عن عبدالعزيز: «وفي سنة ١٩٢٣م كان مستفيداً من سلسلة
الاغتيالات في داخل أسرة آل بو فالح؛ لبسط نفوذه في أبو ظبي .. وفي سنة
١٩٢٥م، وفي فترة غزوه للحجاز؛ وصلت الأحوال القبلية المضطربة في ساحل عمان
والظاهرية إلى مرحلة مالت فيها قبائل العوامر وآل بوشمس إلى حاكمه القوي على
الأحساء عبدالله بن جلوى؛ لحمايتهم من بني ياس والناصر، ولقي هذا المطلب
الترحيب والسرور .. ونصحت أبو ظبي، وقيل لها: إن القبائل الجديدة تحت حكم آل
سعود وحمايتهم .. وظهر جامعو الزكاة في منطقة البوريمي ؛ لجمع الزكاة من
القبائل الخاضعة جديداً لحكمهم»^(٣) .

(١) المرجع السابق ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١٨٩ .

وقال: «اجتمع المؤتمر التسعده الاطراف في لندن لسنة ١٩٢٦م: للنظر في الإجراءات والتدابير: لاحتواء التوسع السعودي في جنوب شرقي الجزيرة العربية»^(١). قال أبو عبد الرحمن: إن الملك عبدالعزيز رحمه الله يريد إعادة دولة التوحيد في جزيرة العرب .. سواء ما كان حكماً مباشراً لأجداده ، وما كان منطقة نفوذ وخضوع لتاريخه العريق .. ولكنه أمام قوى كبرى تتصارع على الأطماع .. وفي وقت الثورة على الأديان ، وفصلها عن الحكم ، وعلمنة الدول .. فأما العلمنة فلن يرضاها ولو ضمت له كل الأقطار ، وأما مناطق نفوذ أجداده فيعلم أنها في فك الأسد ، وأنها متورطة بمعاهدات الحماية والاحتلال .. وأما محل الحكم المباشر ، والدستور الإسلامي المتوارث - الذي سيأتي التعبير عنه في كتابات الأجانب بالروح الوهابية: فهذا موضع حياة أو موت بالنسبة لعبد العزيز ، ولديه كل الحجج بأن المجتمع واحد ، والدين واحد ، وأن الرقعة هي الوجهة لطموح العالم العربي والإسلامي : لهذا كانت تحركاته العسكرية مباغيات ومبادرات بنموذج أمثل للحكم ، وكان تحركه الدبلوماسي لا يبعد عن التحليلات التي أوردها ولينكسون .. قال : «قبل أن ترى ما حدث باندلاع الحرب العالمية الأولى فمن المفيد التوقف على رأي ابن سعود ، ونظرته للمعاهدات والاتفاقيات من زاوية طموحاته الشخصية .. وقد رصد «جلود برج» في تحليلاته لسياسة ابن سعود الخارجية حتى سنة ١٩١٨م : أن تلك الاتفاقيات - وأياً كان أطرافها (البريطانيين ، أم الأتراك) - : فإن ابن سعود لم يخلق خلافاً بين نظرته وسياسته : فهو واقعي .. وفي سبيل إعادة تكوين دولته كان عليه ألا يتبنى السياسة التوسعية الوهابية القديمة ، وكان يفرق بين تلك المناطق التي يعتبر لنفسه حرية حركة فيها ، وبين تلك التي يمكن أن يلقي فيها مقاومة أجنبية .. وهو لذلك كان

(١) المرجع السابق ص ١٩١ .

رجلاً ذا رأي صحيح ، ورجل دولة في التعامل مع القوى الخارجية .. وكان ذلك يشكّل عدم انسجام بين سياسة خارجية برجماتية^(١) ولا تنتمي للوهابية ، وبين السياسة الداخلية التي قامت وتطورت على أساس من الروح الوهابية .. وهذا أدى بالطبع إلى مواجهة مع الإخوان في سنة ١٩٢٩ م .

وترى باحثة أخرى «هليمز» : أن ابن سعود لم يفضل بريطانيا العظمى على الإمبراطورية العثمانية ، ولكن رأى الأولى باعتبارها القاطرة الملائمة لتأمين حقوق أسرته ، ونستنتج من ذلك : «من الواضح أن عبدالعزيز لم يكن متحفظاً في التفاوض مع أي من بريطانيا أو الدولة العثمانية ، ولكن هدفه الأساس هو تأمين حقوق أسرته ؛ ليحكم وسط الجزيرة العربية» .. وحتى بعد اندلاع الحرب اعتقدت الباحثة : «أن ابن سعود ، وولاءاته : ظلت متناقضة بين القوتين الخارجيتين ، وتأثيرهما على طموحاته الإقليمية»^(٢) .

عبدالعزيز وموجز الإصلاح الداخلي :

وعندما ظهر عبدالعزيز إلى بلاده لِلْمُ الشمل لم يكن أمام رعية ذات وعي علمي تُطالب بما لم يخطر على بال الحاكم من إصلاح ، وحينئذ يقال : نزل الحاكم على الرغم منه لمطالب رعيته ، وليس بوسعه غير ذلك ! .. كلا .. فقد كان الذين يفكون الخط في القرى الكبيرة على أصابع اليد .. ولو أراد الخلود إلى الراحة لكان من طبعهم الأمي أن يريحوه !! .. ولكنه كان مثل من يقود الناس إلى الجنة بالسلاسل ، ولم يكن غرضه أن يظل حاكماً لأمة يبرزها هو في مواهبه ؛ فيترك

(١) أي نفعية ، وانظر عن هذا المصطلح فلسفياً المعجم الفلسفي الصادر عن مجمع اللغة العربية

ص ٣٢ - ٣٣ ، والمعجم الفلسفي لجميل صليبا ٢٠٣/١ - ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٢ .

الوعي للقيادة ، ويترك الرعية في عماء معزولة عن العالم وحدها .. بل كان طموحه أن يبعث الأمة من همودها ، وأن يوقظها من سباتها .. ولقد أبرق له كبير من أهل القرى يسترحم منه إعفاء أهل بلده من فتح مدرسة ابتدائية ، فرد الملك عبدالعزيز رحمه الله ببرقية موجزها : « لا بد من تعليم أهل القرية حتى لا يكونوا ثيراناً مثلك » .. هكذا كان هذا الأب الكبير يجاهد العامة لمصلحتهم !! .. كان هذا همه قبل أن يكتشف الذهب الأسود والأحمر ، فبعث المرشدين وأنصاف العلماء لتوعية الكبار في الهجر والقرى ، وفتح المدارس النظامية في المدن وكبار القرى لتدريس الشباب ، وأذن بالمدارس الأهلية ، وشجّع على ذلك ، وتحسس أخبار الرعية ، فكل من آنس عنده علماً خرطه - بالإرغام أحياناً - في سلك التدريس والقضاء والحسبة والإرشاد ، ولما شحت الكفاءات عن تغطية الساحة فتح باب البعثة للخارج .. وطالت محاورته لسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمهما الله حتى أقنعه باستقدام أساتذة مصريين يتحرى عنهم سماحته مسبقاً ويشرف عليهم .. والعجيب أن هذا الأب الكبير في هذا الطرف العصيب يبعث للبلدان من يضغط عليهم ويقنعهم ببعث أولادهم لمراكز التعليم كدار التوحيد مثلاً !! .

وظل يحارب نصف قرن مُرغماً لتوحيد بلاد مقسمة ، وتجميع أمة مفككة .. أكثر هذه المدة قبل توحيد الجزيرة ، وقليل منها بعد توحيدها لحماية الوحدة ، ومن أجل حفظ مكاسب الرعية .. إن حروبه ذاتها إصلاح إلا أنه كان يقول : أحب شيئاً إليّ السلم : لأتفرغ للإصلاح .

إن عبدالعزيز لم ينزل على رغبة الجماهير في تحقيق وُشْل من الإصلاح يتغنى به الإعلام الدعائي أشهراً ، وإنما كان يحارب الجماهير الأمية ليفرض عليها الإصلاح .. إن كل مخالف لنا في الملة والنحلة عدو لنا يكرهنا ، ولكن الغريبيين بهرهم

موقف عبدالعزيز من الحياة الأمية؛ فأعلنوا إعجابهم بقيادته الحضارية، وكيف حوّل الجيل الأمي الممزق إلى مهارة تحترف الزراعة وغيرها في السلم، وتؤلّف جيشاً في الحرب؛ ولهذا كان رمز الراية كلمة التوحيد والسيف والنخلة .. كلمة التوحيد في السلم والحرب، والنخلة رمز الحرفة والعمارة، والسيف لحماية الحياة الكريمة .

إن استماتة عبدالعزيز في فرض الإصلاح نتيجة لما أشار إليه فيلبي في الذكرى الذهبية من تقدير ابن سعود ضعف المجتمع الذي جاء لإنقاذه بإذن الله .. كان مجتمعاً حضرياً غارقاً في الكدح لا ينال البلغة، ولا يعرف الحرب إلا لضرورة الدفاع عن النفس .. وكان مجتمعاً بدوياً لا يعرف الحرفة، ولا يقتات إلا من نهب أبناء العم، ومن ماشية قُتل مالكا ظلماً وعدواناً؛ فنظّم عبدالعزيز الملكة الحربية لدى البدوي في نظام عسكري تبعاً لأهداف سامية، وألّف القلوب على ذلك، وضرب بيد من حديد على من أراد إذهاب الريح بنعرة قبلية .. وفي الوقت نفسه جمعهم ومَدَّيْنَهُم لعمارة الأرض، وأبقى الحضري على طموحه في التعمير، وشجعه وجدد له الوسائل .. وفي الوقت نفسه نظّم منهم جنده للحرب، وجعلهم القلب لجيشه إذا سار كهيئة الطائر بجناحين ذي ميمنة وقلب وميسرة .. نظّم ملكتهم الحربية؛ لأنه يعرف بلاءهم منذ الإمام محمد بن سعود .

لقد نجح عبدالعزيز في ترسيخ الهدف الديني والقومي والوطني في قلوب الأميين، وصان الشجاعة والفروسية الثرية في الجزيرة أن تُهدر في ضياع الأمة .. وهو نجاح حققته استجابة طموحة لا تعترف بأدنى قوة على الأرض، وقد أسقط صبيان التوحيد الطائرة بالبندقية البدائية وقتلوا الطيار عنوة .

وخاف عبدالعزيز من منتهى الطرفين؛ لأن لديه معادلات ليست عندهم؛

لأنه ذو وعي سياسي يملك به حساً ورؤية .

والرسائل والمسائل النجدية وما في حكمها تدل على أن تخوُّف عبدالعزيز صاحب تصميمه على غرس المبادئ : ولهذا بكرَّ بيعت الدعاة والمرشدين من المطاوعة ومن العلماء يحذرون الناس من مغبة الغلو، ومن تدين بلا تأصيل يضع المعادلات بين المصالح والمفاسد .. وفي كتابي «مسائل من تاريخ الجزيرة» تناولت مسيرة الحركة الفكرية - ديناً ، وثقافة ، وسياسة - فيما بين عام ١٢٩١هـ وتوحيد المملكة العربية السعودية .

خصوصية الرقعة والأمة :

قال أبو عبد الرحمن : إن ملك آل سعود ملك رحمة، وتلك خصوصية تليق بخصوصية جزيرة العرب؛ فمن خصوصياتها كما استقرأها شيخنا الشيخ الدكتور بكر أبو زيد : أنها دار توحيد خالص في الجملة وإن دب الخلل في جزء أو أجزاء منها ، والكمال أن يخلص لها التوحيد .. ولآل سعوداً وُلِّيَّةٌ جمعها على التوحيد بعد تفتت شملها ؛ فكان ذلك مصداقاً - على الكمال - : لقول رسول الله ﷺ : إن الشيطان يئس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب .. ولكن في التحريش بينهم .. رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه .

وعلى تأويل من تأول أن المراد جميع الأمة - وهذا صحيح بغير دلالة هذا الحديث - : فيكون لتخصيص الجزيرة بالذكر معنى بلاغي، وهي أنها دار الإسلام ، ومادة المسلمين : فتكون الدولة (المتميزة بتحقيق مدلول الحديث) دولةً جامعة لأهل أكرم بقعة على أقوم دين ؛ فتكون دولة رحمة .

ومن خصوصية الجزيرة حرص الرسول ﷺ أن تكون داراً خالصة للمسلمين؛ لقوله ﷺ : «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً» .. رواه مسلم في صحيحه من حديث عمر رضي الله عنه .. ولقوله ﷺ : «لا يبقين دينان في أرض العرب» .. متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها .

وجاءت الدولة السعودية بخصوصية المنع من منح الجنسية لكافر ، وبالمنع من إحداث الكنائس والبُيَع والصوامع ومعابد الوثنيين^(١) .

ومن خصائصها منطوق حديث ابن عمر رضي الله عنهما الذي رواه مسلم في صحيحه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها» .. فتأسست الدولة السعودية بهذا الحديث، وكانت مأوى لكل مضايق في دينه الإسلامي، ولا تصدق الغربية لمن يأوي إليها إلا على من كان سلفياً؛ لأن الغربية غربة ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه.

قال أبو عبدالرحمن: ومن خصوصيتها أنها دار العرب، والدولة عربية صميمة، والعرب مادة الإسلام لخلاتقهم التي لا يزاخمهم فيها أي جنس .. قال شيخنا الدكتور بكر أبو زيد : «وعن خصائصهم تتبع وتقيدت كثيراً ؛ فوجدت أن ما وقفت عليه مشمول بما هو مدون في كتاب أم القرى ص ٢١٨ - ٢٢٢ ، وعنه في مجلة المنار ٨٦١/٥ - ٨٦٢ ؛ فها أنا ذا أسوقه باختصار قليل : «وحيث كانت الجمعية لا يعينها غير أمر النهضة الدينية : بناء عليه رأت الجمعية من الضروري أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها ، وأهلها ومن يجاريهم ، وأن تبسط لأنظار الأمة ما هي خصائص الجزيرة وأهلها والعرب عموماً ؛ وذلك لأجل رفع التعصب السياسي أو الجنسي .. ولأجل إيضاح أسباب ميل الجمعية للعرب فنقول :

(١) قال الأستاذ أحمد عسة - كما في كتاب الملك عبدالعزيز ورؤية عالمية ص ٥٤٣ - : «وقد ربح جلالته معركة توطيد سيادة بلاده ، كما أصر على تنفيذ الحدود الشرعية على كل مسلم يسكن الحجاز وإن كان يحمل جنسية أجنبية ؛ لأن أرض الحجاز أرض المسلمين دون تمييز ؛ كما لم يسمح بإقامة محاكم أجنبية تنظر في القضايا التي يختصم فيها الأجانب بينهم أو يكون أحد الأجانب طرفاً .. وذلك في زمن كانت المحاكم الأجنبية منتشرة في البلاد العربية الأخرى ، شاهدة على انتقاص سيادتها الوطنية على أرضها» .

- ١ - الجزيرة هي مشرق النور الإسلامي .
- ٢ - الجزيرة فيها الكعبة المعظمة .
- ٣ - الجزيرة فيها المسجد النبوي ، وفيه الروضة المطهرة .
- ٤ - الجزيرة أنسب المواقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية : لتوسطها بين أقصى آسية شرقاً وأقصى إفريقية غرباً .
- ٥ - الجزيرة أسلم الأقاليم من الأخلاط ، جنسية ، وأدياناً ، ومذاهب .
- ٦ - الجزيرة أبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب .
- ٧ - الجزيرة أفضل الأراضي لأن تكون ديار أحرار؛ لبعدها عن الطامعين والمزاحمين؛ نظراً لفقرها الطبيعي .
- ٨ - عرب الجزيرة هم مؤسسو الجامعة الإسلامية ؛ لظهور الدين فيهم^(١) .
- ٩ - عرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلق بالدين .
- ١٠ - عرب الجزيرة أعلم المسلمين بقواعد الدين ؛ لأنهم أعرقهم فيه ، ومشهود لهم بأحاديث كثيرة بالمتانة في الإيمان .
- ١١ - عرب الجزيرة أكثر المسلمين حرصاً على حفظ الدين ، وتأيينه ، والفخر به .. خصوصاً والعصبية النبوية لم تزل قائمة بين أظهرهم في الحجاز ، واليمن ، وعمّان ، وحضرموت ، والعراق ، وإفريقية^(٢) .
- ١٢ - عرب الجزيرة لم يزل الدين عندهم حنيفاً ، سلفياً ، بعيداً عن التشديد والتشويش .
- ١٣ - عرب الجزيرة أقوى المسلمين عصبية ، وأشدّهم أنفة ؛ لما فيهم من الخصائص البدوية .

(١) وكذلك من يتبعهم من العشائر القاطنة بين الفرات ودجلة ، والنازحين إلى إفريقية [بكر] .

(٢) قال أبو عبد الرحمن: ليس العراق وإفريقية من الجزيرة ؛ فلعله أراد العرب المقيمين هناك.

١٤- عرب الجزيرة أمراؤهم جامعون بين شرف الآباء والأمهات والزوجات : فلم تختل عزتهم .

١٥- عرب الجزيرة أقدم الأمم مدنية مهذبة : بدليلى : سعة لغتهم ، وسمو حكمتهم وأدبياتهم .

١٦- عرب الجزيرة أقدر المسلمين على تحمل قشف المعيشة في سبيل مقاصدهم ، وأنشطهم على التغرب والسياحات : وذلك لبعدهم عن الترف المذل أهله .

١٧- عرب الجزيرة أحفظ الأقوام على جنسيتهم ، وعاداتهم : فهم يخالطون ولا يختلطون .

١٨ - عرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية على الحرية والاستقلال وإباء الضيم^(١) .

١٩- العرب عموماً لغتهم أغنى لغات المسلمين في المعارف ، ومصونة بالقرآن الكريم من أن تموت .

٢٠- العرب لغتهم هي اللغة العمومية بين كافة المسلمين البالغ عددهم ٣٠٠ مليون^(٢) .

٢٢- العرب أقدم الأمم اتباعاً لأصول تساوي الحقوق ، وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية .

٢١- العرب لغتهم هي اللغة الخصوصية لمئة مليون من المسلمين وغير المسلمين .

٢٣- العرب أعرق الأمم في أصول الشورى في الشؤون العمومية^(٣) .

(١) هذا سبب عدم انقياد أهل اليمن ومن يليهم للعثمانيين [بكر] .

(٢) وعددهم الآن أضعاف ذلك [بكر] .

(٣) يشهد لهم بذلك القرآن الكريم في قصة بلقيس مع سليمان عليه السلام؛ حيث قالت تخاطب الملأ (أي المستشارين الأشراف): ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونُ﴾ * قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿سورة النمل/ ٣٢ - ٣٤﴾ .. [بكر] .

- ٢٤- العرب أهدي الأمم لاصول المعيشة .
- ٢٥- العرب من أحرص الأمم على احترام العهود عزة، واحترام الذمة إنسانية، واحترام الجوار شهامة ، وبذل المعروف مروءة .
- ٢٦- العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين ، وقدوة للمسلمين ، حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء ؛ فلا يأنفون عن اتباعهم أخيراً .
- والجمعية تسأل الله تعالى أن يوفق ملوك المسلمين وأمراءهم للتصلب في الدين، وللحزم ، والعزم .. عساهم يحفظون عزهم وسلطانهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأن يحميهم من التعصب السيئ للسياسات والجنسيات، ومن الكبر والأنفة ، ومن التخاذل والانقسام، ومن الانقياد إلى وساوس الأجانب الأضداد .. وإلا فينتابهم الخطر القريب المحقق بهم، وتتخاطفهم النصور المحلقة في سمائهم .. والله الموفق ، وإليه ترجع الأمور .. انتهى باختصار يسير»^(١) .
- وقال الشيخ الدكتور بكر : «وقد عقد الله بين العرب والإسلام ، ثم بين الحجاز والأمة الإسلامية ، ثم بين الحرمين الشريفين وقلوب المسلمين للأبد ، وربط مصير أحدهما بالآخر»^(٢) .
- وقال : «سلطان الحاكمية فيها [أي جزيرة العرب] لا يجوز أن يكون لغير دولة التوحيد ، وراية التوحيد .. ومن عجائب المقدور ، ولطائف الحي القيوم ، (لأمر خير يريده الله، وهو سبحانه أعلم بالأحوال في هذه الأمة المرحومة إن شاء الله تعالى) : صار العلمُ الولائي في قلب هذه الجزيرة يحمل كلمة التوحيد، وهكذا كان اللواء الأبيض للنبي ﷺ مكتوباً عليه : «لا إله إلا الله محمد رسول الله» .. رواه أحمد

(١) خصائص جزيرة العرب ص ٦٣ - ٦٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٨ .

والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما^(١) : ولهذا فإن الأعلام إن نكست - ابتداءً - لموت العظماء : فإن هذا هو العلم الوحيد الذي يكون تنكيسه من أشد مواطن الإثم والجناح^(٢) .

وبالجملة فلا تُساس الأمة بغير شرع الله (الإسلام) كما قال حسان

رضي الله عنه :

وما الدين إلا أن تقام شرائع وتؤمن سبل بيننا وهضاب^(٣)

(١) انظر التفصيل عن رايات النبي ص وألويته في «التراتب الإدارية» ٣١٧/١ - ٣٢٣ للكتاني ، وكتاب «العلم العثماني» لأحمد تيمور [بكر] .

(٢) قال الأستاذ عبدالله بلخير عن حادثة قتل الملك غازي بكتاب «عبدالله بلخير يتذكر» ص ١٥٤ يقص لقاءه بمعالي السيد حمزة غوث الوزير المفوض ببغداد : «قلت له : بأنتي جئت الآن للتشرف بالسلام عليك ، وأداء هذا الواجب عليّ كطالب سعودي ، ولأنتي قد مشيت اليوم في مواكب شارع الرشيد : فسمعت من تحدث إلى جمع الناس بصوت عال : بأن المفوضية السعودية لم تعلن حدادها بتنكيس علمها على سارية المفوضية ، وأن من استمعوا منه ذلك استكروه ؛ فقال لهم : تستطيعون أن تذهبوا لحي الوزيرية لتتروا المفوضية ، وأن علمها غير منشور ولا منكس ؛ فرأيت من وطنيتي وواجبي أن أسأل من بين الجماهير وأبادر بالمجيء إليكم ؛ لأخبركم بما سمعت لمعلوماتكم ، وأنتم تعلمون ما لا نعلم .. على أنني كنت عازماً أن أجد في هذين اليومين فرصة أجيء لزيارتكم والتعرف عليكم .. فابتسم السيد حمزة وقد رأيته وجلاً ، وقال لي : اهدأ يا بني : إن علمنا لا يرفع منكساً في أي حادث من الأحداث .. وزاد عليها : حتى - لا سمح الله - لو مات الملك عبدالعزيز نفسه ؛ فهذه التعليمات قد صدرت إلينا من الملك عبدالعزيز نفسه منذ بضعة أشهر على أثر استفسارنا منه يوم مات الملك جورج الخامس ، ما الذي نفعل ؟ .. فبلغت الممثلات السعوديات كلها في الخارج بأمر جلالته أن العلم السعودي يحمل شهادة التوحيد ؛ فلا ينكس لموت أحد ، ولا يرفع لمولد أحد .. وحدادنا في مثل هذه الأحداث ألا نرفع العلم حتى لا ننكسه ، وهذا موقفنا اليوم من هذا الحدث الحزين الذي أحزن الملك عبدالعزيز بدون شك» .

(٣) خصائص جزيرة العرب ص ٨٠ - ٨١ .. قال أبو عبد الرحمن : والبيت لم أجده في ديوان حسان تحقيق سيد حنفي حسنين / دار المعارف ، وكذلك طبعة دار صادر .

أمُ الخصائص ملكُ رحمة :

قال أبو عبد الرحمن : وأختم بما وعدت به من تحرير مسائل فقهية عن ملك الرحمة ، والملك العضوض ، والرأي في ملوك المسلمين بعد الخلافة الراشدة .. وقد أقيمت البرهان : أن ملك آل سعود ملك رحمة ، وأنه أمثل حكومة قائمة على وجه الأرض بعد الخلافة الراشدة ، وأن ملك الرحمة وجد في هذه العصور المتأخرة ، ووجد الملك العضوض في القرون الممدوحة ، ومع هذا أوجب الله للملك العضوض حقوقاً : فملك الرحمة أولى بتلك الحقوق وأوجب .

وملك الغلبة والجبرية كما أخبر به رسول الله ﷺ وقع في التاريخ طمعاً في الحكم ، وسفكت فيه دماء في سبيل إسقاط دولة إسلامية وإقامة غيرها من أجل حب السلطة .. ووقع فيها ظلم ، وكانت دولة إسلامية لم ينفصل فيها الدين عن الدولة والحياة .. ومع هذا أوجب الله حقها على الرعية من أجل المصلحة الكبرى للجماعة .. قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رحم الله جميعهم : «ومن عرف القواعد الشرعية عرف ضرورة الناس وحاجتهم في دينهم ودنياهم إلى الجماعة والإمامة ، وقد تغلب من تغلب في آخر عهد أصحاب رسول الله ﷺ ، وأعطوه حكم الإمام ، ولم ينازعوه كما فعل ابن عمر وغيره .. مع أنها أخذت بالقهر والغلبة ، وكذلك بعدهم في عصر الطبقة الثالثة تغلب من تغلب ، وجرت أحكام الجماعة والإمامة ، ولم يختلف أحد في ذلك .. وغالب الأئمة بعدهم على هذا القبيل وهذا النمط ، ومع ذلك فأهل العلم والدين يأترون بما أمروا به من المعروف، وينتهون عما نهوا عنه من المنكر، ويجاهدون مع كل إمام كما هو منصوص عليه في عقائد أهل السنة» (١) .. وقال رحمه الله عن المتغلب : «وصارت له ولاية بالغلبة

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ١٧٢/٣ - ١٧٣ .

والقهر تُنفذ بها أحكامه ، وتجب طاعته في المعروف كما عليه أهل العلم كافة على تقادم الأعصار وممر الدهور .. ومن أشكل عليه شيء من ذلك فليراجع كتب الإجماع كمصنف ابن حزم ، ومصنف ابن هبيرة ، وما ذكره الحنابلة وغيرهم»^(١) .

وقال رحمه الله رداً على الساعين في الفتنة : «ثم هنا مسألة أخرى ، وداهية كبرى دهم بها الشيطان كثيراً من الناس ؛ فصاروا يسعون فيما يفرق جماعة المسلمين ، ويوجب الاختلاف في الدين ، وما ذمه الكتاب المبين ، ويقضي بالإخلاق إلى الأرض ، وترك الجهاد ، ونصرة دين رب العالمين ، ويفضي إلى منع الزكوات ، ويشب نار الفتن والضلالات ؛ فتلطف الشيطان في إدخال هذه المكيدة ، ونصب لها حججاً ومقدمات ، وأوهمهم أن طاعة بعض المتغلبين فيما أمر الله به ورسوله من واجبات الإيمان ، وفيما فيه دفع عن الإسلام ، وحماية لحوزته : لا تجب والحالة هذه ، ولا تشرع .. ولم يدر هؤلاء المفتونون أن أكثر ولاية أهل الإسلام من عهد يزيد ابن معاوية - حاشى عمر بن عبدالعزيز ، ومن شاء الله من بني أمية - قد وقع منهم ما وقع من الجراءة ، والحوادث العظام ، والخروج والفساد في ولاية أهل الإسلام .. ومع ذلك فسيرة الأئمة الأعلام ، والسادة العظام معهم معروفة مشهورة .. لا ينزعون يداً من طاعة فيما أمر الله به ورسوله من شرائع الإسلام وواجبات الدين .. وأضرب لك مثلاً بالحجاج بن يوسف الثقفي ، وقد اشتهر أمره في الأمة : بالظلم ، والغشم، والإسراف في سفك الدماء ، وانتهاك حرمة الله ، وقتل من قتل من سادات الأمة كسعيد بن جبير ، وحاصر ابن الزبير وقد عاذ بالحرم الشريف ، واستباح الحرمه ، وقتل ابن الزبير (مع أن ابن الزبير قد أعطاه الطاعة وبايعه عامة أهل مكة والمدينة واليمن وأكثر سواد العراق) .. والحجاج نائب عن مروان ثم عن

(١) المصدر السابق ٧٠/٣ ، وانظر ص ٧١ .

ولده عبد الملك . ولم يعهد أحد من الخلفاء إلى مروان . ولم يبايعه أهل الحل والعقد . ومع ذلك لم يتوقف أحد من أهل العلم في طاعته والانقياد فيما تسوغ طاعته فيه من أركان الإسلام وواجباته .. وكان ابن عمر [رضي الله عنهما] ومن أدرك الحجاج من أصحاب رسول الله ﷺ [رضي الله عنهم] لا ينازعونه ولا يمتنعون من طاعته فيما يقوم به الإسلام ، ويكمل به الإيمان ، وكذلك من في زمنه من التابعين كابن المسيب والحسن البصري وابن سيرين وإبراهيم التيمي وأشباههم ونظرائهم من سادات الأمة ، واستمر العمل على هذا بين علماء الأمة من سادات الأمة وأئمتها .. يأمرون بطاعة الله ورسوله ، والجهاد في سبيله مع كل إمام بر أو فاجر كما هو معروف في كتب أصول الدين والعقائد .

وكذلك بنو العباس استولوا على بلاد المسلمين قهراً بالسيف لم يساعدهم أحد من أهل العلم والدين ، وقتلوا خلقاً كثيراً ، وجمعاً غفيراً من بني أمية وأمرائهم ونوابهم ، وقتلوا ابن هبيرة أمير العراق ، وقتلوا الخليفة مروان .. حتى نُقل أن السفاح قتل في يوم واحد نحو الثمانين من بني أمية ، ووضع الفُرش على جثثهم ، وجلس عليها ، ودعا بالمطاعم والمشارب .. ومع ذلك فسيرة الأئمة كالأوزاعي ومالك والزهري والليث بن سعد وعطاء بن أبي رباح مع هؤلاء الملوك لا تخفى على من له أدنى مشاركة في العلم والاطلاع .. والطبقة الثانية من أهل العلم كأحمد بن حنبل ومحمد بن إسماعيل ومحمد بن إدريس وأحمد بن نوح وإسحق بن راهويه وإخوانهم وقع في عصرهم من الملوك ما وقع من البدع العظام ، وإنكار الصفات ، ودُعوا إلى ذلك ، وامتنحوا فيه ، وقتل من قتل كمحمد بن نصر .. ومع ذلك فلا يُعلم أن أحداً منهم نزع يداً من طاعة ، ولا رأى الخروج عليهم»^(١) .

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ٦٢/٣ .

وقال الشيخ عبداللطيف رحمه الله: «وقد عرفتم مبنى هذه الفتنة وأولها، والحكم في أهلها وجندها، ثم صار لهم دولة بالغلبة والسيف، واستولوا على أكثر بلاد المسلمين وديارهم، وصارت الإمامة لهم بهذا الوجه ومن هذا الطريق كما عليه العمل عند أهل العلم كافة من أهل الأمصار في أعصار متطاولة .. ومثل ذلك ولاية آل مروان لم تصدر لا عن بيعة ولا رأي ولا عن رضا من أهل العلم والدين؛ بل بالغلبة .. حتى صار على ابن الزبير ما صار، وانقاد لهم سائر أهل القرى والأمصار .. وذلك^(١) مبدأ الدولة العباسية، ومخرجها من خراسان، وزعيمها رجل فارسي مُدَّعى أيامهم صال^(٢) على من يليه، ودعا إلى الدولة العباسية، وشهر السيف، وقتل من امتنع عن ذلك وقاتل عليه، وقتل ابن هبيرة أمير العراق، وقتل خلقاً كثيراً لا يحصيهم إلا الله، وظهرت الرايات السود العباسية، وجاسوا خلال الديار قتلاً ونهباً في أواخر القرن الأول، وشاهد ذلك أهل القرن الثاني والثالث من أهل العلم والدين وأئمة الإسلام .. كما لا يخفى على من شم رائحة العلم، وصار على نصيب من معرفة التاريخ وأيام الناس . وأهل العلم مع هذه الحوادث متفقون على طاعة من تغلب عليهم في المعروف .. يرون نفوذ أحكامه، وصحة إمامته^(٣) .. لا يختلف في ذلك اثنان، ويرون المنع من الخروج عليهم بالسيف وتفريق الأمة (وإن كان الأئمة فسقة) ما لم يروا كفراً بواحاً، ونصوصهم في ذلك موجودة عن الأئمة الأربعة وغيرهم وأمثالهم ونظرائهم^(٤) .

(١) قال أبو عبد الرحمن: هكذا في الأصل المطبوع، ولعل الصواب: «وثاني ذلك» أو «وبعد ذلك» .

(٢) هكذا في الأصل المطبوع، ولعل الصواب: «يدعي ولأهم، فصال» أو ما يقرب من ذلك .. أما كون أبي مسلم مُدَّعى أيام بني العباس فلا أعرف وجهه .

(٣) قال أبو عبد الرحمن: إذا صحت الإمامة وجبت البيعة، وهي تصح حال الغلبة .

(٤) مجموعة الرسائل والمسائل ١٦٧/٣ - ١٦٨ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : «قال الله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾^(١) . ولما كان ظلوماً جهولاً - وذلك يقع من الرعاة تارة . ومن الرعية تارة ، ومن غيرهم تارة - كان من العلم والعدل المأمور به الصبر على ظلم الأئمة وجورهم؛ كما هو من أصول أهل السنة والجماعة، وكما أمر به النبي ﷺ في الأحاديث المشهورة عنه لما قال: «إنكم ستلقون بعدي أثرة؛ فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».. وقال: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه».. إلى أمثال ذلك .. وقال: «أدوا إليهم الذي لهم، واسألوا الله الذي لكم»، ونهوا عن قتالهم ما صلّوا، وذلك لأن معهم أصل الدين المقصود، وهو توحيد الله وعبادته، ومعهم حسنات، وترك سيئات كثيرة. وأما ما يقع من ظلمهم وجورهم بتأويل سائغ، أو غير سائغ؛ فلا يجوز أن يزال لما فيه من ظلم وجور .. كما هو عادة أكثر النفوس تزيل الشر بما هو شر منه، وتزيل العدوان بما هو أعدى منه؛ فالخروج عليهم يوجب من الظلم والفساد أكثر من ظلمهم؛ فيصبر عليه كما يُصبر عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ظلم المأمور والمنهي في مواضع كثيرة كقوله: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾^(٢)، وقوله: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾^(٣)، وقوله: ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾^(٤).. وهذا عام في ولاية الأمور وفي الرعية ، إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ؛ فعليهم أن يصبروا على ما أصيبوا به في ذات الله كما يصبر المجاهدون على ما يصاب من أنفسهم وأموالهم؛ فالصبر على الأذى في العرض أولى وأولى؛ وذلك لأن مصلحة الأمر والنهي لا تتم إلا بذلك، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ..

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٢ .

(٢) سورة لقمان ، الآية : ١٧ .

(٣) سورة الأحقاف ، الآية : ٣٥ .

(٤) سورة الطور ، الآية : ٤٨ .

ويندرج في ذلك ولاية الأمور؛ فإن عليهم من الصبر والحلم ما ليس على غيرهم ، كما أن عليهم من الشجاعة والسماحة ما ليس على غيرهم ؛ لأن مصلحة الإمارة لا تتم إلا بذلك؛ فكما وجب على الأئمة الصبر على أذى الرعية وظلمها إذا لم تتم المصلحة إلا بذلك (إذ كان تركه يفضي إلى فساد أكثر منه) فكذلك يجب على الرعية الصبر على جور الأئمة وظلمهم إذا لم يكن في ترك الصبر مفسدة راجحة» (١) .

وقال: «يجب أن يُعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين: بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها ؛ فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ، ولابد لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال النبي ﷺ : «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم» .. رواه أبو داود من حديث أبي سعيد ، وأبي هريرة .. وروى الإمام أحمد في المسند : عن عبدالله بن عمرو [رضي الله عنهما] : أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم» ؛ فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر ؛ تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع ، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة ، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمعة والأعياد ونصر المظلوم، وإقامة الحدود: لا يتم إلا بالقوة والإمارة؛ ولهذا روي: «إن السلطان ظل الله في الأرض» (٢) .. ويقال : «ستون سنة من إمام جائر أصلح من

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٧٩/٢٨ - ١٨٠ .

(٢) انظر عن ضعف الحديث سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ٦٥٩/٣ - ٦٦٠ رقم ١٤٦٥ و١٥٩-١٦٢ رقم ١٦٦٠ و ١٦٦١ و ١٦٦٢ و ١٦٦٤ ، والدرر المنتورة للسيوطي ص ١٢٧ - ١٢٨ .. وحسن الألباني في سلسلة الأحاديث ٣٧٥-٣٧٦ رقم ٢٢٩٧ حديث: «من أكرم سلطان الله تبارك وتعالى في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة ، ومن أهان سلطان الله تبارك وتعالى في الدنيا أهانه الله يوم القيامة .. وانظر أيضاً: سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤ / ١٦١ آخر رقم ١٦٦٢ .

ليلة واحدة بلا سلطان.. والتجربة تبين ذلك: ولهذا كان السلف - كالفضيل بن عياض ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهما - يقولون : لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان .. وقال النبي ﷺ : إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تتأصخوا من ولاء الله أمركم .. رواه مسلم .. وقال: «ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين: فإن دعوتهم تحيط من ورائهم» .. رواه أهل السنن، وفي الصحيح عنه أنه قال: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة .. قالوا : لمن يا رسول الله ؟.. قال : لله ، ولكتابه، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين، وعامتهم» .. فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يُتقرب بها إلى الله؛ فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها، وقد روى كعب بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ذنبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» .. قال الترمذي حديث حسن صحيح؛ فأخبر أن حرص المرء على المال والرياسة يفسد دينه مثل أو أكثر من فساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم .. وقد أخبر الله تعالى عن الذي يؤتى كتابه بشماله أنه يقول: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيُ * هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ﴾ [سورة الحاقة/ ٢٨ - ٢٩] (١) .

قال أبو عبد الرحمن : وخلافة النبوة كانت مرهونة بجيل مثالي لا يتكرر؛ لأنهم أفضل الأمة بلا خلاف ، ولقد سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه - وهو آخر الخلفاء الراشدين - : لماذا اختلف الناس عليك ، ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؟ .. فقال رضي الله عنه: لأنهم خلفاء على مثلي ، وأنا خليفة على مثلك!!.

وقضى قدر الله الكوني أن تنتهي الخلافة الراشدة بذلك الجيل الفريد من الصحابة رضي الله عنهم ، وقضى قدر الله الكوني وخبره الشرعي الصادق أن يلي الخلافة الراشدة أنماط من السلطة أفضلها ملك الرحمة ، وإليكم البيان :

قال أبو داوود رحمه الله : «حدثنا محمد بن المثنى : حدثنا محمد بن عبدالله الأنصاري : حدثنا الأشعث : عن الحسن : عن أبي بكرة [رضي الله عنه] أن النبي ﷺ قال ذات يوم : «من رأى منكم رؤيا ؟.. فقال رجل : أنا رأيت كأن ميزاناً نزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر ؛ فَرَجَحْتَ [فَرَجَحَتْ] أنت بأبي بكر ، ووزن [ثم وزن] أبو بكر وعمر فَرَجَحَ [فَرَجَحَ] أبو بكر ووزن عمر وعثمان فرجح عمر ، ثم رفع الميزان فرأينا الكراهية في وجه رسول الله ﷺ» .

حدثنا موسى بن إسماعيل : حدثنا حماد : عن علي بن زيد : عن عبدالرحمن ابن أبي بكرة: عن أبيه [رضي الله عنه] أن النبي ﷺ قال ذات يوم: «أيكم رأى رؤيا؛ فذكر معناه ، ولم يذكر الكراهية .. قال : فاستاء لها رسول الله ﷺ - يعني فساءه ذلك - ، فقال : خلافة نبوة ثم يؤتي الله الملك من يشاء»^(١) .

وقال أبو الطيب الآبادي عن محل الشاهد من الحديث الأخير: «قال الطيبي: دل إضافة الخلافة إلى النبوة على أن لا ثبوت فيها من طلب الملك والمنازعة فيه لأحد ، وكانت خلافة الشيخين رضي الله عنهما على هذا .. وكون المرجوحية انتهت إلى عثمان رضي الله عنه دل على حصول المنازعة فيها، وأن الخلافة في زمن عثمان وعلي رضي الله عنهما مشوبة بالملك ؛ فأما بعدهما فكانت ملكاً عضوضاً انتهى .. وقد بسط الكلام فيما يتعلق بالخلافة [البسط] الذي لا مزيد عليه الشيخ الأجل المحدث ولي الله الدهلوي في إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء (وهو كتاب لم يؤلف

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داوود ٢٥٢/٢ - ٢٥٣ .

مثله في هذا الباب). وفي كتابه قرة العينين في تفضيل الشيخين، والله أعلم.. قال المنذري: في إسناده علي بن زيد بن جدعان القرشي التيمي، ولا يحتج بحديثه»^(١).

قال أبو عبد الرحمن : ليست خلافة عثمان وعلي رضي الله عنهما مشوبة بالملك : لأنهما لم يطلبوا الأمر ، وإنما طالبا بحق البيعة بعد حصول الاختلاف عليهما : فخلافتهما راشدة ، وهما من الخلفاء الراشدين ، وإنما دل الخلاف على سوء الزمان وأهله بالنسبة إلى ما قبله، ورجح أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بفضلهما في ذاتهما، ورجحت خلافتهما بعدم الاختلاف عليهما.. وأما الردة وحروبها فليست خلافاً على أبي بكر رضي الله عنه لذاته، أو لذات خلافته ، وإنما هي خلاف للإسلام وأهله .. وأما ضعف الحديث بعلي بن جدعان؛ فقد أجاب عن ذلك المحدث المحقق ناصر الدين الألباني؛ فقال: «حديث صحيح ، ورجاله ثقات غير علي بن زيد (وهو ابن جدعان) ، وهو ضعيف من قبل حفظه؛ لكن يشهد له حديث سفينة الذي ذكرته آنفاً»^(٢).

وقال : «وتابعه أشعث بن عبد الملك الحمراني : عن الحسن : عن أبي بكرة به نحوه دون قوله : فقال : خلافة ...»^(٣).

قال أبو عبد الرحمن : هو حديث سفينة الذي ذكره قبل ذلك ؛ فقال : «رواه مؤمل بن إسماعيل : حدثنا حماد بن سلمة : عن سعيد بن جمهان : عن سفينة أن رجلاً قال : يا رسول الله : رأيت كأن ميزاناً دُلِّي من السماء .. الحديث، وفي آخره : فاستاء لها رسول الله ﷺ ، ثم قال : خلافة نبوة ، ثم يؤتي الله الملك من يشاء .

(١) المرجع السابق ٢٥٣/٢ .

(٢) ظلال الجنة في تخريج السنة / خلال كتاب السنة لابن أبي عاصم ٥٢٢/٢ .

(٣) ظلال الجنة ص ٥٢٢ .

وقال الهيثمي في زوائد البزار: إسناده حسن .. كذا قال ، ومؤمل فيه ضعف : لكنه يُقَوَّى بحديث أبي بكرة^(١) .

وقال : أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين .. ورده الذهبي بقوله: أشعث هذا ثقة؛ لكن ما احتجا به .. وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .. وأقول : إن كان الحسن (وهو البصري) سمعه من أبي بكرة : فإنه مدلس ، وقد صرح بالتحديث في غير ما حديث عنه ؛ فاعل هذا منها ، ولكني لم أجد الآن تحديته فيه^(٢) .

وقال أبو يعلى الموصلي : «حدثنا أبو خيثمة : حدثنا جرير : عن ليث : عن عبدالرحمن بن سابط : عن أبي ثعلبة الخشني قال : كان أبو عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل [رضي الله عنهما] يتناجيان بينهما بحديث ؛ فقلت لهما : ما حفظتما وصية رسول الله ﷺ بي ؟ .. قال : وكان أوصاهما بي .. قالوا : ما أردنا أن نَنَجِّيَ بشيئٍ دونك ، إنما ذكرنا حديثاً حدثنا رسول الله ﷺ ؛ فجعلنا يتذاكرانه .. قالوا : إنه بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة ، ثم كائن خلافة ورحمة ، ثم كائن^(٣) ملكاً عضوضاً ، ثم كائن عتواً وجبرية وفساداً في الأمة .. يستحلون الحرير والخمور والفروج ، والفساد في الأمة !.. يُنصرون على ذلك ويُبرزقون أبداً حتى يلقوا الله»^(٤) .

قال الشيخ الألباني : «والحديث أخرجه أبو يعلى من طريق جرير ، وأبو نعيم في «الدلائل» عن فضيل بن عياض .. كلاهما عن ليث به .. إلا أن البزار لم يذكر

(١) المرجع السابق ص ٥٢١ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٢٢ .

(٣) قال أبو عبدالرحمن : اسم كائن ضمير عائد إلى الأمر المذكور آنفاً .

(٤) مسند أبي يعلى ٤٠٠/١ .

معاذاً .. ورواه الطبراني عن معاذ . وأبي عبيدة معاً نحوه .. قال الهيثمي : «وفيه
ليث بن أبي سليم وهو ثقة، ولكنه مدلس، وبقيّة رجاله ثقات».

قلت : ولي عليه ملاحظات :

الأولى : ما ذكره في الليث خطأ محض كثيراً ما يقع فيه الهيثمي رحمه الله ،
وقد تعقبه الحافظ ابن حجر في غير هذا الحديث ؛ فقال في «زوائد البزار»
ص ٢٩٧ : ما علمت أحداً صرح بأنه ثقة ، ولا من وصفه بالتدليس قبل الشيخ» .
الثانية : أنه مع رمية إياه بالتدليس قد قال في «زوائد البزار» عقب الحديث :
«هذا إسناد حسن» .

الثالثة : أن قوله ذلك يوهّم أنه تفرد به وليس كذلك ؛ فقد قال البزار :
حدثنا محمد بن مسكين : حدثنا يحيى بن حسان : حدثنا يحيى بن حمزة :
عن مكحول : عن أبي ثعلبة : عن أبي عبيدة بن الجراح مرفوعاً به .
قلت : وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات .. رجال مسلم ، ولكنه معلول بالانقطاع
في موضعين :

الأول : بين مكحول وأبي ثعلبة ؛ فإنه مرسل لم يسمع منه .
والآخر : أنهم لم يذكروا يحيى بن حمزة في الرواة عن مكحول ، وسنه مما
يبعد صحة السماع منه؛ فإنه كان له نحو عشر سنين حين مات مكحول والله أعلم ..
لكن الحديث صحيح؛ لأن له شواهد يتقوى بها منها^(١) .. ثم ذكر حديث سفينة وأبي
بكرة المذكورين آنفاً .

وقال أبو محمد عبدالله بن عبد الرحمن الدارمي : أخبرنا مروان بن محمد :
حدثنا يحيى بن حمزة : حدثني أبو وهب : عن مكحول : عن أبي ثعلبة الخشني :

(١) ظلال الجنة ٥٢١/٢ .

عن أبي عبيدة ابن الجراح [رضي الله عنهم] قال : قال رسول الله ﷺ : «أول دينكم نبوة ورحمة ، ثم ملك ورحمة ، ثم ملك أعفر ، ثم ملك وجبروت .. يستحل فيها الخمر والحريير .

قال أبو محمد : سئل عن أعفر فقال: يشبهه بالتراب، وليس فيه خير»^(١).

وقال الطبراني : «حدثنا أحمد بن النضر العسكري : حدثنا سعيد بن حفص النفيلي : حدثنا موسى بن أعين: عن ابن شهاب: عن فطر بن خليفة: عن مجاهد: عن ابن عباس رضي الله عنهما [.. قال : قال رسول الله ﷺ : «أول هذا الأمر نبوة ورحمة ، ثم يكون خلافة ورحمة ، ثم يكون ملكاً ورحمة ، ثم يكون إمارة ورحمة ، ثم يتكادمون عليه تكادم الحمر ؛ فعليكم بالجهاد ، وإن أفضل جهادكم الرباط ، وإن أفضل رباطكم عسقلان»^(٢) .. قال الهيثمي : رجاله ثقات .

وقال الإمام أحمد : «حدثنا سليمان بن داوود الطيالسي : حدثني داوود ابن إبراهيم الواسطي : حدثني حبيب بن سالم : عن النعمان بن بشير [رضي الله عنه] قال: كنا قعوداً في المسجد مع رسول الله ﷺ (وكان بشير رجلاً يكف حديثه) ؛ فجاء أبو ثعلبة الخشني فقال : يا بشر بن سعد : أت حفظ حديث رسول الله ﷺ في الأمراء ..؟ فقال حذيفة : أنا أحفظ خطبته ؛ فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة: قال رسول الله ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ؛ فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً ؛ فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرية؛ فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن

(١) سنن الدارمي ٥٤٩/١ رقم ٢٠٢٦ .

(٢) المعجم الكبير ٨٨/١١ رقم ١١١٣٨ .

يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة»، ثم سكت .. قال حبيب: فلما قام عمر بن عبدالعزيز^(١) (وكان يزيد بن النعمان بن بشير في صحابته): فكتبت إليه بهذا الحديث أذكره إياه ، فقلت له : إني أرجو أن يكون أمير المؤمنين (يعني عمر) بعد الملك العاض والجبرية : فأدخل كتابي على عمر بن عبدالعزيز : فسر به وأعجبه^(٢) .

قال الهيثمي : «رواه أحمد في ترجمة النعمان ، والبزار أتم منه ، والطبراني ببعضه في الأوسط ، ورجاله ثقات»^(٣) .

وقال الهيثمي أيضاً : «وعن أبي ثعلبة الخشني قال : لقيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله : ادفني إلى رجل حسن التعليم : فدفني إلى أبي عبيدة بن الجراح ، ثم قال : «قد دفعتك إلى رجل يحسن تعليمك وأدبك» .. فأتيت وبشير بن سعد أبو النعمان يتحدثان) : فلما رأياني سكتا : فقلت : يا أبا عبيدة : والله ما هكذا حدثني رسول الله ﷺ .. قال : فاجلس حتى نحدثك : فقال : قال رسول الله ﷺ : «إن فيكم النبوة ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم تكون ملكاً وجبرية» .. رواه الطبراني وفيه : رجل لم يسم ، ورجل مجهول أيضاً^(٤) .

قال أبو عبد الرحمن: ليست صفة ملك الرحمة في كيفية التحمل، وإنما هي في كيفية الأداء .. كما أن تحمل ملك الرحمة ببيعة شرعية حكم صحيح مشروع، وقد ذكرت في أكثر من مناسبة أن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم لم ينتخبوا من الدهماء على طريقة الجمهوريات والأحزاب؛ بل كانت مبايعتهم إما بنص، وإما بعهد من الخليفة،

(١) أي تولى الأمر .

(٢) مسند الإمام أحمد ٣٨٤/٦ - ٣٨٥ .

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (متن بغية الرائد) ٣٤٢/٥ .

(٤) المرجع السابق ٣٤٣/٥ .

وإما بانتخاب من فئة معينة، ثم انعقدت البيعة بمبايعة أهل الحل والعقد لا الدهماء.. قال أبو عبدالرحمن : وورد النص صريحاً بتسمية بعض الملوك خلفاء .. قال الإمام مسلم : «حدثنا قتيبة بن سعيد : حدثنا جرير : عن حصين : عن جابر بن سمرة [رضي الله عنه] .. قال : سمعت النبي ﷺ يقول : ح (١) .. وحدثنا رفاعة ابن الهيثم الواسطي - واللفظ له - : حدثنا خالد (يعني ابن عبدالله الطحان) : عن حصين : عن جابر بن سمرة قال : دخلت مع أبي علي النبي ﷺ ؛ فسمعته يقول : «إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة» ، قال : ثم تكلم بكلام خفي علي .. قال : فقلت لأبي : ما قال ؟ .. قال : كلهم من قريش .

حدثنا ابن أبي عمر : حدثنا سفيان : عن عبدالملك بن عمير : عن جابر ابن سمرة [رضي الله عنه] قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً» ، ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت علي ؛ فسألت أبي : ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ .. فقال : كلهم من قريش .

وحدثنا قتيبة بن سعيد : حدثنا أبو عوانة : عن سماك بن جابر بن سمرة : عن النبي ﷺ بهذا الحديث ، ولم يذكر لا يزال أمر الناس ماضياً .

حدثنا هدا بن خالد الأزدي : حدثنا حماد بن سلمة : عن سماك بن حرب .. قال : سمعت جابر بن سمرة [رضي الله عنه] يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة» .. ثم قال كلمة لم أفهمها ؛ فقلت لأبي : ما قال ؟ .. فقال : كلهم من قريش .

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا أبو معاوية : عن داوود : عن الشعبي : عن جابر

(١) الحاء علامة التحويل إلى سند آخر للمتن يجمع السندين في شيخ واحد .

ابن سمرة [رضي الله عنه] قال: قال النبي ﷺ: «لا يزال هذا الأمر عزيزاً إلى اثني عشر خليفة» .. قال: ثم تكلم بشيئ لم أفهمه: فقلت لأبي: ما قال ؟ .. قال: كلهم من قريش .
حدثنا نصر بن علي الجهضمي : حدثنا يزيد بن زريع : حدثنا ابن عون : ح ..
وحدثنا أحمد بن عثمان النوفلي - واللفظ له - : حدثنا أزهر : حدثنا ابن عون :
عن الشعبي : عن جابر بن سمرة [رضي الله عنه] قال : انطلقت إلى رسول الله ﷺ
ومعي أبي : فسمعتة يقول : لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة ..
فقال كلمة صمّئها الناس : فقلت لأبي : ما قال ؟ .. قال : كلهم من قريش .

حدثنا قتيبة بن سعيد ، وأبو بكر بن أبي شيبة قالوا : حدثنا حاتم - وهو ابن
إسماعيل - : عن المهاجر بن مسمار : عن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال : كتبت
إلى جابر بن سمرة [رضي الله عنه] مع غلامي نافع : أن أخبرني بشيئ سمعتة من
رسول الله ﷺ ؟ .. قال : فكتب إلي : سمعت رسول الله ﷺ يوم الجمعة عشية رجم
الأسلمي يقول : لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة ، أو يكون عليكم اثنا عشر
خليفة كلهم من قريش .. وسمعتة يقول : عُصيبة من المسلمين يفتتحون البيت
الأبيض بيت كسرى (أو آل كسرى) .. وسمعتة يقول : إن بين يدي الساعة كذا بين
فاحذروهم .. وسمعتة يقول: إذا أعطى الله أحدكم خيراً فليبدأ بنفسه وأهل بيته ..
وسمعتة يقول : أنا الفرط على الحوض .

حدثنا محمد بن رافع : حدثنا ابن أبي فديك : حدثنا ابن أبي ذئب : عن مهاجر
ابن مسمار: عن عامر بن سعد: أنه أرسل إلى ابن سمرة العدوي [رضي الله عنه] :
حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ ؟ .. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: فذكر
نحو حديث حاتم» (١) .

(١) صحيح مسلم ٤٠٧/١٢ - ٤٠٩ .

قال أبو عبدالرحمن : هذه نصوص صريحة صحيحة في تسمية الملوك خلفاء .. ومن ظواهر ملك الرحمة : إقامة دولة إسلامية على أنقاض شتات ليس فيه دولة ، وعصمة على المجتمع ، وسلامة النظام من محظورات الشرع ، والقيام برسوم الشرع قضاء وفتوى وحسبة وتعليماً ودعوة .

قال أبو عبدالرحمن: إذن صح الخبر الشرعي بخلافة النبوة الراشدة وأمدها، وصح الخبر الشرعي بأن أمر الأمة الإسلامية ماضٍ ما وليهم اثنا عشر رجلاً كلهم من قريش ، وأن الأمر اجتمع على ملوك من قريش صدق وصفهم شرعاً بأنهم خلفاء، ووردت نصوص أخر تدل على أن رجحان رسول الله ﷺ بأبي بكر ، ورجحان أبي بكر بعمر : من رؤيا رسول الله ﷺ لا من رؤيا غيره .. وقال الإمام أحمد بن حنبل : «حدثنا أبو داود وعمر بن سعد : حدثنا بدر بن عثمان : عن عبيد الله بن مروان : عن أبي عائشة : عن ابن عمر قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات غداة بعد طلوع الشمس ، فقال : رأيت قبيل الفجر كأنني أعطيت المقاليد والموازين : فأما المقاليد فهذه المفاتيح ، وأما الموازين فهذه التي تزنون بها ؛ فوضعت في كفة ، ووضعت أمتي في كفة ، فوزنت بهم ؛ فرجحت .. ثم جيء بأبي بكر فوزن بهم فوزن ، ثم جيء بعمر فوزن فوزن ، ثم جيئ بعثمان فوزن بهم ، ثم رفعت» (١) .

وقال ابن أبي عاصم : «حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو داود الحفري عمر بن سعد: عن بدر بن عثمان: عن عبد الله بن أبي مروان: عن أبي عائشة: عن ابن عمر [رضي الله عنهما] قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : رأيت آنفاً كأنني أعطيت المقاليد والموازين: فأما المقاليد فهي المفاتيح؛ فوضعت في كفة، ووضعت أمتي في كفة؛ فرجحت لهم، ثم جيء بأبي بكر فرجح بهم، ثم جيء بعمر

فرجح بهم . ثم جيء بعثمان فرجح ، ثم رفعت .. فقال له رجل : فأين نحن ؟ .. قال :
أنتم حيث جعلتم أنفسكم» (١) .

قال الشيخ الألباني : «حديث صحيح ورجال إسناده ثقات .. رجال مسلم غير
عبيد الله بن مروان .. لا يعرف إلا من رواية بدر بن عثمان، ومع ذلك وثقه ابن حبان ..
وأبو عائشة الظاهر أنه مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي أبو عائشة .
والحديث أخرجه أحمد : حدثنا أبو داود عمر بن سعد به .. وقال الهيثمي :
رواه أحمد والطبراني .. رجاله ثقات» (٢) .

قال أبو عبد الرحمن : وورد أن الرؤيا لرجل ، وليست لرسول الله ﷺ .. وهذا
الحديث أقوى سنداً ، وتلك الأحاديث أكثر طرقاً .. والجمع باحتمال أضعف : أن
الواقعة تكررَّت للرسول ﷺ وللرجل .. والاحتمال الأقوى : أن الرؤيا للرسول ﷺ ،
وأنه سأل هل رأى أحد رؤياً ، وأن رجلاً رأى رؤياً لا علاقة لها برؤيا الرسول ﷺ :
فالرواة الأولون لم يحفظوا فظنوها رواية الرجل ، وابن عمر رضي الله عنهما اكتفى
برؤيا رسول الله ﷺ .. وعلى فرض أنها من رؤيا الرجل ؛ فالرسول ﷺ عبرها ، وعلّق
بتأويلها خبراً من وحي ربه .. وههنا اختلاف للعلماء في فهم المراد من بعض هذه
النصوص أذكره ، ثم أعقب عليه .. قال النووي : «قوله ﷺ : «إن هذا الأمر لا ينقضي حتى
يمضي فيهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش» ، وفي رواية : «لا يزال أمر الناس
ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً كلهم من قريش» ، وفي رواية : «لا يزال الإسلام
عزيزاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش» .. قال القاضي : قد توجه هنا سؤالان :
أحدهما : أنه قد جاء في الحديث الآخر : الخلافة بعدي ثلاثون سنة ، ثم

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٣٦٨ رقم ٥٤٧٠ .

(٢) ظلال الجنة / شرح السنة ٢/٥٢٥ .

تكون ملكاً .. وهذا مخالف لحديث اثني عشر خليفة : فإنه لم يكن في ثلاثين سنة إلا الخلفاء الراشدون الأربعة ، والأشهر التي بويع فيها الحسن بن علي [رضي الله عنهما] .. قال: والجواب عن هذا: أن المراد في حديث الخلافة ثلاثون سنة خلافة النبوة ، وقد جاء مفسراً في بعض الروايات : خلافة النبوة بعدي ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكاً ، ولم يشترط هذا في الاثني عشر .

والسؤال الثاني : أنه قد ولي أكثر من هذا العدد .. قال : وهذا اعتراض باطل : لأنه ﷺ لم يقل لا يلي إلا اثني عشر خليفة ، وإنما قال: يلي .. وقد ولي هذا العدد ، ولا يضر كونه وُجد بعدهم غيرهم .. هذا إن جُعل المراد باللفظ كلٌّ وال .. ويحتمل أن يكون المراد مستحقي الخلافة العادلين ، وقد مضى منهم من علم ، ولا بد من تمام هذا العدد قبل قيام الساعة .. قال : وقيل إن معناه أنهم يكونون في عصر واحد يتبع كل واحد منهم طائفة .. قال القاضي : ولا يبعد أن يكون هذا قد وجد إذا تَبَّعت التواريخ ؛ فقد كان بالأندلس وحدها منهم في عصر واحد بعد أربعمئة وثلاثين سنة ثلاثة كلهم يدعيها ويلقب بها ، وكان حينئذ في مصر آخر ، وكان خليفة الجماعة العباسية ببغداد .. سوى من كان يدعي ذلك في ذلك الوقت في أقطار الأرض .. قال : ويعضد هذا التأويل قوله في كتاب مسلم بعد هذا: ستكون خلفاء فيكثرون ٦.. قالوا : فما تأمرنا .. قال : فوا ببيعة الأول فالأول .

قال : ويحتمل أن المراد من يعز الإسلام في زمنه ، ويجتمع المسلمون عليه ، كما جاء في سنن أبي داود : كلهم تجتمع عليه الأمة .. وهذا قد وجد قبل اضطراب أمر بني أمية واختلافهم في زمن يزيد بن الوليد، وخرج عليه بنو العباس .. ويحتمل أوجهاً أخر والله أعلم بمراد نبيه ﷺ» (١) .

(١) شرح النووي / حاشية صحيح مسلم ٤٠٧/٢ .

قال أبو عبد الرحمن : لا تناقض بين أحاديث الخبر بأن الخلافة ثلاثون .
وأحاديث الخبر بأثني عشر خليفة : لأن المراد بخلافة الثلاثين خلافة مقيدة بأنها
خلافة نبوة بنص الحديث ، وجاء النص أيضاً بالتمسك بسنة الخلفاء الراشدين :
فعلم أنهم أصحاب خلافة النبوة .. وأما الاثنا عشر فهم - بالاستنباط - قوم
معينون من قريش ليس لهم خصوص الوصف بالخلافة الراشدة المضافة إلى النبوة ،
وهم خلفاء بالمداول العرفي العام .. وعُلم بالحديث وصف كل حاكم مسلم بالخلافة ..
إلا أنه لا يكون كذلك - بالعرف اللغوي العام - إلا إذا تبعه ممالك إسلامية .
والخبر بأثني عشر خليفة لم يحصر ملوك المسلمين في هذا العدد ، وإنما حصر
ملوكاً ذوي وصفين :

أولهما : استقامة أمر المسلمين عليهم بدلالة « لا يزال أمر الناس ماضياً » ..
وهذا يعني الامتداد والاجتماع .. وفي رواية « عزيزاً » .. والعزة أيضاً منعة وامتداد .
وثانيهما : الاستمرار بمدلول « لا يزال » .. وهذا ملحوظ تاريخياً إلى آخر خلفاء
بني أمية ؛ فبهم انتهى اجتماع كل الممالك على خليفة واحد ، وبهم انتهت الفتوح .. وما
سيأتي بعد ذلك من اجتماع وامتداد - إذا وُجد - فإنه خارج مدلول الاستمرار « لا يزال » ..
أما مستحقو الخلافة العادلون فلم يردوا قيماً في الحديث لا نصاً ولا
استنباطاً .. وكلمة « لا يزال » مع الواقع التاريخي لا يحققان هذه الدعوى ؛ بل في
الاثني عشر المقصّر الظالم لنفسه ، ولكنهم خير للمسلمين .

ومن المحتمل - والله أعلم ، ولم أفرغ لتحقيق ذلك - أن الخبر والأمر في
حديث « الأئمة » من قريش يعني الخبر بأن الأئمة من قريش مدة الاثني عشر خليفة
أولئك ، وأن الطاعة واجبة تبعاً لمضي الأمر ، واجتماع الجماعة .. فإذا زالت
الخلافة القرشية بقيت الطاعة لكل حاكم مسلم اجتمعت عليه الكلمة ولو كان عبداً

حبشياً كأن رأسه زبيبة .. أقول هذا مع علمي بمذهب الجمهور أن الخلافة العامة لا تجوز إلا لقرشي .. وهذا يكون صحيحاً لو لم يوجد من الخبر سواه ، ولكن لما علم بالتاريخ أن أمور المسلمين اجتمعت على غير قرشيين .. بل على غير عرب ، وعلم بالضرورة من الدين وجوب الطاعة للمسلم إذا انعقدت بيعته : علم أن حديث «الأئمة من قریش» وما في معناه من خبر وأمرٍ مقيّد الخبر بأمد تاريخي ووصف الاجتماع قبل انقطاعه .. ثم ينتهي أمد الخبر ويبقى الأمر على عمومته .

والاحتمال الآخر الذي ذكره القاضي عياض : «أنهم يكونون متعددين في عصر واحد» غيرُ مراد للحديث المذكور ألبتة؛ لأنه ﷺ حدد باثني عشر، وبلا يزال .. وهذا لم يكن ألبتة إلا على التفرد لا التعدد في عصر واحد .

وأما حديث «فيكثرون» فيشمل الاثني عشر ذوي الخصوصية في الحديث ومن سيجيئ بعدهم .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : «وإلى عام ثلاثين سنة كان إصلاح ابن رسول الله ﷺ الحسن بن علي (السيد) [رضي الله عنهما] بين فئتين من المؤمنين ؛ بنزوله عن الأمر عام إحدى وأربعين في شهر جمادى الأولى^(١) .. وسمي عام

(١) قال الزبيدي في تاج العروس ٣٩٩/٤ - ٤٠٠ : «وجمادى كحبارى : من أسماء الشهور العربية، وهما جماديان .. فعالي من الجمد .. معرفة لكونها علماً على الشهر .. مؤنثة سميت بذلك لجمود الماء فيها عند تسمية الشهور .. قال الفراء : الشهور كلها مذكرة إلا جماديين ؛ فإنهما مؤنثان .. قال بعض الأنصار :

إذا جمادى منعت قطرها زان جناني عطن مغضف

يعني نخلأ .. يقول : إذا لم يكن المطر الذي به العشب يزين مواضع الناس ؛ فجناني مزينة بالنخل .. قال الفراء : فإن سمعت تذكير جمادى ؛ فإنما يذهب به إلى الشهر .. جمعه جُمَادِيَات على القياس ، ولو قيل : «جماد» لكان قياساً .

==

الجماعة : لاجتماع الناس على معاوية [رضي الله عنه] ، وهو أول الملوك .. وفي الحديث الذي رواه مسلم : ستكون خلافة نبوة ورحمة ، ثم يكون ملك ورحمة ، ثم يكون ملك وجبرية ، ثم يكون ملك عضوض ^(١) .

وقال ﷺ في الحديث المشهور في السنن (وهو صحيح): إنه من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً .. عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي .. تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة. ويجوز تسمية من بعد الخلفاء الراشدين خلفاء وإن كانوا ملوكاً ولم يكونوا خلفاء الأنبياء : بدليل ما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما: عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ قال: كانت بنو إسرائيل يسوسهم الأنبياء .. كلما هلك نبي خلفه نبي ، وإنه لا نبي بعدي ، وستكون خلفاء؛ فتكثر .. قالوا : فما تأمرنا ؟ .. قال: فُوا بْبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَأَلَّوْل ، ثم أعطوهم حقهم؛ فإن الله سائلهم عما استرعاهم.

== وروي عن أبي الهيثم: جمادى خمسة هي جمادى الأولى، وهي الخامسة من أول شهور السنة.. وجمادى ستة هي جمادى الآخرة ، وهي تمام ستة أشهر من أول السنة ، ورجب هو السابع .. قال ليبد :

حتى إذا سلخا جمادى ستة جزاء فطال صيامه وصيامها

هي جمادى الآخرة .. وفي شرح شيخنا ناقلاً عن الغنوي : عن ابن الأعرابي بإضافة جمادى إلى ستة ، وقال : أراد ستة أشهر الشتاء ، وهي أشهر الندى .. وكان أبو عمرو الشيباني ينشده بخفض ستة ، ويقول : أراد جمادى ستة أشهر : فعرف بجمادى .. وروى بندار بنصب ستة على الحال .. أي تنمة ستة .. أراد الآخرة .. وقال أبو سعيد : الشتاء عند العرب جمادى لجمود الماء فيه .. وأنشد للطرماح :

ليلة هاجت جمادية ذات صبرٍ جرياء النسام

أي ليلة شتوية» .

(١) لم أجد في صحيح مسلم ، وقد أسلفت النصوص الواردة في هذا الباب ، ولم أر أحداً عزا هذا الحديث إلى مسلم : فلعل شيخ الإسلام اعتمد على الذاكرة .

فقلوه: «فتكثر» دليل على من سوى الراشدين: فإنهم لم يكونوا كثيراً .. وأيضاً قوله: «فُوا بَبِيعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ» دل على أنهم يختلفون ، والراشدون لم يختلفوا»^(١) . وقال شيخ الإسلام عن درجة المشروعية للملك : «خبره بانقضاء خلافة النبوة فيه الذم للملك ، والعيب له ..^(٢) لاسيما وفي حديث أبي بكر [رضي الله عنه] : أنه استاء للرؤيا ، وقال : خلافة نبوة ، ثم يؤتي الله الملك من يشاء .. ثم النصوص الموجبة لنصب الأئمة والأمراء وما في الأعمال الصالحة التي يتولونها من الثواب : حَمْدٌ لذلك ، وترغيب فيه ؛ فيجب تخليص محمود ذلك من مذمومه ، وفي حكم اجتماع الأمرين»^(٣) .. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : إن الله خيرني بين أن أكون عبداً رسولاً وبين أن أكون نبياً ملكاً ؛ فاخترت أن أكون عبداً رسولاً ؛ فإذا كان الأصل في ذلك شوب الولاية من الإمارة ، والقضاء .. والملك^(٤) : هل هو جائز في

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٩/٣٥ - ٢٠ .

(٢) قال أبو عبد الرحمن : أسلفت في إحدى التعليقات سعة التوسع في «ولا سيما» ، وأن بعض اللغويين والنحاة يجيز حذف الواو .

(٣) قال أبو عبد الرحمن : المعنى : أنه يجب أيضاً بيان حكم اجتماع المحمود والمذموم من أحوال الملك ؛ فلو قيل : «وبيان حكم» بدلاً من «وفي حكم» : لكان الكلام واضحاً .. ولا أدري هل لخلل من مسودات ابن عروة ، وأنه لم يستظهر خط شيخ الإسلام ، أو أن شيخ الإسلام لم ينقح عبارته ١٩ .

(٤) أي : وإذا كان الأمر : أن الأصل في الولاية - خلافة وملكاً - أن تكون مشوبة بالإمارة من العمال على البلدان (والأمراء فيهم شبه الملوك) ، وكان الأمر أيضاً أن الملك مختلف فيه : هل هو جائز في الأصل ، أو لا يجوز إلا «لحاجة» .. وجواب «إذا» قوله : «فنحتج» .. قال أبو عبد الرحمن : ولكثرة علم شيخ الإسلام ، وكثرة مشاغله تعلماً وتعليماً وتأليفاً وعبادة ومشاركة في أحداث عصره : كان يملي ، ويكتب ، ويسرع في الكتابة ، ولا ينقح ؛ فيجئ الأسلوب غير شفاف .. وقد حاول تلميذه ابن قيم الجوزية أن ينقح بعض معارف شيخه ؛ فرتبها بلغة مفهومة ، وأسلوب أقرب إلى الأسلوب الأدبي .

الأصل . والخلافة مستحبة؟ .. أم ليس بجائز إلا لحاجة من نقص علم أو نقص قدرة بدونه ؟ : فنحتج بأنه ليس بجائز في الأصل : بل الواجب خلافة النبوة : لقوله ﷺ : «عليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي .. تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور : فكل بدعة ضلالة» بعد قوله : «من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً» : فهذا أمر ، وتحضيض على لزوم سنة الخلفاء ، وأمر بالاستمساك بها ، وتحذير من المحدثات المخالفة لها .. وهذا الأمر منه والنهي دليل بين في الوجوب .. ثم اختص من ذلك قوله : «اقتدوا بالذين من بعدي: أبي بكر، وعمر .. فهذان^(١) : أمر بالاعتداء بهما ، والخلفاء الراشدون أمر بلزوم سنتهم ، وفي هذا تخصيص للشيخين من وجهين :

أحدهما : أن السنة ما سنَّه للناس ، وأما القدوة فيدخل فيها الاقتداء بهما فيما فعلاه مما لم يجعلوه سنة .

الثاني : أن السنة أضافها^(٢) إلى الخلفاء لا إلى كل منهم .. فقد يقال : إما ذلك فيما اتفقوا عليه دون ما انفرد به بعضهم ، وإما^(٣) القدوة فعين القدوة بهذا ، وبهذا .. وفي هذا الوجه نظر^(٤) .

(١) أي أبوبكر وعمر رضي الله عنهما .

(٢) أي الرسول ﷺ .

(٣) قال أبو عبد الرحمن : في الأصل المطبوع : «إما ذلك» بجعل الهمزة تحت الألف في «إما» .. وورد «وأما القدوة» بجعل الهمزة فوق .. وورد «فيما اتفقوا» .. ومجموع الفتاوى لم يحقق ، ولم يخرج ، والسياق يدل على أن الصواب فتح همزة أما في الموضعين ، وأن جواب أما «ففيما» بفاء ثانية .

(٤) قال أبو عبد الرحمن : يرجح هذا النظر تعميم الأخذ بسنتهم ، وتخصيص الاقتداء بأثنين منهم رضي الله عن جميعهم .

ويستفاد من هذا أن ما فعله عثمان وعلي [رضي الله عنهما] من الاجتهاد الذي سبقهما (بما هو أفضل منه) أبو بكر وعمر ، ودلت النصوص ، وموافقة جمهور الأمة على رجحانه ، وكان سبب^(١) افتراق الأمة : لا يؤمر بالاقتداء بهما فيه : إذ ليس ذلك من سنة الخلفاء ، وذلك أن أبا بكر وعمر [رضي الله عنهما] ساسا الأمة بالرغبة والرغبة، وسلما من التأويل في الدماء والأموال .. وعثمان رضي الله عنه غلب الرغبة، وتأول في الأموال .. وعلياً^(٢) [رضي الله عنه] غلب الرغبة، وتأول في الدماء .. وأبو بكر وعمر كمل زهدهما في المال والرياسة ، وعثمان كمل زهده في الرياسة ، وعلي^(٣) كمل زهده في المال .

وأيضاً فكون النبي ﷺ استاء للملك بعد خلافة النبوة دليل على أنه متضمن ترك بعض الدين الواجب .

وقد يحتج من يُجَوِّزُ الملك بالنصوص التي منها قوله لمعاوية : إن ملكت فأحسن .. ونحو ذلك ، وفيه نظر .

ويحتج بأن عمر أقرَّ معاوية [رضي الله عنهما] لما قدم الشام على ما رآه من أُبَّهة الملك .. لما ذكر^(٤) له المصلحة فيه؛ فإن عمر قال: لا آمرك، ولا أنهاك .. ويقال في هذا: إن عمر لم ينهه؛ لأنه أذن له في ذلك ؛ لأن معاوية ذكر وجه الحاجة إلى ذلك، ولم يثق عمر بالحاجة ؛ فصار محل اجتهاد في الجملة؛ فهذان القولان متوسطان: أن يقال : الخلافة واجبة ، وإنما يجوز الخروج عنها بقدر الحاجة .. أو

(١) في الأصل المطبوع : «سببه» .. وإضافة سبب إلى الضمير مُخِلٌّ بالسياق .

(٢) في الأصل المطبوع : وعلي .

(٣) هكذا في الأصل المطبوع .. والصواب في كل ما سبق «وعلياً ، وأبا بكر ، وعلياً» .

(٤) أي معاوية رضي الله عنه .

أن يقال : يجوز قبولها من الملك بما ييسر فعل المقصود بالولاية ولا يُعسرُه : إذ ما يبعد المقصود بدونه لأبد من إجازته .. وأما [ملك] ^(١) فإيجابه أو استحبابه محل اجتهد .. وهنا طرفان :

أحدهما : من يوجب ذلك في كل حال وزمان وعلى كل أحد ، ويذم من خرج عن ذلك مطلقاً أو لحاجة كما هو حال أهل البدع : من الخوارج ، والمعتزلة ، وطوائف من المتسنة والمتزهدة .

وثانيهما : من يبيح الملك مطلقاً من غير تقييد بسنة الخلفاء كما هو فعل الظلمة والإباحية ، وأفراد المرجئة .. وهذا تفصيل جيد ، وسيأتي تمامه» ^(٢).

قال أبو عبد الرحمن : قبل استكمال سياق العلماء ، وقبل التعليق بوقفات أحب إبداء مداخلة سريعة ، وهي أن مشروعية الملك في الأصل ينبغي أن لا تكون محل خلاف؛ لأن الأصل في مراد الله الشرعي أداء الولاية بمقتضى الخطاب الشرعي ، كما أن الأصل تحملها حسب الأولى من مراد الشرع .. والأولى في خطاب الشرع - للراعي والرعية معاً - خلافة النبوة ؛ وليبيان هذه الحقيقة أذكر لكم في مناسبة لاحقة نصوص القرآن الكريم عن الملك الذي اشترك فيه النبي ، والصالح ، والكافر ، والفاسق .. والأمران الأولان يدلان على مشروعية الملك تحملاً وأداءً؛ لأن الملك في ذاته حكم من الراعي للرعية كما تحكم أي سلطة بمسمى آخر، وهو لا يتصف بمدح أو ذم لذاته، وإنما موضوع المدح والذم الكيفية لممارسة الحكم، والأصل فيه

(١) ما بين القوسين المعكوفين إضافة من المحقق الشيخ ابن قاسم رحمه الله ، ولو قال «الملك» لكان أفصح وأبلغ .. والصواب عندي أنه لا معنى لإثباتها : لأن «وأما» تفرع ، ولا يفرع الشيء على نفسه : فالسياق عن الملك .. إذن «الملك» تحذف ، وحينئذ تكون الملاحظة على «إيجابه» و«محل» ، ويستقيم التعبير هكذا : «وأما إيجابه أو استحبابه فمحل اجتهد» .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢١/٣٥ - ٢٥ .

المشروعية، وقد قرنه الله بالمنة.. قال الله تعالى عن عموم الملك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفُسِدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا .. ﴿٣﴾ ، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤﴾ ، وقال تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥﴾ ، وقال الله عن يوسف عليه

(١) سورة البقرة ، الآيات : ٢٤٦ - ٢٤٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآيتان : ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٠٢ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨ .

(٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٦ .

السلام: ﴿ رب قد أتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وأحقني بالصالحين ﴾ (١) ، وقال عن فرعون لعنه الله : ﴿ .. أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً * أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً * فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً ﴾ (٣) ، وقال عن داود عليه السلام: ﴿ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ (٤) ، وقال عن سليمان عليه السلام : ﴿ قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴾ (٥) ، وقال الله عن بلقيس ملكة سبأ : ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ (٦) ، وقال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين ﴾ (٧) .

قال أبو عبد الرحمن : مدلول كل هذه النصوص مجتمعة كالاتي :

١ - أن موسى عليه السلام أخبر بني إسرائيل عن ربه أنه قد بعث لهم طالوت ملكاً قائماً بشريعة ربه .. اصطفاه ربه ، وزاده بسطة في العلم والجسم ، وامتن الله

(١) سورة يوسف ، الآية : ١٠١ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٥١ .

(٣) سورة النساء ، الآيات : ٥١ - ٥٥ .

(٤) سورة ص ، الآية : ٢٠ .

(٥) سورة ص ، الآية : ٣٥ .

(٦) سورة النمل ، الآية : ٢٤ .

(٧) سورة المائدة ، الآية : ٢٠ .

عليه احتجاجاً على بني إسرائيل : بأنه يؤتي ملكه من يشاء .. وأوجب الجهاد معه : فَمَلِكٌ طَالُوتٌ شَرِيعَةٌ رِبَانِيَّةٌ .

٢ - أن داوود النبي الكريم ذا الحكمة والعلم وفصل الخطاب : ملك من الملوك شد الله ملكه .. وبملكه نفَّذَ نبوته وشريعته ربه : فالملك ههنا شريعة ربانية .

٣ - أن الله استجاب لدعاء عبده ورسوله سليمان عليه السلام ، ووهبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وبرأه الله وبراً ملكه من كفر الشياطين : فملكه العظيم ولاية شرعية نفَّذَ بها مراد ربه .

٤ - أن يوسف عليه السلام ملك فاضل ، ونبي كريم : فهو الكريم بن الكريم ابن^(١) الكريم بن الكريم .

٥ - أن الملك من فضل الله .. جاء ذلك في معرض الرد على بني إسرائيل : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾^(٢) .. والملك ههنا هو المقصود الأول بالخبر عن المنة الأعم : لأن الخبر في معرض قول الله عنه : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا^(٣) لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ

(١) قال أبو عبد الرحمن : إذا كانت ألف «ابن» محذوفة فلا أثبتها إذا وقعت أول السطر ، وإن قال بذلك أهل الرسم : لأن وقوعها أول السطر لا يعني أن الكلام مبتدأ بها : فيحتجوا بالتوصل بها للنطق بمتحرك ، كما أن تجارب الطبع يتغير ترتيب الكلمات فيها : فيكون ما هو أول السطر وسطه : وحينئذ تثبت الألف في غير موضعها .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٥٤ .

(٣) قال أبو عبد الرحمن : إنما يجب التقييد برسم المصحف عند كتابته كاملاً .. أما عند الاستشهاد بآياته الكريمة فينبغي التسهيل على المسلمين بالرسم المعروف .. وقد قال أبو جعفر النحاس في كتابه إعراب القرآن ١/٤٦٣ : «سمعت علي بن سليمان يقول : سمعت أبا العباس محمد ابن يزيد يقول : أشتهي أن أكوي يدَ مَنْ يكتب إذن بالألف : لأنها مثل لن و أن ، ولا يدخل التثوين في الحروف» .

تقيراً * أم يحسدون الناس... (١) .. وذكر موسى عليه السلام بمنة الله على قومه بقوله : ﴿ .. إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً .. ﴾ (٢) .

٦ - ثبت أن الملك شريعة ربانية، ولكن بشرط أن يكون قوامه العلم والحكمة بهداية الله الشرعية في الوحي، وهدايته الكونية حساً وعقلاً؛ ولهذا اقترنت المنة بالملك فيما سلف من النصوص بالمنة بالعلم والحكمة .

٧ - قص الله عن ملكة سبأ قولها : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ على خلاف في قوله تعالى : ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ : أهو من قولها تأكيداً (٣)، أم من تصديق الله لها ٩.. وعلى أي تقدير فمن العلم المتيقن أن داوود وسليمان ويوسف ومن لم يسمه الله من الأنبياء الملوك عليهم الصلاة والسلام، وكذلك صلحاء الملوك على مدار التاريخ ليس وصفهم أنهم يفسدون القرى إذا دخلوها، بل هم عمارها وصلاحها ، والفساد ينافي نبوتهم وثناء الله عليهم : فعلم بيقين كالشمس أن الملوك في الآية من سورة النمل لمعهود لتلك المرأة من ملوك كفار، وملوك فيهم جبروت وفسق تجاوزوا ما شرعه الله قواماً للملك من العلم والحكمة .. وكانت تحسب سليمان عليه السلام - وكرمه الله - من أولئك الملوك المعهودين .. وكثرة الملوك الكفار ، وكثرة الملوك المسلمين المتجاوزين ما شرع الله لهم : لا يعني أن جواز ولاية الملك ينبغي أن تكون محل خلاف : بل يعني أن الظاهرة التاريخية خلاف الأمثل .

(١) سورة النساء ، الآيتان : ٥٣ - ٥٤ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٢٠ .

(٣) قال أبو عبد الرحمن : وهذا هو الأرجح عندي : لأن ما قبل هذه الجملة وما بعدها مباشرة كله من كلام بلقيس بلا خلاف : فلا يجوز نقل الكلام عن سياقه بلا برهان .

٨ - ذم الله ملوكاً لا لذات الملك ؛ بل لكون الحائد عن مشروعية الملك كافراً ، أو متجبراً كالملك الذي حاجه إبراهيم عليه السلام ، وكفرعون مدعي الربوبية ، وكالذي يأخذ كل سفينة غصباً ، وكمعهودي ملكة سبأ .

قال أبو عبدالرحمن: ليس بعد خلافة النبوة على الإطلاق أفضل من ملك الرحمة؛ لأن قوامه الشرع .. وكل أنماط السلطة غيرها: إما استبداد طاغية، وإما تحكم حزب أو جماعة أو مؤسسة مالية ، أو حرية شبهات وشهوات وإسقاط لحق الرب وعبودية للذات ، أو عبودية لكيد كافرين - بخلاف المرسلين والمصلحين - دعوتهم إلى المنكر والصد عن المعروف .

وما كان ملكاً غير ملك رحمة .. سواء أكان ملك كافر لكفار، أم ملك مسلم ظالم لمسلمين -: أكثر استقراراً من كل أنظمة الزوابع؛ ولهذا سعت الصهيونية السياسية العالمية إلى تسليط الرعاع، وتحريك الرؤيضة^(١) على رموز أمتهم التاريخيين من الملوك العظام .. مع تمسك هؤلاء الأندال المفسدين برمزمهم التاريخي الملك الداوودي، وهذا نصهم من بروتوكولهم: «فخير النتائج التي يراد تحقيقها من التسلط على الغويم بطريق الحكومة إنما يكون بالعنف والإرهاب ، لا بالمجادلات النظرية المجردة ؛ إذ كل امرئ مشتته الوصول إلى امتلاك زمام السلطة ، وكل فرد يود لو أصبح دكتاتوراً ، وقليلون الذين لا يشتهون التضحية بمصالح الجمهور من أجل منافعهم الخاصة .

ولعمري ما هي الروادع التي تكف الحيوانات المفترسة عن الوثوب، وهذه العجماوات ما هي إلا الغويم ؟ .. وما هو الأمر الذي قام فيهم حتى اليوم لضبط أحوالهم ؟ . أما بدايتهم (بداية تكوين المجتمع) ؛ فإنهم كانوا مأخوذِينَ بالقهر من القوة

(١) الرويضة : الرجل التافه الحقيير ينطق في أمر العامة وهو تصغير رابضة [القادري] .

الغاشمة العمياء : ولهذه القوة كانوا خائعين .. أما بعد ذلك فسيطر عليهم القانون الموضوع، وهو القوة الغاشمة نفسها، ولكنه جاء بزي مختلف في المظهر لا غير. وأستنتج من هذا أنه بموجب ناموس الطبيعة الحق للقوة»^(١) .

«ولم نزل منذ الثورة الفرنسية نقود الشعوب، ونحررها من طلاسم الشعبذات، وفي النهاية ستتحوّل الشعوب عنا أيضاً التفاتاً إلى الملك المتسلط من سلالة صهيون، وهو الذي نعد للعالم»^(٢) .

«ففي الزمن الغابر لما كانت الشعوب تنظر إلى الملوك المتبوّئة العروش كأنها تنظر إلى من تجلت فيه إرادة الله : كانت تلك الشعوب وقتئذ خاضعة للسلطة المطلقة التي للملوك بلا مناقشة ولا حراك ، لكن منذ أخذنا نحن نُشرب عقول الشعوب عقيدة أن لهم حقوقاً : شرعوا يعتبرون الجالسين على الأرائك بشراً وقوماً عاديين يأتي عليهم الفناء كسائر الناس .. والزيت المقدس الذي مُسحَ به رأس الملك الذي هو ظل الله على الأرض زيت عادي غير مقدس في عيون الشعب .. ولما سلبناهم إيمانهم بالله : فإذا بجبروت السلطة رمي به إلى الشوارع حيث حق التملك هو حق الجمهور : فاقتصناه نحن .

وفوق ذلك فإن فن توجيه الجماهير والأفراد بوسائل تتقن إلقاء النظريات وإشباعها بكثرة الكلام حولها : مما يرمي إلى ضبط مدار الحياة المشتركة بهذا وغيره من الحيل التي لا يعرف الغوييم من اكتناه أسرارها شيئاً .. إن هذا الفن عندنا - نحن أربابه الاختصاصيين - .. الذين تلقوا أصوله من ينابيع أدمغتنا

(١) بروتوكولات حكماء صهيون ص ١٧٩-١٨٠ / البروتوكول الأول .. قال أبو عبد الرحمن : وسيادة

القانون الوضعي ، وتجريم مخالفته تنازلت المجتمعات المكروهة عن عزائم دينها وأخلاقها .

(٢) بروتوكولات حكماء صهيون ص ١٩٧ - ١٩٨ / البروتوكول الثالث .

الإدارية؛ فهؤلاء الاختصاصيون قد نشأوا على التمرس بالتحليل والملاحظة ، ومعاناة حصر الدقائق في القضايا الحساسة الرفيعة .. وفي هذا المضمار ليس لنا ند ولا نظير في رسم المخططات للنشاط السياسي، ومعالجة المسؤوليات .. وفي هذا المجال لإسقاط هيبتهم عند الدهماء وسواد الناس الذين لا يفكرون إلا سطحياً ، وإنما تمكنا من الجزويت ؛ لأن مؤسساتهم مكشوفة ، بينما نحن استطعنا أن تبقى أجهزتنا السرية مغطاة محجوبة كل الوقت .. وعلى كل فالعالم قد لا يبالي شيئاً بمن يتبوأ عرشه : أهو رأس الكتلكة ، أم المتسلط الذي يظهر منا منحدرأ بدمه من صهيون .. هذا من جهة العالم ، أما من جهتنا نحن فهذا الأمر يهمنا جداً ؛ فإننا الشعب المختار ، والمسألة تقتضي منا كل المبالاة»^(١) .

«والاعتراف بصاحبنا (صاحب السلطة المستبدة المطلقة) قد يقع حتى قبل تدمير الدساتير ، وإنما تقع هذه الحالة عندما تهب الشعوب وقد سئمت^(٢) من عجز الحكام ومخالفاتهم للقوانين - وهذا ما سنعنى بتدبيره - صائحة : اذهبوا بهؤلاء عنا ، وأعطونا ملكاً واحداً يحكم الدنيا كلها ، ويوحد أمرنا ، ويجمع شملنا ، ويلاشي أسباب فرقتنا ، ويخلصنا من مسائل الخلافات على الحدود الإقليمية ، والتباهي بالقومية والعنصرية ، والتزمت الديني، والديون التي ترزح تحتها الدولة .. ويوردنا موارد الأمان والسلامة ، ويحقق لنا ما فشل فيه حكامنا وممثلونا السابقون»^(٣) .

(١) المرجع السابق ص ٢٠٤ - ٢٠٥ / البروتوكول الخامس .

(٢) قال أبو عبد الرحمن : ههنا رسمت الهمزة على نبرة ؛ لأنها مكسورة ، والياء علامة إعراب كالكسرة .. هذا دليل تصحيح ، ودليل الترجيح جمال اتصال حروف الكلمة .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٧ - ٢٢٨ / البروتوكول العاشر .

الملك عبد العزيز - رحمه الله -

وخصائص الدولة ، والقائد ، والدين ، والرقعة ، والأمة

[٥ - ٥]

قال أبو عبد الرحمن : الملك في ذاته ليس مذموماً ، وليست سنة الخلفاء الراشدين في الاسم والوراثة وعدمها ؛ بل لو أنه ولي الأمر من يرثه كما ورث سليمان داود عليهما الصلاة والسلام ، ثم التزم وارث الملك نصوص الشريعة وسنة الخلفاء الراشدين في العدل بين الرعية ، وإمضاء أحكام الشريعة فيهم بلا هوى ، ثم خلفه ابنه بنفس السيرة: لكان هذا الملك خلافة نبوة أداء وتحملًا .. وكونه عليه الصلاة والسلام لم يجعل الأمر وراثة لبني بنته : لا يعني أن توارث الولاية غير جائز ، وإنما اختار للأمة أفضلها بمقتضى علمه الشرعي عليه الصلاة والسلام .

قال أبو عبد الرحمن : وقد تعذر - بقضاء الله الكوني - بعد خلافة النبوة (التي مدتها ثلاثون بالخبر الشرعي الصادق): أن توجد الولاية تحملاً خلافة نبوة ؛ لأنه لو وجد مثل أبي بكر رضي الله عنه (وأنى ذلك !!) لما وجد مثل رعيته ؛ فخلافة النبوة بعد

أبو

عبد الرحمن

ابن عقيل

الظاهري *

* محمد بن عمر

ابن عبد الرحمن

العقيل .

- ماجستير من

المعهد العالي

لل قضاء في

التفسير ، وله

مشاركات كثيرة

في التأليف

والمقالة والإذاعة ،

وعضو مجمع

اللغة العربية

بالقاهرة ،

ورئيس الشؤون

الثقافية بجمعية

الثقافة والفنون ،

ورئيس تحرير

مجلة التوباد ،

وأول رئيس

للنادي الأدبي

بالرياض .

الطريفة

السنة الثامنة

العددان : الثلاثون والحادي والثلاثون

جمادى الآخرة - رمضان ١٤٢٦هـ

يوليو - أكتوبر ٢٠٠٥م

علي رضي الله عنه معجوز عنها لنقص في الرعاية أولاً .. ومحال تعطيل الأمة بلا ولاية ؛ لأن الشرع يمنع من ذلك ويحرمه ، ويوجب الولاية الشرعية ؛ فلم يبق إلا أن يوجد من الأمة من يتولى شأنها بولاية رحمة .. وتسلسل الولاية في بيت دانت له الأمة بالطاعة ، والتزم البيت ذاته بالحماية لدين الله ، والوفاء بشرط البيعة على كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ أصلح وأرحم للأمة من تعريض الولاية لطارئ ينقلها إلى غير دعاية الإسلام كما حصل في كل حكومات الانقلابات العسكرية بعد سقوط الخلافة الإسلامية .

ولقد وَدَّ رسول الله ﷺ أموراً هي أرجح شرعاً ، ولكن جرى قضاء الله الكوني بخلافها ، ولذلك نماذج عديدة منها أمنيته ﷺ أن يعيد بناء البيت على قواعد إبراهيم ، ولم يقم بذلك دفعاً للمفسدة الكبرى .. وقضى قدر الله الكوني إلى هذا اليوم أن يبقى بناء البيت كما هو ، ولا خلاف بين علماء المسلمين كافة أن مناسك الحج والعمرة وسنة الطواف قائمة على المراد الشرعي ، والصحة الشرعية ؛ فكان حكم الشرع - بتوسيع الله على عباده ، ورفع الحرج عنهم - تبعاً لقضائه الكوني .

قال أبو عبد الرحمن : ولا ريب أنه لو بقي المجتمع المسلم كمجتمع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما : لكان هذا غاية المراد الشرعي ، ولكانت خلافة النبوة قائمة إلى يوم القيامة .. ولكن قضاء الله الكوني مضى بأن لا تبقى الأمة في جملتها على مثل ذلك الجيل الفريد ؛ فوسَّعَ الله عليهم ، ولم يلزمهم الحرج ؛ لعجزهم عن استمرار خلافة النبوة ، ورضي منهم أي ولاية تكون البيعة فيها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ويكون قوامها العلم والحكمة .. وأخبر عن أنماط من الحكم أجلاها وأفضلها - بعد تعذر خلافة النبوة - ملك الرحمة .. وههنا سياق تاريخي شرعي لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أستعرضه ، وأشفعه ببعض الوقفات ..

قال رحمه الله : «انتقال الأمر عن خلافة النبوة إلى الملك : إما أن يكون لعجز العباد عن خلافة النبوة ، أو اجتهد سائغ ، أو مع القدرة على ذلك علماً وعملاً .. فإن كان مع العجز علماً أو عملاً كان ذو الملك معذوراً في ذلك وإن كانت خلافة النبوة واجبة مع القدرة .. كما تسقط سائر الواجبات مع العجز كحال النجاشي لما أسلم وعجز عن إظهار ذلك في قومه .. بل حال يوسف الصديق تشبه ذلك من بعض الوجوه .. لكن الملك كان جائزاً لبعض الأنبياء كداوود ^(١) وسليمان ويوسف [عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام] .

وإن كان مع القدرة علماً وعملاً ، وقُدِّرَ أن خلافة النبوة مستحبة ليست واجبة ، وأن اختيار الملك جائز في شريعتنا كجوازه في غير شريعتنا : فهذا التقدير إذا فرض أنه حق ؛ فلا إثم على الملك العادل أيضاً .. وهذا الوجه قد ذكره القاضي أبو يعلى في المعتمد لما تكلم في تثبيت خلافة معاوية ، وبنا ^(٢) ذلك على ظهور إسلامه ، وعدالته ، وحسن سيرته ، وأنه ثبتت إمامته بعد موت علي [رضي الله عنه] لما عقدها الحسن له ، وسُمِّيَ ذلك عام الجماعة ، وذكر حديث عبدالله بن مسعود : تدور رحى الإسلام على رأس خمس وثلاثين ^(٣) .. قال أحمد في رواية ابن الحكم : يُروى عن الزهري : أن معاوية كان أمره خمس سنين لا يُنكر عليه شيء ؛ فكان هذا على حديث النبي ﷺ :

(١) قال أبو عبدالرحمن : أرسم داوود بواوين بخلاف أهل الرسم : لأن الأصل رسم ما ينطق ، ولا يعدل عن ذلك إلا بمسوغ ، واللبس محتمل ههنا : لأن الأعلام ترتجل ، ولا بعد في تسمية علم ما بداود - بواو واحدة ، وفي تاج العروس رسمها بواوين ؛ فقال ٤٤٢/٤ : وداوود اسم أعجمي لا يُهمز» .

(٢) في الأصل المطبوع : بنا .. وهو تطبيع بمقتضى الرسم الإملائي ، ووافق هذا التطبيع الوجه الصحيح عندي ، لأن العبرة في الرسم بالنطق ، ومسائل الصرف بالتعلم ، ولا يُقَيَّد بها الرسم .

(٣) انظر الحاشية آخر الكتاب رقم (١٠) .

الطبعة

جمادى الآخرة - رمضان ١٤٢٦هـ

يوليو - أكتوبر ٢٠٠٥م

السنة الثامنة

العددان : الثلاثون والحادي والثلاثون

خمساً^(١) وثلاثين سنة .. قال ابن الحكم : قلت لأحمد : من قال حديث ابن مسعود : «تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين» : إنها من مهاجر النبي ﷺ ؟ .. قال : لقد أخبر هذا^(٢) ، وما عليه أن يكون النبي ﷺ يصف الإسلام بسير هو ..^(٣) .. إنما يصف ما يكون بعده من السنين ؟! ^(٤) .. قال أبو يعلى : وظاهر هذا من كلام أحمد أنه أخذ بظاهر الحديث، وأن خلافة معاوية كانت من جملة الخمس والثلاثين .. وذكر^(٥) أن رجلاً سأل أحمد عن الخلافة، فقال: كل بيعة كانت بالمدينة فهي خلافة نبوة لنا .. قال القاضي : وظاهر هذا أن ما كان بغير المدينة لم يكن خلافة نبوة .

قلت : نصوص أحمد على أن الخلافة تمت بعلي كثيرة جداً .

ثم عارض القاضي ذلك بقوله: الخلافة ثلاثون سنة ، ثم تصير ملكاً .. قال السائل: فلما خص الخلافة بعده بثلاثين سنة كان آخرها آخر أيام علي، وأن بعد ذلك يكون ملكاً: دل على أن ذلك ليس بخلافة .. فأجاب القاضي: بأنه يحتمل أن يكون المراد به الخلافة التي لا يشوبها ملك بعده ثلاثون سنة .. وهكذا كانت خلافة الخلفاء الأربعة، وخلافة معاوية قد شابها الملك، وليس هذا قادحاً في خلافته، كما أن ملك سليمان لم يقدح في نبوته وإن كان غيره من الأنبياء فقيراً .

(١) الذي في الأصل : خمس .. والصواب ما أثبتته ، والتقدير : فكان أمر معاوية رضي الله عنه خلال الخمس السنوات المذكورة - على حديث النبي ﷺ المذكور - خمساً وثلاثين .
(٢) لعل الصواب : بهذا .

(٣) وردت الكلمة برسم غير مفهوم ولا مقروء .. ومجموع فتاوى شيخ الإسلام لم يخدم لا بتحقيق، ولا بتصحيح جيد .. ولعل صواب العبارة : بسيره [أي الإسلام] وهو في حياته .

(٤) قال أبو عبد الرحمن : وهذا هو الأرجح ؛ لأن أخباره ﷺ عن الإسلام والأمة فيما يُستقبل - إذا خلى من القرينة - منصرفة إلى ما يكون بعده .

(٥) أي القاضي أبو يعلى .

قلت : فهذا يقتضي أن شوب الخلافة بالملك جائز في شريعتنا ، وأن ذلك لا ينافي العدالة ، وإن كانت الخلافة المحضة أفضل .. وكل من انتصر لمعاوية . وجعله مجتهداً في أموره ، ولم ينسبه إلى معصية : فعليه أن يقول بأحد القولين : إما جواز شوبها بالملك ، أو عدم اللوم على ذلك فينتجه إذا^(١) .. قال : إن خلافة النبوة واجبة : فلو قدر - فإن عمل سيئة فكبيرة وإن كان ديناً ، أو لأن الفاسق من غلبت سيئاته حسناته ، وليس كذلك ، وهذا رحمته بالملوك العادلين : إذ هم في الصحابة من يقتدى به (٢) .

وأما أهل البدع كالمعتزلة فيفسقون معاوية لحرب علي ، وغير ذلك : بناء على أنه فعل كبيرة ، وهي توجب التفسير : فلا بد من منع إحدى المقدمتين ، ثم إذا ساغ هذا للملوك ساغ للقضاة والأمراء ونحوهم .

وأما إذا كانت خلافة النبوة واجبة وهي مقدورة وقد تركت : فترك الواجب سبب للذم والعقاب .. ثم هل تركها كبيرة أو صغيرة ؟ .. إن كان صغيرة لم يقدح في العدالة ، وإن كان كبيرة ففيه القولان .

لكن يقال هنا : إذا كان القائم بالملك والإمارة يفعل من الحسنات المأمور بها ، ويترك من السيئات^(٣) المنهي عنها ما يزيد به ثوابه على عقوبة ما يتركه من واجب ، أو يفعله من محظور : فهذا قد ترجحت حسناته على سيئاته ؛ فإذا كان غيره مقصراً

(١) خرم بالأصل مقدار سطر [ابن قاسم] .

(٢) كل ما بعد الخرم كلام متلعثم فيه خلل في الأصل ، أو تطبيع .. ويستقيم بتشديد ياء «ديناً» ، وإضافة «من» خلال قوله : «وهذا رحمته» .

(٣) هذا هو الرسم الصحيح ، وفي الرسم المعتاد إضافة نبرة تكتب عليها الهمزة بعد حذف ألفها ، وهو تشويه للرسم بلا مسوِّغ .

في هذه الطاعة التي فعلها مع سلامته عن سياسته^(١)؛ فله ثلاثة أحوال : إما أن يكون الفاضل من حسنات الأمير أكثر من مجموع حسنات هذا أو أقل ؛ فإن كانت فاضلة أكثر كان أفضل ، وإن كان أقل كان مفضولاً ، وإن تساويا تكافأ .. هذا موجب العدل ، ومقتضى نصوص الكتاب والسنة في الثواب والعقاب .. وهو مبني على قول من يعتبر الموازنة ، والمقابلة في الجزاء ، وفي العدالة أيضاً .. وأما من يقول : «إنه بالكبيرة الواحدة يستحق الوعيد ولو كان له حسنات كثيرة عظيمة» : فلا يجيئ هذا .. وهو قول طائفة من العلماء في العدالة ، والأول أصح على ما تدل عليه النصوص»^(٢) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عن أصناف الملوك : «وغاية مرید الرئاسة أن يكون كفرعون ، وجامع المال أن يكون كقارون .. وقد بيّن الله تعالى في كتابه حال فرعون وقارون ؛ فقال تعالى : ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾^(٣) .. وقال تعالى : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٤) ؛ فإن الناس أربعة أقسام :

القسم الأول: يريدون العلو على الناس، والفساد في الأرض. (وهو معصية الله، وهؤلاء الملوك والرؤساء المفسدون كفرعون وحزبه ، وهؤلاء هم شرار الخلق .. قال

(١) هكذا في الأصل ، ورابطة «من» أدل على مراده من رابطة «عن» .. وتناوب حروف الجر يكون عن نكتة بلاغية .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٥/٢٥ - ٢٨ .

(٣) سورة غافر ، الآية : ٢١ .

(٤) سورة القصص ، الآية : ٨٣ .

تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾^(١) ، وروى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه .. قال : قال رسول الله ﷺ : لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان .. فقال رجل يا رسول الله : إني أحب أن يكون ثوبي حسناً ، ونعلي حسنةً : أفمن الكبر ذاك ؟ .. قال : لا : إن الله جميل يحب الجمال .. الكبر بطر الحق ، وغمط الناس اه .. فبطر الحق دفعه وجحده ، وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم .. وهذا حال من يريد العلو والفساد .

القسم الثاني: الذين يريدون الفساد بلا علو كالسراق والمجرمين من سفلة الناس .

والقسم الثالث : يريدون العلو بلا فساد كالذين عندهم دين يريدون أن يعلو بهم على غيرهم من الناس .

وأما القسم الرابع: فهم أهل الجنة الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً مع أنهم قد يكونون أعلى من غيرهم كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) ، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَهْنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالُكُمْ ﴾^(٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٤) .

فكم ممن يريد العلو ، ولا يزيده ذلك إلا سفولاً ، وكم ممن جعل من الأعلىين وهو لا يريد العلو ولا الفساد !؟ .. وذلك لأن إرادة العلو على الخلق ظلم : لأن الناس

(١) سورة القصص ، الآية : ٤ .. قال أبو عبد الرحمن : إذا كان الفساد والعلو دون الكفر كانوا فُسَاقًا ، ولم يكونوا مثل فرعون الكافر لعنه الله .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٩ .

(٣) سورة محمد ، الآية : ٣٥ .

(٤) سورة المنافقون ، الآية : ٨ .

من جنس واحد ؛ فإرادة الإنسان أن يكون هو الأعلى ونظيره تحته ظلم ، ومع أنه ظلم فالناس ييغضون من يكون كذلك ويعادونه ؛ لأن العادل منهم لا يحب أن يكون مقهوراً لنظيره ، وغير العادل منهم يؤثر أن يكون هو القاهر .. ثم إنه مع هذا لا بد له ^(١) - في العقل والدين - من أن يكون بعضهم فوق بعض كما قدمنا .. كما أن الجسد لا يصلح إلا برأس .. قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ ^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا ﴾ ^(٣) ؛ فجاءت الشريعة بصرف السلطان والمال في سبيل الله .

فإذا كان المقصود بالسلطان والمال هو التقرب إلى الله ، وإنفاق ذلك في سبيله : كان ذلك صلاح الدين والدنيا .. وإن انفرد السلطان عن الدين ، أو الدين عن السلطان : فسدت أحوال الناس .. وإنما يمتاز أهل طاعة الله عن أهل معصيته بالنية والعمل الصالح كما في الصحيحين عن النبي ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

ولما غلب على كثير من ولاية الأمور إرادة المال والشرف ، وصاروا ^(٤) بمعزل عن حقيقة الإيمان في ولايتهم : رأى كثير من الناس أن الإمارة تنافي الإيمان وكمال الدين .. ثم منهم ^(٥) من غلب الدين وأعرض عما لا يتم الدين إلا به من ذلك ^(٦) ، ومنهم من

(١) هكذا في الأصل المطبوع والصواب : لهم .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٦٥ .

(٣) سورة الزخرف ، الآية : ٣٢ .

(٤) في الأصل المطبوع : « صاروا » .. وحذف الواو مغل بالسياق .

(٥) الضمير يعود إلى كثير من الناس .

(٦) مرجع الإشارة إلى السلطان والمال .

رأى حاجته إلى ذلك^(١) : فأخذه معرضاً عن الدين : لاعتقاده أنه مناف لذلك . وصار الدين عنده في محل الرحمة والذل لا في محل العلو والعز .. وكذلك لما غلب على كثير من أهل الدين العجز عن تكميل الدين ، والجزع لما قد يصيبهم في إقامته من البلاء : استضعف طريقتهم ، واستذلها من رأى أنه لا تقوم مصلحته ومصلحة غيره بها^(٢) . وهاتان السبيلان الفاسدتان - سبيل من انتسب إلى الدين ، ولم يكمله بما يحتاج إليه من السلطان والجهاد والمال .. وسبيل من أقبل على السلطان والمال والحرب ، ولم يقصد بذلك إقامة الدين - : هما سبيل المفضول عليهم والضالين : الأولى للضالين النصارى ، والثانية للمفضول عليهم اليهود .

وإنما الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، [و] هي سبيل نبينا محمد ﷺ ، وسبيل خلفائه وأصحابه ، ومن سلك سبيلهم .. وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، ذلك الفوز العظيم^(٣) .

فالواجب على المسلم أن يجتهد في ذلك بحسب وسعه ؛ فمن ولي ولاية يقصد بها طاعة الله ، وإقامة ما يمكنه من دينه ومصالح المسلمين ، وأقام فيها ما يمكنه من الواجبات واجتناب ما يمكنه من المحرمات : لم يؤاخذ بما يعجز عنه ؛ فإن تولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجار .. ومن كان عاجزاً عن إقامة الدين بالسلطان والجهاد ؛ ففعل ما يقدر عليه من النصيحة بقلبه ، والدعاء للأمة ، ومحبة الخير ،

(١) أي ومن الناس من رأى حاجته إلى الإمارة والمال .

(٢) الضمير يعود إلى طريقتهم .

(٣) اقتباس من سورة التوبة ، الآية : ١٠٠ .

وفعل ما يقدر عليه من الخير : لم يُكَلَّفَ ما يعجز عنه : فإن قوام الدين بالكتاب الهادي ، والحديد الناصر كما ذكره الله تعالى» (١) .

قال أبو عبدالرحمن : وههنا أجمع بين البرهان على ما ذهب إليه ، والمعارضة والدفع لما خالفه بهذه الوقفات :

الوقفة الأولى : أن الملك شريعة من قبلنا ، وشرع من قبلنا شرع لنا ؛ لأن شرعهم هدى ، وقد أمر رسول الله ﷺ (وأمرت أمتي بالتبع) بالاقتداء بهديهم .. هذا هو الأصل، وهو اقتضاء يُعمل إذا تخلف المانع ؛ فلا نعدل عن هذا إلا بمانع من شريعتنا نعلم به أن تلك الأحاد من شرائع من قبلنا ليست شرعاً لنا؛ فنعدل عنه؛ لعلنا بأن لكل رسول شريعة مستقلة عن شرائع من قبله في الجملة لا في الأحاد .

الوقفة الثانية: من ذهب إلى أن الأصل نسخ كل الشرائع بشريعة محمد ﷺ، وجعل أمر الله عبده ورسوله محمداً ﷺ بالاقتداء بهدي الأنبياء والرسل قبله عليهم الصلاة والسلام خاصاً بالأخلاق والأخبار والعقائد دون الشرائع ؛ إذ جعل الله لكل رسول شرعة ومنهاجاً - والملك من شرائعهم عليهم الصلاة والسلام - : فالإقتضاء عنده الاستقلال بشريعة محمد ﷺ حتى يرد النص من ديننا بأن تلك الأحاد من شرائع من قبلنا كمشروعية الملك ليست شرعاً لنا .. وذلك النص الذي سيرد - في عرف أهل هذا المذهب - مانع من إعمال المقتضي (٢) عندهم في تلك الأحاد .. وهو في الوقت نفسه مقتضى للعمل بشرائع من قبلنا في تلك الأحاد .. والمانع عنده من الاقتداء بهم التخصيص بالشرعية ؛ فيبقى عموم الأمر على ما لا يقبل النسخ من العقائد والأخلاق والأخبار .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٨/٢٩٢ - ٣٩٦ .

(٢) وهو أن أحاد شرع من قبلنا ليست شرعاً لنا .

قال أبو عبد الرحمن : وهذا مذهب مرجوح ، ومع هذا نقول : هب أن الأمر كما قالوا : فنحن البراهين على أن الملك من شرعنا أيضاً : فهو من الشرائع التي لم تتسخ .. وينزه الله شرعه ويقدسه أن يمضي ربنا قدره الكوني بولاية ملوك مسلمين .. وفي تلك الولاية ما وصفه رسول الله ﷺ بأنه ملك رحمة ، ومنه ما وصفه بأنه ملك جبرية ، وأوجب الطاعة ما لم نر كفراً بواحاً ، وأمضى الله تطبيقات شريعة الإسلام وأمور المسلمين على أيديهم ، ثم تكون هذه الولاية محرمة شرعاً !! .. هذا لا يقوله من فقه في دين ربه .

الوقف الثالثة : لم يرد في ديننا تحريم الملك تحملاً ، ولم يرد في ديننا إفساده أداء ؛ فكان الاستصحاب للحال يقتضي إباحته : فلما وافق شرع من قبلنا : علم يقيناً أنه شريعة دينية .. فكيف وقد مدح رسول الله ﷺ ملك الرحمة منه ؟ .. فهذا يعني مشروعيته تحملاً ، وأوجب الطاعة في غير معصية الخالق ولو كان عضواً ما لم نر كفراً بواحاً : فهذا يعني صحته أداء .

الوقف الرابعة : أن الخلاف في مشروعية الملك بين علماء المسلمين أفضى إلى اجتهاد منع من شرعيته .. واجتهاد هؤلاء مرجوح ، وليسوا هم الجمهور ، ونظرتهم رحمة الله عليهم إلى النصوص والأصول جزئية ، والنصوص الصحيحة الصريحة يُضم بعضها إلى بعض ، وتُجمع دلالتها على مقصد واحد : لأنها واجبة الطاعة كلها ، ليس بعضها أولى بالطاعة من بعض .

الوقف الخامسة : يرى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - وإن لم يقطع على المنع من مشروعية الملك في آخر كلامه - أن خبر الرسول ﷺ بانقضاء خلافة النبوة فيه الذم للملك والعيب له .. ولا سيما وفي حديث أبي بكر : أنه استاء للرؤيا ، وقال : خلافة نبوة .

قال أبو عبدالرحمن: معاذ الله أن يُنسب لدين رب العالمين ذم الملك بإطلاق، وقد امتن به على بعض المصطفين من عباده، وجعله منةً على من أوتيته من أمة محمد ﷺ .. ثم نعود للنص الذي جعله شيخ الإسلام موضوعاً لاستتباطه ، فنرى أموراً :
أولها : أن حديث أبي بكر رضي الله عنه في الرواية غير المعلولة منه - مع أن المعلول صحيح أيضاً - ورد بهذا النص في رواية أبي داود : «أن النبي ﷺ قال ذات يوم : من رأى منكم رؤيا ؟ .

فقال رجل : أنا رأيت كأن ميزاناً نزل من السماء ؛ فَوُزِنْتَ أنت وأبو بكر .
فَرُجِحْتَ فَرُجِحْتَ أنت بأبي بكر .. ووزن أبو بكر وعمر ؛ فَرُجِحَ ، فَرُجِحَ أبو بكر ..
ووزن عمر وعثمان فرجح عمر .. ثم رفع الميزان .
فأرأينا الكراهية في وجه رسول الله ﷺ» .

قال أبو عبدالرحمن: رجحت الأولى بالبناء للمجهول، والثانية بالبناء للمعلوم .
وأضافت الرواية المعلولة - وهي صحيحة لغيرها - : «فاستاء لها [أي للرؤيا] رسول الله ﷺ فقال : خلافة نبوة ، ثم يؤتي الله الملك من يشاء .

قال أبو عبدالرحمن: هذا هو النص بلا تزيد أو نقص، والاستياء منصوب على الرؤيا ، وليس فيها ذكر للملك ألبتة ، وليس فيها أن عثمان وعلياً رضي الله عنهما ملكان ؛ فيتأول المتأول : أن استياءه عليه الصلاة والسلام من الملك الذي كانا عليه ..
فبأي حق ننسب إلى هذا النص الكريم ذم الملك والعيب له؟!

وثانيها : أنه لا يجوز أن يفسر استياء رسول الله ﷺ بأنه استياء من ذكر عثمان - وبعده علي - رضي الله عنهما ؛ فهما والله الخليفتان الراشدان السابقان من أهل الجنة يدخلونها بدءاً بيقين ؛ لأنهما ضمن العشرة المشهود لهم بالجنة ، وضمن أهل مواقف شهد لهم بالجنة بالجملة .

وثالثها : لما امتنع حمل الاستياء على الملك الذي لا وجود له في سياق مسبق يحال إليه ضمير الاستياء ومعموله ، وامتنع حمله على المذكور في السياق وهو عثمان بن عفان رضي الله عنه : تعيّن علينا أن نفحص الواقع؛ لنعرف وجه الاستياء : فلم نجد ما يصلح لذلك غير الطامة الكبرى ، والمصيبة العظمى من اختلاف الرعية على خليفتهما عثمان رضي الله عنه ، ولم تختلف على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .. ولو وزن عثمان رضي الله عنه في الرؤيا لرجح يقيناً؛ لتقدمه بعد صاحبيه؛ ولكن هذا الرجحان أهين باختلاف الرعية ، وقتل الخليفة الشهيد : فرفع الميزان لأجل ذلك .

ورابعها : أن الزيادة جاءت مضيضة الاستياء إلى الرؤيا ، مستأنفة حكماً شرعياً مع قضاء الله الكوني .. الحكم الشرعي بأن هناك خلافة نبوة .. وخلافة النبوة بمدلول نصوص أخرى - بالنسبة لما وقع - شاملة لخلافة عثمان وعلي رضي الله عنهما .. لا اختلاف بين أهل السنة والجماعة في ذلك .. ثم دل هذا الحديث بسياقه على أن خلفاء النبوة متفاضلون ؛ فخلافتهم متفاضلة ، وبمقدار القصور عن نهج النبوة تكون المفضولية .

وأما الحكم الكوني فهو الخبر بأن الله يؤتي الملك من يشاء ؛ وليس في ذلك ذم للملك ؛ فيلتمس حكم النص من خارج .

وخامسها : أن عمر رضي الله عنه عهد لابنه عبدالله أن يكون بين أهل الشورى الستة الذين لا تخرج الخلافة عنهم، ولم يجعله منهم؛ لأنهم أفضل، ولأنه رضي الله عنه أبعد عن نفسه تهمة المحاباة .. ولو وليها عبدالله بن عمر رضي الله عنه، وسار سيرة أبيه : لكان حكمه خلافة نبوة ، وكان شكل حكمه ملكية .

الوقفه الخامسة : عارض شيخ الإسلام القول بدم الشرع للملك بالنصوص الموجبة لنصب الأئمة والأمراء .. إلخ .

قال أبو عبدالرحمن: أما عمال الخليفة من الأمراء فليسوا موضوع نقاش، وأما إيجاب نصب الأئمة - يعني الولاة من الخلفاء أو الملوك - فليس موضع معارضة لمن جعل الملك مشروعاً، وإنما هو معارض لمن أوجب خلافة النبوة ولم يجز الملك ، ولم يجعل منه ما يتبع نهج خلافة النبوة بمقاربة أو تقصير .

قال أبو عبدالرحمن: وعن عموم الواقع الديني للملوك المسلمين ابتداء بملك معاوية رضي الله عنه .. قال شيخ الإسلام ابن تيمية مقيماً جدله على البدهيات التاريخية: «ومن قال عن معاوية وأمثاله (ممن ظهر إسلامه وصلاته، وحجه وصيامه): أنه لم يسلم، وأنه كان مقيماً على الكفر: فهو بمنزلة من يقول ذلك في غيره كما لو ادعى مدع ذلك في العباس، وجعفر، وعقيل ، وفي أبي بكر، وعمر ، وعثمان ، وكما لو ادعى أن الحسن والحسين ليسا ولدي علي بن أبي طالب ، و [كما] لو ادعى أن النبي ﷺ لم يتزوج ابنتي أبي بكر وعمر، ولم يزوج بنتيه عثمان .. بل إنكار إسلام معاوية أقبح من إنكار هذه الأمور؛ فإن منها ما لا يعرفه إلا العلماء.

وأما إسلام معاوية وولايته على المسلمين والإمارة والخلافة: فأمر يعرفه جماهير الخلق .. ولو أنكر إسلام علي أو ادّعى بقاءه على الكفر؛ لم يُحتجّ عليه إلا بمثل ما يُحتج به على من أنكر إسلام أبي بكر، وعمر، وعثمان، ومعاوية وغيرهم .. وإن كان بعضهم أفضل من بعض ؛ فتفاضلهم لا يمنع اشتراكهم في ظهور إسلامهم^(١).

(١) قال أبو عبدالرحمن : وهذا هو بيت القصيد : فإن المسألة عن أصل الإسلام لا عن التباين في الفضائل .. والمفاضلة إنما هي بين المسلمين ، ولا وجه للمفاضلة بين مسلم وكافر .. ولم يُظهر من أئمة ملوكه رضي الله عنه ما يقدح في إسلامه : بل هو أول ملوك الرحمة .. أما غلاة أهل البدعة فقد كفّروا خيار الصحابة رضي الله عنهم ، فما بالك بخيار الأمة ؟! .. وجعلوا خيار الأمة ضحايا ابن سبأ ، وهو يهودي من جملة يهود كادوا أهل الإسلام في السر ، وجعلوهم نحلاً وفرقاً من أئمة أهل البدع .

وأما قول القائل : إيمان معاوية كان نفاقاً فهو أيضاً من الكذب المختلق : فإنه ليس في علماء المسلمين من اتهم معاوية بالنفاق : بل العلماء متفقون على حسن إسلامه ، وقد توقف بعضهم في حسن إسلام أبي سفيان (أبيه) .. وأما معاوية وأخوه يزيد فلم يتنازعا في حسن إسلامهما ، كما لم يتنازعا في حسن إسلام عكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، وأمثالهم من مسلمة الفتح .. وكيف يكون رجلاً متولياً على المسلمين أربعين سنة نائباً ومستقلاً .. يصلي بهم الصلوات الخمس ، ويخطب ، ويعظهم ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويقىم فيهم الحدود ، ويقسم بينهم فيأهم ومغانمهم وصدقاتهم ، ويحج بهم .. ومع هذا يخفي نفاقه عليهم كلهم وفيهم من أعيان الصحابة [رضوان الله عليهم] جماعة كثيرة ٩ .

بل أبلغ من هذا أنه ولله الحمد لم يكن من الخلفاء الذين لهم ولاية عامة (من خلفاء بني أمية ، وبني العباس) أحد يُتهم بالزندقة والنفاق .. وبنو أمية لم يُنسب أحد منهم إلى الزندقة والنفاق وإن كان قد ينسب الرجل منهم إلى نوع من البدعة ، أو نوع من الظلم^(١) : لكن لم ينسب أحداً منهم من أهل العلم إلى زندقة ونفاق^(٢) .

واتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة : فإن الأربعة قبله كانوا

(١) قال أبو عبد الرحمن : وبهذا السبب قال الإمام عبد الله بن المبارك مغلطاً :

وهي من أمية بنيانها فهان على الله فقدانها

فلا آل حرب أطاعوا الإله ولم يتق الله مروانها

.. إلى آخر القصيدة .. وحظ ملك بني أمية الرحيم الذي جمع الله عليه الأمة أنه جاء مباشرة بعد الخلافة الراشدة .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٤/٤٧٦ - ٤٧٧ .

خلفاء نبوة ، وهو أول الملوك .. كان ملكه ملكاً ورحمةً كما جاء في الحديث : يكون الملك نبوة ورحمة ، ثم تكون خلافة ورحمة ، ثم يكون ملك ورحمة ، ثم ملك وجبرية ، ثم ملك عضوض .. وكان في ملكه من الرحمة والحلم ونفع المسلمين ما يُعلم أنه كان خيراً من مُلك غيره .

وأما مَنْ قبله فكانوا خلفاء نبوة ؛ فإنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : «تكون خلافة النبوة ثلاثين سنة ، ثم تصير ملكاً» .. وكان أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي رضي الله عنهم : هم الخلفاء الراشدون ، والأئمة المهديون الذين قال فيهم النبي ﷺ : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي .. تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل محدثة بدعة» (١) .

وقال شيخ الإسلام : «فلما ذهب دولة الخلفاء الراشدين ، وصار ملكاً ظهر النقص في الأمراء ؛ فلا بد أن يظهر أيضاً في أهل العلم والدين ؛ فحدث في آخر خلافة علي [رضي الله عنه] بدعتا الخوارج والرافضة ؛ إذ هي متعلقة بالإمامة والخلافة ، وتوابع ذلك من الأعمال والأحكام الشرعية .

وكان ملك معاوية [رضي الله عنه] ملكاً ورحمةً ؛ فلما ذهب معاوية رحمة الله عليه وجاءت إمارة يزيد : جرت (٢) فتنة قتل الحسين بالعراق ، وفتنة أهل الحرة بالمدينة ، وحصروا مكة لما قام عبدالله بن الزبير» (٣) .

وقال : «وقد ذكرت في غير هذا الموضع أن مصير الأمر إلى الملوك ونوابهم من الولاة والقضاة والأمراء ليس لنقص فيهم فقط ؛ بل لنقص في الراعي والرعية

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٤/٤٧٦ - ٤٧٩ .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : في الأصل المطبوع : وجرت .

(٣) المرجع السابق ١٠/٣٥٦ .

جميعاً : فإنه كما تكونون يُؤَلَّ عليكم^(١)، وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُولِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢) .

(١) روي من طريق أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعاً ومرسلاً .. وأسانيده ضعيفة في كل ذلك .. انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة للشيخ الألباني ١/٤٩٠ - ٤٩١ رقم ٢٢٠ .. قال : «ثم إن الحديث معناه غير صحيح على إطلاقه عندي : فقد حدثنا التاريخ [عن] تولي رجل صالح عقب أمير غير صالح والشعب هو الشعب» .

(٢) آخر الآية ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أكملت به استشهاد ابن تيمية ، ليظهر وجه الشاهد .. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/١٦٤ : «قال سعيد : عن قتادة في تفسيرها : إنما يولي الله الناس بأعمالهم ، فال مؤمن ولي المؤمن أين كان وحيث كان ، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان ، وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي .. واختاره ابن جرير ، وقال معمر : عن قتادة في تفسير الآية : يولي الله بعض الظالمين بعضاً في النار ، يتبع بعضهم بعضاً .. وقال مالك بن دينار : قرأت في الزبور : إني أنتقم من المنافقين بالمنافقين ، ثم أنتقم من المنافقين جميعاً ، وذلك في كتاب الله قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ نُولِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ .. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿وَكَذَلِكَ نُولِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ قال : ظالمي الجن وظالمي الإنس ، وقرأ ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ .. قال : ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس ، وقد روى الحافظ بن عساكر في ترجمة عبد الباقي ابن أحمد : من طريق سعيد بن عبد الجبار الكرابيسي: عن حماد بن سلمة : عن عاصم : عن زر : عن ابن مسعود مرفوعاً : «من أعان ظالماً سلطه الله عليه» .. وهذا حديث غريب ، وقال بعض الشعراء :

وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيلى بظالم

ومعنى الآية الكريمة : «كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن : كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ونهلك بعضهم ببعض ونتقم من بعضهم ببعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم» .

قال أبو عبد الرحمن : ظهر من هذا أن استشهاد شيخ الإسلام رحمه الله بالآية الكريمة غير وارد ، وسياق الآيات الكريمة عن تناصر الظلمة وليس عن ولاية فاسق على فاسق ، أو مؤمن على مؤمنين : فليس هذا قاعدة تاريخية .. وليس كل ظالم تكون رعيته كلها من الظلمة وإن ظهر النقص في جملتهم .

وقد استفاض وتقرر في غير هذا الموضع ما قد أمر به ﷺ - من طاعة الأمراء في غير معصية الله، ومناصحتهم، والصبر عليهم في حكمهم وقسمهم، والغزو معهم، والصلاة خلفهم، ونحو ذلك من متابعتهم في الحسنات التي لا يقوم بها إلا هم؛ فإنه من باب التعاون على البر والتقوى -، وما نهى عنه^(١) (من تصديقهم بكذبهم، وإعانتهم على ظلمهم، وطاعتهم في معصية الله، ونحو ذلك مما هو من باب التعاون على الإثم والعدوان)، وما أمر به أيضاً من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لهم ولغيرهم على الوجه المشروع، وما يدخل في ذلك من تبليغ رسالات الله إليهم.. بحيث لا يترك ذلك جبناً، ولا بخلاً، ولا خشية لهم، ولا اشتراء للثمن القليل بآيات الله.. ولا يفعل أيضاً للرئاسة عليهم، ولا على العامة، ولا للحسد، ولا للكبر، ولا للرياء لهم، ولا للعامة.. ولا يزال المنكر بما هو أنكر منه؛ بحيث يُخرج عليهم بالسلاح؛ وتقام الفتن كما هو معروف من أصول أهل السنة والجماعة كما دلت عليه النصوص النبوية؛ لما في ذلك من الفساد الذي يُربي على فساد ما يكون من ظلمهم؛ بل يُطاع الله فيهم وفي غيرهم، ويُفعل ما أمر به، ويُترك ما نهى عنه^(٢).

وقال: «وإنما كان المعروفون بالزندقة والنفاق بني عبيد القداح الذين كانوا بمصر والمغرب، وكانوا يدعون أنهم علويون.. وإنما كانوا من ذرية الكفار؛ فهؤلاء قد اتفق أهل العلم على رميهم بالزندقة والنفاق، وكذلك رُمي بالزندقة والنفاق قوم من ملوك النواحي الخلفاء من بني بُويه وغير بني بُويه.. فأما خليفة عام الولاية في

(١) قوله: «وما نهى» معطوف على قوله السابق: «ما قد أمر به».

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٠/٣٥ - ٢١.

الإسلام فقد طهر الله المسلمين أن يكون ولي أمرهم زنديقاً منافقاً؛ فهذا مما ينبغي أن يعلم ويعرف : فإنه نافع في هذا الباب (١) .

وقال : «كيف تكون العصمة في ذرية عبدالله بن ميمون القداح (٢) مع شهرة النفاق والكذب والضلال ؟! .. وهب أن الأمر ليس كذلك : فلا ريب أن سيرتهم من سيرة الملوك وأكثرها (٣) ظلماً وانتهاكاً للمحرمات ، وأبعدها عن إقامة الأمور والواجبات ، وأعظم إظهاراً للبدع المخالفة للكتاب والسنة وإعانة لأهل النفاق والبدعة .

وقد اتفق أهل العلم على أن دولة بني أمية وبني العباس أقرب إلى الله ورسوله من دولتهم ، وأعظم علماً وإيماناً من دولتهم ، وأقل بدعاً وفجوراً من بدعتهم ، وأن خليفة الدولتين أطوع لله ورسوله من خلفاء دولتهم .. ولم يكن في خلفاء الدولتين من يجوز أن يقال فيه : إنه معصوم ؛ فكيف يدعي العصمة من ظهرت عنه الفواحش والمنكرات ، والظلم والبغي ، والعدوان والعداوة لأهل البر والتقوى من الأمة ، والاطمئنان لأهل الكفر والنفاق ؟! .. فهم من أفسق الناس ، ومن أكفر الناس .. وما يدعي العصمة في النفاق والفسوق إلا جاهل مبسوط الجهل ، أو زنديق يقول بلا علم .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٤/٤٧٨ .

(٢) فقيه إمامي من رجال الحديث ، واهي الحديث عند أهل السنة .. أبوه فارسي الأصل . مخزومي بالولاء كان يبرى القداح (وهي السهام) ؛ فعرف بالقداح توفي سنة ١٨٠ هـ .. انظر الأعلام ٤/١٤١ ويهودي من سلمية تزوج أمه رجل من سلمية في سوريا ، ثم أرسله إلى المغرب ، وتسمى بعبيد الله المهدي ، وهو صاحب المذهب الإسماعيلي .

(٣) يظهر لي أن الواو قبل أكثرهم تطبيع أو خطأ في الأصل .

ومن المعلوم الذي لا ريب فيه أن من شهد لهم بالإيمان والتقوى ، أو بصحة النسب : فقد شهد لهم بما لا يعلم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (١) .. وقال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، وقال عن إخوة يوسف : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا ﴾ (٣) .. وليس أحد من الناس يعلم صحة نسبهم ولا ثبوت إيمانهم وتقواهم ؛ فإن غاية ما يزعمه أنهم كانوا يظهرون الإسلام والتزام شرائعه .. وليس كل من أظهر الإسلام يكون مؤمناً في الباطن؛ إذ قد عرف في المظهرين للإسلام المؤمن والمنافق (٤) .. قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٦) ، وقال تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (٧) .. وهؤلاء القوم يشهد عليهم علماء الأمة وأئمتها وجماهيرها أنهم كانوا منافقين زنادقة ، يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر» (٨) .

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٣٦ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٨٦ .

(٣) سورة يوسف ، الآية : ٨١ .

(٤) قال أبو عبد الرحمن : بل عرفوا بما ظهر منهم من كفر وبدعة .. وهذا الإظهار الأخير دل على أن إظهارهم الأول مجرد نفاق .

(٥) سورة البقرة ، الآية : ٨ .

(٦) سورة المنافقون ، الآية : ١ .

(٧) سورة الحجرات ، الآية : ١٤ .

(٨) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٥ / ١٢٧ - ١٢٨ .

الحواشي

(١) الصواب إما الدعاء بصيغته مثل : اللهم ارحمه ، أو بصيغة الدعاء مجازاً بالفعل الماضي مثل: رحمه الله ، وغفر له ، ونور ضريحه .. إلخ .. وبعضهم يُعبر بصيغة المضارع مثل : يرحمه الله .. وهذا الاستعمال لا يدل على الدعاء لا حقيقة ولا مجازاً .. أما الماضي فيشعر بالدعاء في الاستعمال الفصح .. عبروا بالخبر عن الماضي والمراد الطلب ؛ للدلالة على أن المطلوب قد تحقق على سبيل عظم الرجاء .

ولقد كتب معالي الدكتور الخويطر في جريدة الجزيرة العدد ٩٣٠٨ في ٢٦/١١/١٤١٨هـ عن استهجان التعبير بـيرحمه الله ، وتابعته بالتأييد والشواهد في تباريحي بالمجلة العربية .. وأطربني تناول معاليه الاستقرائي على هذا النحو : رضي الله عنه ، ورحمه ، وعفا عنه، وغفر له، وتجاوز عن سيئاته ، ووقفه ، وشفاه ، وعافاه ، وتقبل منه ، وأراحه ، وأصلحه ، وجعل الجنة مثواه . قال أبو عبد الرحمن : ومثل ذلك : أيده الله ، وأدام توفيقه ، وأطال عمره ، وشكر سعيه ، وألهمه السداد ، ووقاه السيآت ، وأقال عثرته ، وقدس روحه ، ونور ضريحه ، وبيض وجهه ، وكفاه ، ورزقه ، ونصره ، وأحسن عاقبته ، وطيب ثراه ، وأسبغ عليه نعمه ، وخلف عليه ، وآجره من مصيبتة ، وأجزل مثوبته ، ونور طريقه ، وتابع عليه عوائده الجميلة - والمراد العائدة لا العادة ؛ لأن هذا الدعاء من أدعية العامة - ، وصرف عنه كل مكروه ، وحقق أمنيته ، وأناله مناه ، وأورثه الجنة ، وأرغم أنف عدوه ، وأهلك الله الظلمة ، وخذل الله العدو ، وعجل بفرج فلان ، وأزال كربته ، وأقر عينه ، وأنعم الله عليه ، وبارك فيه ،

وأكرمه ، وأبقاه ، ونسأ في أجله .. إلخ .. إلخ : فكل هذه الصيغ من الماضي في نحو سيبويه أخبار ، ولكنها في نحو عبدالقاهر دعاء .. وأضاف مصحح هذا الكتاب الشيخ أحمد يوسف القادري : أن ألفاظ العقود المستقبلية كلها بصيغة الماضي مثل : بعثك ، واشترت .. والمراد بها الخبر لا الإنشاء .. وأعجبنى ثانية اللفت إلى مزلق عند التحول من مألوف العرب في استعمال الخبر بمعنى الإنشاء .. هذا المزلق قد يكون باستحلاء عبارات من تقرر لهم الأجراس يوم الأحد مثل «يباركه الرب» !! .. وبقيت ثلاثة يجب التنبيه عليها ، وهي أن القوم المعبرين بالمضارع في قولهم : «يرحمه الله» عن الماضي «رحمه الله» : وقعوا فيما فروا منه ؛ لأنهم ظنوا أن التعبير بالماضي افتيات على الله ؛ إذ أخبر المعبر عن رحمة واقعة لعبده الفلاني ونحن لا نعلم قضاءه المغيب في عبده ؟! .. لكنهم إنما فروا من صيغة إلى صيغة ، ولم يفروا من المعنى المشترك بينهما ؛ إذ الماضي والمضارع كلاهما خبران ، وإنما الاختلاف في الزمن !! .. إنهم في صيغة المضارع أخبروا بأن الله سيرحم عبده في المستقبل من الزمان المتصل بنطقهم الآتي بالخبر المضارع ؛ فأخبروا بما لا يدرون عنه من قضاء الله المغيب الذي سيمضيه في عبده .

وبقيت رابعة ، وهي أن للعرب نحوين : نحواً يضبط أواخر الكلم في النطق ، ويبين زمان الكلمة ، أو يؤكد ، أو يفسرها بالبدل ، أو التمييز .. إلخ .. إلخ .. وهذا هو نحو سيبويه .. ونحواً يُنزل معاني سيبويه على مراد المتكلم لنكت دقيقة ، ومطامح جمالية ، وذلك هو نحو عبدالقاهر ؛ فأوقعوا الماضي الخبري مكان الأمر الإنشائي تفاؤلاً بالوقوع والتحقق ؛ لسعة لغة العرب ، وجمالها ، ومعقولها في مجازها .. وجرى هذا التجوز في الأسلوب العربي ، والنص

الشرعي : لأن الشرع أت على ملاحن لغة العرب : فكان المتبادر إلى الذهن أن الماضي في تلك الصيغ يراد به الإنشاء دعاء : لأن المجاز الغالب الاستعمال مقدم على ظاهر الكلام المجرد من الحلية البلاغية .

وبقيت خامسة ، وهي أن قولهم : «في زمن المرحوم» مما لا ينبغي شرعاً ، وليست «المرحوم» جائزة جواز «رحمه الله» ؛ لأنه لم يمض بها استعمال عربي أقرته الشريعة بتعابير مماثلة.. ويعذر المتجاوز بالمرحوم - وهو يريد الدعاء - في الأولى ، ولا يقر في الثانية بعد إعلامه أن سعة الشرع لم تجر بذلك ، وأن الأصل عدم التألي على الله .. وبإيجاز فصيغة المضارع خبر عن الله ، وعمّا سيفعله للمدعو له في المستقبل .. وأما صيغة الماضي فقد غلب استعمالها للدعاء ؛ فلا معنى إذن للهروب من الفعل الماضي .. وأما المرحوم ، والمغفور له فمن استعمال العامة ، وتدل على التفاؤل ولا تدل على الدعاء .. وانظر كتابي مسائل من تاريخ الجزيرة العربية ص ٣٦ - ٣٨ .

(٢) ذهب ابن فارس في معييس اللغة ص ٤١١ - ٤١٢ إلى أن أصل المادة معنيان : أحدهما : التراب مثل «أرغم الله أنفه» .. أي ألصقه بالتراب ، ثم حُمِل عليه (يعني بالمجاز) : فقال الخليل : الرغم أن يفعل ما يكره الإنسان .
وثانيهما : المذهب والمهرب كما في قوله تعالى : ﴿يَجِدُ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [سورة النساء / ١٠٠] .
وقال الراغب في المفردات ص ٢٥٩ : «الرغام التراب الدقيق، ويعبر بذلك عن السخط كقول الشاعر :

إذا رغمت تلك الأنوف لم أرضها ولم أطلب العتبى ولكن أزيدها

فمقابلته بالإرضاء مما يُنبئ دلالته على الإسقاط، ثم تُستعار المراغمة للمنازعة.. قال الله تعالى: ﴿يَجِدُ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا﴾ .. أي مذهباً يذهب إليه إذا رأى منكراً يلزمه أن يغضب منه» .. وفي تاج العروس ٢٩٤/١٦-٢٩٧: الرغم الكره - ويُثَلَّث - ، وفي الحديث بعثت مرغمةً .. أي هواناً وذلاً للمشاركين عن كره ، وهو مجاز .. وفعله رغماً ، ولأنفه الرُّغم والمرغمة .. وقد رغمه كرهه.. والرَّغْم القسر، والذل عن كره ، وهو مجاز .. ويقال : رغم أنفاً : فعله على رغمه .. والرَّغْم منه .. وأرغمه الذل ألصقه بالرغام .. هذا هو الأصل ، ثم استعمل بمعنى الذل والانقياد على كره .

والرغام الثَّرى ، وقيل : تراب لين وليس بدقيق ، أو رمل مختلط بتراب .. وقال الأصمعي : الرغام من الرمل ليس بالذي يسيل من اليد .. وقال أبو عمرو : هو دقاق التراب .. والرغام اسم رملة بعينها .. والذي حكى ابن بري : عن أبي عمرو : الرغام رمل يَغشى البصر .. فليس فيه ما يدل على أنه اسم رمل بعينه؛ فتأمله .. ومن المجاز المراغمة بمعنى الهجران والتباعد والمغاضبة ، وهو مأخوذ من الرغام .. وعلى رغمه .. أي كرهه وغضبه ومساءته .. وقال محمد العدناني في معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة ص٢٦٥: «يُخَطِّئون من يقول : فعلت كذا رغماً عن فلان .. ويقولون : إن الصواب هو : فعلت كذا على الرغم منه، أو برغمه .. ولكن جاء في الجزء الخامس والعشرين من مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة : إن مؤتمر المجمع المنعقد في كانون الثاني عام ١٩٦٩م أقر المسألة الآتية التي عرضتها لجنة الأصول عليه : يستعمل الكتاب هذا التعبير: فعلت كذا رغم كذا، أو رغماً عن كذا .. والمسموع الفصيح في مثل هذا : فعلت كذا على الرغم من كذا، أو برغم كذا .

ويمكن أن يعلل استعمال فعلت كذا رغم كذا، أو رغباً عن كذا : بأن «رَغِمَ» هنا حالٌ مصدرٌ بمعنى اسم الفاعل، أو منصوب على نزع الخافض .. كذلك يمكن استعمال «عن» مكان «من» : بأن الأولى تتوب مناب الأخرى ؛ فإن «عن» توافق «من» وترادفها ، وتكون بمعناها كما صرح بذلك النحاة» .

قال أبو عبد الرحمن : ههنا وقفات :

الوقففة الأولى : لا يجوز أن يكون الرغام بمعنى التراب بإطلاق ؛ لأنه يتمتع أن يكون أصلاً يدلان على معنى واحد دلالة مطابقة؛ ولهذا فالصواب التقييد بالتراب الدقيق كما قال الراغب.

الوقففة الثانية : التقييد بالتراب الدقيق هو الأصح؛ لأن ذلك هو اللائق بإذلال الأنف.

الوقففة الثالثة : الأصل واحد هو دقيق التراب لا أصلاً كما قال ابن فارس ؛ لأن كل المعاني الباقية مجازية ، فالإصاق بالرغام في عادة البشر ومشاعرهم ذل وإكراه .. والمذهب والمهرب والتهاجر سبيل إلى الهروب عن إذلال، أو إغضاب لمن هاجرت عنه ، أو أن الهجرة عن غضب؛ لأن الإذلال والإغضاب يُغضبان .

الوقففة الرابعة: حُوِّلَت الرغام إلى صيغ الأفعال أرغم ويرغم .. إلخ؛ لما انتقلت إلى المعاني المجازية.

الوقففة الخامسة : قولهم : فعله على رغبه ، وفُعل - بصيغة المبني للمجهول - على رغبه : بمعنى أن الفعل كائن على كرهه وذله وسخطه .

الوقففة السادسة : قولهم : فعله رغباً بمعنى كرهاً .

الوقففة السابعة : قولهم : فعله على الرغم منه: بمعنى فعله على كره كائن منه.

الوقففة الثامنة : القول بأن الرغام الثرى ، أو التراب اللين : فذلك صحيح على المجاز عن عموم كل تراب وثرى ورمل .. أما الأصل فدقة التراب كما سلف .

الوقففة التاسعة : لا تعارض فيما حُكي عن أبي عمرو من كون الرغام اسم رملة بعينها ، أو أن الرغام رمل يغشى البصر ؛ لأن الأصل الوصف ، ثم أصبح اسماً لرملة بعينها .

الوقففة العاشرة : فعلت كذا رغباً عنه بمعنى فعلته كرهاً كائناً عنه .

الوقففة الحادية عشرة : قولهم : فعلته برغمه : بمعنى فعلته ملتصقاً - أي الفعل - بكرهه وسخطه .

الوقففة الثانية عشرة : قولهم : فعلت كذا رغباً كذا : لا تعليل له إلا بما علل به المجمع اللغوي بحيث يكون التقدير : فعلت كذا حالة كونه مُرْغِماً .

الوقففة الثالثة عشرة : قولهم : فعلت كذا رغباً عن كذا : بمعنى فعلته كرهاً كائناً عن كذا .. ولا يتعين ما قرره المجمع من تخريج ؛ بأن تكون «عن» بمعنى «من» .

الوقففة الرابعة عشرة : كل ما مضى عن استعمال الرغم بحرف جر : أظهر استقلال كل حرف بمعناه دون الحاجة إلى الحمل على معنى حرف آخر .

الوقففة الخامسة عشرة : في كلمة الدكتور رويحة ههنا (وهي على رغم جودة مناخها) تتخرج نحواً بمعنى : وهى على كره أو سخط أو ذل كائن على جودة مناخها .. إلا أن هذا المعنى النحوي الصحيح لا يُعبّر عن المراد ؛ لأن السياق لا يدل على هذا المعنى ؛ فلا سخط ولا كره ولا ذل لجودة المناخ ؛ فلا يصح هذا السياق إلا بنكتة بلاغية تُسند السخط إلى الجماد ، ولا نكتة ههنا .. والتعبير الصحيح في مثل هذا السياق «ومع جودة مناخها» وما أشبه ذلك .. وذكر العدناني في كتابه معجم الأخطاء الشائعة ص ١٠٥ - ١٠٦ خطأ قولهم : أحبه

على رغم كرهه لي .. وما قاله هو الصواب بلاغةً لا نحواً ؛ لأن التقدير : أحبه على كرهٍ كائن على كرهه لي .. إلا أن هذا المعنى النحوي الصحيح لا ينتج معنى مفهوماً معقولاً .

(٢) قال أبو عبد الرحمن : والإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تابع للأئمة من السلف الصالح .. ومعنى التجديد عنده - الذي بسببه سُمي السلفيون وهابية - أنه أعمل في جزيرة العرب ما أهمل من عقيدة السلف وسلوكهم .. ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي أُقيم عليها دعوة التوحيد إلى هذا اليوم لا تنتسب إلى محمد ؛ بحيث يقال لها : وهابية .. إلا من جهة أن المحدثين دعوا ، وبعثنا ما حصله : اتفقوا ، وأجمعوا .. ومعمول أجمعوا واتفقوا «على ما عليه الرسول ﷺ وأصحابه» ؛ فمن وجد عند أهل الدعوة غير ذلك من أصول الدين وعقيدة ذويه فليطرحه .. على أن باب النقاش مفتوح للبرهنة على أن ذلك لن يوجد .

قال أبو عبد الرحمن : وإلى ما بُعيد وفاة الإمام الجهيد سماحة الشيخ محمد ابن إبراهيم رحمه الله وطيب ذكراه كنا مجتمعين على مذهب السلف ، ثم دخلتنا الخلطة من الحركيين بكل أوشابهم ، وبكل سلبياتهم وإيجابياتهم : فكنا نكون متأثرين أكثر من كوننا مؤثرين ؛ وكأننا مللنا من طول الإقامة على الحق ، وكأننا رغبتنا لذة الجديد على عزة الحق القديم!!... وتلقينا تنظير مثقفين حركيين ليست لهم الإمامة في أصول الدين وعقيدة المسلمين التي جرت بها السيرة العملية منذ محمد ﷺ .. إلى أصحابه ، وتابعيه .. إلى النزاع في قرون شتى .. ولانت العريكة ، ووجدت لدى كثير من الناس القابلية لغسيل المخ ؛ لكثرة ما يقرع أسماعهم من شتائم البدعيين للسلفيين كالتزمت ، والفقهاء

البدوي أو الصحراوي ، والقصور عن فقه الواقع ومواكبة العصر .. وَرَبِطَ بتعسفِ القصورُ في فقه الفروع بما عليه الإجماع والاتفاق من عقيدة السلف ، وبما هو بها ألصق من الفقه الاجتهادي في الفروع كتعامل الرعية مع الراعي، وتعامل الراعي مع الدول الغالبة ، وتحديات العصر .. فإن كانوا يخلطون من الوهابية أو السلفية أو الحشوية أو المجسمة وما أشبه ذلك من صفات ذم ، أو صفات مدح حُوِّلَت إلى ذم : فليبحثوا عن ضالتهم بيضاء لم تشب .. ولا وجود لهذا الوصف إلا في السيرة العملية والقولية والاعتقادية للرسول ﷺ وأصحابه الذين لم يختلفوا في العقيدة .. ثم تظل هذه السيمة لمن هو على ذلك المنهج إلى أن تقوم الساعة ، وتظل في الخطاب الشرعي القطعي دلالة وثبوتاً .. وأما الوشب فهو مزاحمة ما عليه الرسول ﷺ وأصحابه بمستحدثٍ، وينقل عن غير معصوم، وبأن ينسب إلى المعصوم ما ليس من دينه بنقل كاذب ، أو تأويل نص صحيح بما لا يقبله علم الدلالة بما فيه من قواعد الترجيح المبنية على اللغة وضرورات الفكر.

وصيحات البدعيين ليست وليدة ، ولكنها كانت تتحطم على ثوابتنا ؛ فتذهب تشنعاتهم صرخة في واد يتلقفها الصدى ، ونفخة في رماد حثوُّها على أعينهم، وممن بُلي بالبدعيين الشيخ الإمام عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله، فقال - كما في الرسائل والمسائل النجدية ٣٦٧/٢ - ٣٦٨ - رداً على كلمة بدعي وصف دعوة الشيخ محمد بالمذهب الخامس (ولا تزال هذه الكلمة هجاء عند العوام وأشباه العوام في بعض الأقطار) .. قال رحمه الله : « الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد، وآله وصحبه أجمعين : أما بعد فقد وصلت إلينا الأسئلة التي صدرت

من جهة الساحل الشرقي على يد الأخ سعد البواردي:

السؤال الأول: قول الملحد الضال المجادل في دين الله: إن الأمر الذي جاء به الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله مذهب خامس، وغش للأمة؛ فهل يكون هذا القائل سنياً أو مبتدعاً؟.

فالجواب وبالله التوفيق: إنما تدل مقالاته هذه على أنه من أجهل خلق الله في دين الله، وأبعدهم عن الإسلام، وأبينهم ضلالة؛ فإن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله إنما دعا الناس إلى أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، ولا يشركوا به شيئاً.. وهذا لا يرتاب فيه مسلم: أنه دين الله الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وقوله: «مذهب خامس» يبيّن جهله، وأنه لا يعرف العلم ولا العلماء؛ فإن الذي قام به شيخ الإسلام لا يقال له: مذهب.. وإنما يقال له: دين وملة.. فإن التوحيد هو دين الله، وملة خليله إبراهيم، ودين جميع الأنبياء والمرسلين [عليهم الصلاة والسلام]، وهو الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ، وأجمع عليه علماء الأمة سلفاً وخلفاً، ولا يخالف في هذا إلا من هو مشرك كما قال تعالى: ﴿.. فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ..﴾ [سورة الزمر/ ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [سورة البينة/ ٥]؛ فسماه الله تعالى في هاتين الآيتين وغيرهما من آي القرآن ديناً، ولم يسمه مذهباً.

قال أبو عبدالرحمن: وانظر كتاب «الإخوان السعوديون في عقدين» تأليف جون س حبيب ص ٣٠٧ - ٣١٠.

(٤) قال أبو عبدالرحمن : ههنا طرفة أدبية لها دلالتها على مرارة الشعور بضيق القدرة المالية والعسكرية ، وذلك أن سليم بن عبدالحى قال قصيدة لامية على لسان الإمام عبدالرحمن تصور طموحه إلى يدِ ذي مُلكٍ تعطي وتأمّر ، وقد أعجبت القصيدة الإمام عبدالرحمن ؛ فأعطاهما الشيخ سليمان بن سحمان ليحول معانيها إلى قصيدة فصيحة .. يقول سليم :

تفكرت بالدنيا ولا بالفكر جا لي ولا أنا باول من تفكرو ولا تالي
تقدم مقالي كم من قايل بها معيب عليها بالدلائل والامثال
غرور لمن صافت سريع زوالها ملول هواها عن هل الخير ميال

قال أبو عبدالرحمن: وكلا القصيدتين على الطويل، ويقابل ما مر قول ابن سحمان:

فدع عنك ذكرى ساكن الدار إنما قصارك في الدنيا كبلغة راحل
وما المرأ في الدنيا وإن عاش بالغا مناه بها إلا على غير طائل
فما هي إلا كالسراب بقيعة يُغرّبها الظمان من كل جاهل
فدعها ولا تركز إلى فيئ ظلها فلم أرها يشقى بها كل عاقل
خدوع لمن صافت سريع زوالها ويسألها أهل النهى والأفاضل

قال أبو عبدالرحمن : أضاف ابن سحمان إلى ما ليس عند سليم رحمهما الله ، وورد عند سليم ما لم يذكره ابن سحمان .. والبيت الأخير فيه إقواء ؛ لأنه مرفوع خلال قافية مجرورة .. وقال سليم :

قليل مصافها هل الحمد والثنا كثير مراعاها الدعا بيل الاندال
تخبا عن اعزاز الحمائل وتختفي وبالبشرى تستلقي الرجا بيل الاندال
ولو قابلت حين بحين تزخرفت ولابدها من صدة عقب الاقبال

ويقابل ذلك قول ابن سحمان :

قليل مصافها ذوي الخير والتقى كثير مراعاها الرعا والأسافل
تميل إلى الأندال من كل جاهل وتعرض عن أهل العلى والفواضل
فمن رامها بالود تغريه بالهوى كما اغتربها كل نذل وخامل
فلو أقبلت حيناً من الدهر للفتى فلا بد من إدبارها في الزلازل

قال أبو عبد الرحمن : في شعر ابن سحمان ما ليس في شعر سليم إلا إن كان البيت قبل الأخير ورد في شعر سليم ولم تبلغني روايته .. والبيت الأول فيه ضرورة حيث عبّر عن الرعاع بالرعا ، وحق الأسافل النصب ، ففي البيت إقواء.. وقال سليم :

على الناس دالوب الدواير يديرها بها يمتلي كف وكف بها خالي
فمن عاش لوعمر فخيره إلى الفنا ترى العمر مثل الظل والظل زوال
ومن حاز كنز المال وانصر حاجبه عن الضيف والعاني عدم لذة المال

ويقابل هذه الأبيات قول ابن سحمان :

يجيء بأحداث الليالي صروفها فتنجاب عن أحداثها بالهوائل
فلا يأمن الدنيا من الناس عارف ولا يحمل الأثقال فيها بعافل
ولا يدرك المقصود من نال وصلها وهل نال منها وصلها كل أمل
فما هي إلا بالحظوظ حصولها على ما يشاء الله أحكم عادل
فمن نال كنز المال وازور جانباً عن الضيف والعاني كفعل الأراذل

قال أبو عبد الرحمن : في هذا قصور عن معاني سليم ، وفيه إضافات مقحمة

إلا أن يكون ضمن قصيدة سليم أبيات لم تبلغني روايتها ، والباء في «عاقل» لا معنى لها ، وهي ضرورة قبيحة .. وقال سليم :

فلو نال ما قد حاز قارون واحتوى فلا ينفعه الشح لو نال ما نال
يا كائز الدنيا ويا جامع الغنى لمن تجمعه يا مالك الغل وهبال
فلا عاد ما انت بمدرك به بنا العلا عذاب عليك بماقف الحشر وانكال
ويقابل ذلك قول ابن سحمان :

فلو نال ما قد حاز قارون واحتوى عليه فمال نفعه غير طائل
ولو كانت الأموال تدرك بالعلی لأدركها أهل العلى والفواضل
ولكنها الأرزاق كلٌ ميسَّرٌ لما هو مقسوم له في الأوائل
هنيئاً لمن بالعز قد عاش سالماً ولا نال ذلاً من عدو مخاتل
ولم ير بالمكروه تكدير ما صفا وراح خليّ البال من كل شاغل
أرى الضخر في التقوى وفي منهج الهدى بها يصعد الإنسان أعلى المنازل
قال أبو عبدالرحمن : اعتمدت على رواية الشيخ ابن يحيى لقصيدة سليم في كتابه لباب الأفكار ، وترتيب قصيدة سليم في الباب لا يوافق ترتيب قصيدة ابن سحمان ؛ ولهذا فبعض هذه الأبيات يوافق قول سليم :

فلو هي على الهقوات والشف والمنى فلا تخطي الدنيا مذاريب الافعال
ولكن قِسَمَاتِ بها قد مضى القضا قديم على ماضي الاوائل وأجيال
متاع قليل لو تهادى بها البقا ولكن مشمول بها طول الامال
هني لمن عانه زمانه وساعده مع العز ما هانه هوانه بالاذلال
ولا كدرُ المكروه صافي معيشته مسيح مريح البال عن كثر الاشغال

قال أبو عبد الرحمن : وفي شعر سليم هذا والذي قبله ما لم يتطرق ابن
سحمان إلى معانيه .. وقال ابن سحمان :

كذاك جنان ثابت الجأش في اللقا إذا اضطربت نار الوغى في الجحافل
وجزم وعزم صادق ونباهة برأي سديد في الخطوب النوازل
وجود ببذل المال للناس عندما تنوب صروف الدهر ذات الزلازل
قال أبو عبد الرحمن : لم أجد لهذه الأبيات مقابلاً في شعر سليم .. وقال
سليم:

فلا كل مخلوق يسرك من الملا ولا كل رجّال يعوضك برجال
خلقنا على الدنيا نكايد نكودها كذا فعلها في الناس ميل وعدال
من الله لا منها ولكن هي السبب تجرّ الدهايا بالسرايا والادوال
ويقابل هذا قول ابن سحمان :

فما كل مخلوق يُسرُّ من الورى ولا كل إنسان تراه بكامل
ولا كل إنسان يعوضك غيره من الناس ذو عقل وحلم ونائل
وقد خلق الإنسان في هذه الدنى يكابد فيها للنكود الشواغل
تجر الدواهي والرزايا صروفها بتقدير خلاق وتدبير عادل

قال أبو عبد الرحمن : عدلت الدنيا إلى الدنى لأجل الوزن .. وقال سليم :

عسى لي مقافاها بالاقبال تنثني سريع وتاتي لي على ما هوى بالي
واجازي بها راعي الحساني بمثلها واكيد العدو بها واغله إلى عال
حياة بلا وجد حياة شقية ومقام بلا عزّ شمات وغريال

قال أبو عبد الرحمن : هذان البيتان الأخيران هما بيت القصيد .. ويقابل ذلك

قول ابن سحمان :

عسى الله بالإقبال يثني زمامها عليّ بخير عاجلٍ غير آجل
وأجازي أخا الإحسان بالفضل والندی وكل مسيء بالعقاب المزايل
حياة بلا وجَدٍ من المال شقوة ومكث بلا عز مقام الأراذل
ومنصب ذي محلٍ ولا سؤددُ به مقام شمات بين واش وخاذل

قال أبو عبدالرحمن : بيت سليم الأخير أتى به ابن سحمان في بيتين فكثر
حشوه ، وكلمة المزايل قلقة وتعطي عكس المعنى .. وقال سليم :

من الدائم المعبود مايقطع الرجا كريم جزيل المد ومجيب من سال
نسائه يدير الياس في لمحة البصر بالافراح من تبديل حال إلى حال
وصلى الاله على المختار سيدنا ما شد للبيت راحل ونزأل

وقال ابن سحمان كلاماً مغايراً ، ولم يتعرض للبيت الأول من الأبيات الثلاثة
السابقة :

وصلٌ إلهي كلما ماض بارق وما انهلَّت السحب الغوادي بوابل
على السيد المعصوم والآل كلهم وأصحابه أهل العلى والفضائل

قال أبو عبدالرحمن : تتردد كلمة (ماض) في شعر الشيخ ابن سحمان ، ولا
أصل لها في لغة العرب، وإنما في اللغة : آض ، وومض .

قال أبو عبد الرحمن : إذا أخذت التعليقة عدة صفحات، فإن أهل علامات
الترقيم يضعون شرطتين هكذا = آخر سطر في الصفحة وأول سطر في
الصفحة التي بعدها .. ولا أرى ذلك؛ لأن في الخط الفاصل بين المتن والتعليقة
غنية .. ومع تعدد تجارب الطبع ربما وضعت الشرطتان في غير محلها .

(٥) تاريخ الكويت السياسي ٣٤/٢ ، وتاريخ الكويت لعبدالعزیز الرشید ١٦٢ / ٣ .
وانظر خطاباً مشابهاً كتبه الإمام عبدالرحمن للنقيب في ٥ / ٢ / ١٣٢٠هـ
عندما أراد الخروج إلى نجد ، وذلك في تاريخ الكويت السياسي لحسين خزعل
١٧٨/٢ - ١٧٩ .. وقال الأستاذ محمد جلال كشك عن هذه الرسالة في كتابه
السعوديون والحل الإسلامي ص ٣٠٦ : «الرسالة غريبة التاريخ غريبة
المضمون ؛ فتاريخها هو ربيع الآخر ١٣١٨هـ ، والخروج كان في ذي
القعدة ؛ فإن صحت فهي تكشف تحركات ابن سعود وليست مجرد
استئذان ، كما يستغرب أن تكون الحملة موجهة ضد ابن رشيد ويطلب الإمام
أن يؤمّر بعدم التعرض للقادمين لغزوه .. رسالة مشبوهة ، وقد نسي نشرها
أن يذكر مصدره» .

قال أبو عبدالرحمن : الخطأ من الأستاذ عبدالعزیز الرشيد ؛ إذ ربط ذلك
بالصريف ، وقد فصلَ الحدث حسين خلف الشيخ خزعل في كتابه تاريخ
الكويت السياسي ٢٢/٢ : فذكرموقعة الرخيمة في ٢٧/٦/١٣١٨هـ ، ثم ذكر
عزم الإمام عبدالرحمن على الذهاب إلى نجد لاسترجاع الرياض .. قال
٢٢/٢-٢٤ : «كان الإمام عبدالرحمن الفيصل السعود قبل موقعة الرخيمة قد
شاور الشيخ مبارك الصباح بعزمه على الذهاب إلى نجد ؛ لاسترجاع الرياض
من الأمير عبدالعزیز الرشيد ؛ فأشار عليه الشيخ مبارك بالتريث بالأمر ،
ومراجعة والي البصرة : لاستحصال كتاب منه إلى ابن الرشيد بعدم التعرض له
في سفره إلى الرياض ؛ فكتب الإمام عبدالرحمن إلى السيد رجب النقيب يرجوه
فيه مراجعة والي البصرة بعزمه على السفر إلى الرياض ، وإشعار ابن الرشيد
بعدم التعرض له» .. وبعد أن ذكر الرسالة قال : «فتباطأ والي البصرة في

الإجابة على مطالب الإمام عبدالرحمن الفيصل السعود ، ولما اشتبكت جيوش الشيخ مبارك مع قبيلة شمر في معركة الرخيمة : رجا الشيخ مبارك من الإمام عبدالرحمن الفيصل العدول عن الذهاب إلى الرياض في الوقت الحاضر ؛ لأنه عازم قريباً على المسير للقضاء على نفوذ ابن الرشيد في كافة نواحي نجد .

قال أبو عبدالرحمن : إذن الخروج لم يتم بعد ، ولا غرابة في طلب الإمام عبدالرحمن من النقيب كف ابن رشيد ؛ لأنه لا يريد منطقة حائل ؛ بل يريد عاصمة أجداده .. وقد نشرتُ كلمة في جريدة الشرق الأوسط ناقشت فيها تشكيك الأستاذ الفاضل عبدالرحمن الرويشد ؛ فكان مما قلته : «إنما ذكر تحركه هو ، ولم يذكر تحرك مبارك .. وتركيا يومها لم تجتهد لابن رشيد اجتهداها في وقعة البكيرية، وتركيا ليست حليفة لابن رشيد ، وإنما تراه عاملاً لها كغيره من بعض حكام العرب والمسلمين باسم الخلافة الإسلامية وإن لم تحكم كل البلاد حكماً مباشراً ، وليس ابن رشيد بأقرب إلى الدولة من مبارك ؛ بل يسوؤها أن يغير ابن رشيد على الكويت أو عشائر العراق .. وقد قام مع مبارك عشائر المنتفق في العراق وهم في رعية الدولة بحكم مباشر لا ، بل استاءت تركيا من هزيمة مبارك في الصريف ، وقد حاول أن يخفف الوطأة ويجحد بعض الحقائق ؛ فلما تبين لها الواقع من مصادر بريطانية وتركية وروسية : خيَّرتة في ثلاث نقاط : أن يكون عضواً بمجلس الشورى بالآستانة، أو أن يقيم في أية بلدة عثمانية وتصرف عليه ، أو أن تحتل الكويت بالقوة .. فلما رأى مبارك هذه العزيمة فاجأ الدولة باتفاقية بينه وبين بريطانيا منذ سنوات ؛ لهذا تركته .

ولا غرابة في طلب الإمام عبدالرحمن من النقيب أن تكف الدولة ابن رشيد ؛

لأن الدولة اسماً هي صاحبة الخلافة : ولهذا تستبجح الغزو في أي وقت تسنح لها فرصة القدرة .

وأمثال هذه الوثيقة من الوثائق الصحيحة كثير منذ عهد الإمام فيصل ، وذلك أمر طبيعي ؛ لأن الأمة العربية والإسلامية موزعة بين نفوذ عثماني تاريخي وبين زحف صليبي استجد على يد بريطانيا .. بل أمثال هذه الوثيقة من ناحية الصيغة ووثائق نجدية كثيرة روعي فيها الديباجة المعتادة للباشوات وقادة الدولة .

(٦) قال أبو عبد الرحمن : الشعر العامي مذياع الأمة يومها وصحافتها ومبضعها .. يخفض الله به قوماً ، ويرفع به آخرين .. وكما يتحدث عبدالعزيز مع وافد صحفي بلغته ، وكما يتحدث مع محنك أو مستشار سياسي بلغته : يتخاطب أيضاً مع رعيته بلغتها (أدب الشعر العامي) ، ومن رعيته جنده وخاصته .

قال أبو عبد الرحمن : وللشيخ منديل - في كتابه من آدابنا الشعبية / الطبعة الثانية ٥٩/١ - ٦٠ - حديث عن نافع بن فضلية وشعره يُكَمِّل الدراسة عن علاقة عبدالعزيز بالشعر ، وفيه شيء من شعر عبدالعزيز لم يطبع قبل ذلك .

وقد درست (في كتابي ديوان الشعر العامي ، وفي شرحي لمجموع محبوب) شعرَ الحداء ، وبيَّنتُ سهولته ؛ لأنه على وزن حمار الشعر الرجز ، وبينت أنه يشارك في جيده من لم يشتهر بالشعر كابن هندي .. والحداء كله ذو مناسبات حربية يتعلل به عبدالعزيز رحمه الله .. وجنده قليل العدد والعدة ما بين راجل ورديف وراكب ، وكثير من الحاضرة عدته نصلة سيف أو فتيل ، وجراب تميرات في غير يسر ، وكثيراً ما قابلهم فرسان مدرَّبون أهل جولة ورماية ؛ فمن تأمل هذا التاريخ المستضعف المنتصر عِلْمَ اليقين أن هناك عناية ربانية دالة على صدق نية القائد ورعيته ؛ ولهذا فابن المملكة لا يتحدث عن عبدالعزيز

حديث الصحافي المفتخر بكفاءة وطنية نادرة ، ولو فعل لحقَّ له ذلك .. وإنما يتحدث حديث من جعل الله حياته الراغبة الآمنة نتيجة وثمره لكفاح عبدالعزيز ؛ إذ جعله الله لأُمَّتِنَا سبب وحدة وأمن ورخاء وعلم ووحي وأخذ بالأسباب الحضارية .. والمتحدث كهذا الحديث يُسقط عبارات الإطراء وألقاب السلطان ويعوِّض بالترحم والترضي والدعاء .. وللملك عبدالعزيز رحمه الله مساهمات في الشعر العامي ، وله أحاديث ، وإنما طُبِعَ له نتف فرح بها الدارسون كأبياته في هيت، وكمعابثته لشلهوب والقصيبي وابن جبر .. ينظر عن بعض شعره وحدائه كتاب عبدالعزيز في التاريخ للشيخ حمد الحقيّل ص ٨٣ - ٨٤ ، ومن شيم الملك عبدالعزيز للمارك ١٠١/٣ - ١١٨ .. وهناك أحاديث عديدة للملك عبدالعزيز رويتها عن الأمير محمد الأحمد السديري رحمه الله ، ونقلتها من كراساتِه ، وكل ما لم أُحِلْ إليه ههنا فهو من كراساتِه .. ومن أحاديث الملك عبدالعزيز التي لم ترد في كراسات السديري قوله سنة ١٣٣٠هـ وقد هم بمهاجمة الأحساء :

يا هجرياً زين النبات لا تحسبنا هاريين

ان طول الله بالحياة لا بدنا لك راجعين

(انظر حداء الخيل ص ١١٩ عن كتاب من شيم العرب ١٠٣/٣ .. إلا أنه قال : زين النبات .. جينا إليك راجعين .. وكل ذلك تطبيع وخلل في الوزن .. ومما كان يتمثل به عبدالعزيز دائماً قول الحادي :

ما يسلم إلا اللي يعيل والمنسح كل وطاه

والأحاديث شعار الفرسان والزعماء والقادة .. تتقاد لهم كلمات الأحذية ووزنها بعفوية كما تتقاد للخطيب أسجاعه ومزدوجاته .. ومن اللازم استحضار تلك

الأحاديث : لأنها جزء من تاريخه : فمن ذلك أحديثه بُعيد معركة جراب بعد انتصاره على الرغم من خيانة حصلت من بعض العريان في مؤخرة جيشه :

عيوا يطيعون النصايح وانا عن البوق آتدري

ياللي تريدون المدايح ما خير الاعقب شراً

وردت بكراسات السديري رحمه الله ، وأوردها الأستاذ أحمد فهد العريفي بكتابه حذاء الخيل ص ٢١ رواية عن المارك : عن السديري .. قال أبو عبد الرحمن : البوق الخيانة ، وهي فصيحة .. ومن ذلك قوله يودّع الرياض بعيد معركة الصريف :

يا دارنا لا ترهبين لا بد ما نرجع عليك

أعطيك أنا العلم اليقين لو ننتحي لازم نجيك

وفي ذلك الظروف أيضاً قال :

من نجد ما جانا خبر ينقل لنا علم الحريب

لا بد من يوم حمر والشمس من عجه يغيب

وفي أحداث سنة ١٣٢٥هـ قال رحمه الله أحدية منها :

يا غرسة حدر النفود والعمر يرخص دونها

ثم قال يخاطب آخرين :

قولوا لسكان الحيود بالهرج لا يطرونها

وقال مشجعاً جيشه :

عيب على اللي يركب المشوال ولا يروي الرمح الطويل

ما كل من ركب الفرس خيال إن نهضن رهم الشليل

البرمجة

السنة الثامنة

جمادى الآخرة - رمضان ١٤٢٦هـ

العددان : الثلاثون والحادي والثلاثون

يوليو - أكتوبر ٢٠٠٥م

قال أبو عبدالرحمن : الشليل طراد الخيل ، والرهام صوت للفرس أقل من الصهيل .. وله في أحداث سنة ١٣٣٠هـ أحذية لامية بوصل الهاء ، والقافية الأولى على الفاء .. وقال متحفزاً قبيل احتلال الرياض :

يا نجد ما جانا منك رد علوم واليوم أنا شفق على المسناد
قالوا مريح قلت أنا المهموم حتى نقرر للنضا ميعاد
نركب على اللي نيّهن مردوم وان روحن مثل القطا الشراد
وقال يتوجد على ابني عمه (وهما عضده وجبهتا اللقاء : الأمير سلمان بن محمد بن سعود بن فيصل ابن تركي آل سعود ، والأمير سعود الكبير بن عبدالعزيز بن سعود بن فيصل بن تركي آل سعود رحم الله جميعهم) :
بالعون ما ودي حدر سلمان وسعود حماي البليد
وقال في أحداث سنة ١٣٢١هـ أحذية مطلعها :

الديرة اللي لج فيها البوم عقب القرابة قلت فيها حداة
وله أحذية في مناسبة خاطب فيها أخويه محمداً وسعداً مطلعها :
يا حيف يا خَطَوَ الولد وش عاد لو يلبس زبون
ويقول :

نادوا محمد مع سعد قولوا يجون ويركبون
وله أحذية يجيز فيها أخاه الأمير سعداً مطلعها :
ردوا له العلم الوكيد كسب الثنا عاداتنا

وقال في إحدى مناسبات الحرب الطويلة :

مهبول يا قايل قضت توّه عمر دخانها
يطرد بها ورع صغير وخيل بظهور حصانها

أوردها السديري في كراساته ، وأوردها العريفي في حذاء الخيل ص ٢٠ : عن
المارك : عن السديري ، وذكر أنها بعد فتح الرياض ، وعنده : يلحق بها .. خيل
بقطي .. وقال في أحداث سنة ١٢٢٥هـ أيضاً أحذية منها :

أنا معي طب الغشيش والله لنا عون وسند

قال أبو عبد الرحمن : ومن حاشية الملك عبدالعزيز وخاصته فهاد الحلاج ..
حادث به جواده في منطقة السر في إحدى المعارك ، ولم يسيطر على جواده إلا
بعد عناء : لكبر سنه (مع أنه فارس مقدم) : فمازحه الملك عبدالعزيز بأحذية
منها :

خلى نياقه عقب شوف العين ما به ردى إلا علة الشيبان

ولقد قارضه فهاد بقوله :

الفوج رديته بتال الخيل يوم ادبحن الخيل بالفرسان

لعيون من ريحه زياد وهيل شامت عن الجاهل تبا الشبان

وفي أحد مساري الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه ليفجّر نصراً جديداً قال :

حنا كما نمر إلى منه عدا والنمر ما تومن دغايله

نمشي لصاحبنا قدا واللي يحايلنا نحاييله

قال أبو عبد الرحمن : هذه تغنى عرضةً وحذاء .. وقبيل الملحمة في روضة مهنا

قال عبدالعزيز أحدية منها :

عدوكم قدامكم لا بد من علم يصير

أما لهم وإلا لكم عاداتنا نروي الشطير

وبعد العودة أنشد لأهل الهجن قصيدة منها :

أيا ركبنا على الضمر الحرب نحمي مشاهيبه

وله أحدية مطلعها :

قولوا لابن متعب نبیه فوق النضا والمكرمات

وهي كاملة في كراسات السديري، وحذاء الخيل ص ١٩ .. وله أيضا أحدية

مطلعها :

يانايم تحت العريشة ياناسف فوقه ذرا

وردت في الكراسات ، وحذاء الخيل ص ٢١ .. وله ثالثة مطلعها :

ياسرية ما تستريح دون الحدود مصالیه

وهي في أحداث سنة ١٣٢٥ هـ ، وقال في هذه الأحداث أيضاً أحدية منها :

يومك تتقى بالعريش والشرف ما فكيتهما

وردت في الكراسات ، وفي حذاء الخيل ص ٢٢ .. وقال :

كل تتقى ما بغى الناموس قرب الحريب وقلوا الخلان

وقال :

يا سابقى حرم عليك شبو الحصان اللي عريب

بالبرأنا بارهي عليك ما دام أبو متعب حريب

حذاء الخيل ص ٢٠ .. وقال :

احب العافية واشريها واسوق عمري والدبش

قال أبو عبد الرحمن : الشطر الأول منكسر ، والخلل من الرواية .. ويستقيم
هكذا : وابا اشريه .

وليا عصوا عذالهم رديت لرقاب النمش

حذاء الخيل ص ٢٣ .. وقال :

حنا إلى ركبت عراب الخيل وتقاحص الفرسان قدام وورا

شهب عليها من ذياب الليل فرسان خيل ما تباع وتُشتري

حذاء الخيل ص ٤٢ .

(٧) كل مسلم متبصر - دون حاجة إلى تعمق في الفكر - يعلم أن دعوى حقوق الإنسان هي الكيد الصليبي الصهيوني الذي تواجه به المملكة خاصة ؛ لأن المملكة وحدها دولة ومجتمعاً بقيت على ما هي عليه منذ كانت لها دولة منذ ثلاثة قرون لا ينفصل الدين عن الدولة والحياة .. وحقوق الإنسان أعلنتها الصهيونية بعد ثورة فرنسا ، وتقبلتها الصليبية العالمية عن غباء ؛ لأن حقوق الإنسان كما تلقفوها بإرهاب الدعاية لا تتحقق إلا بإحلال القانون الوضعي محل الشرائع السماوية؛ لأن حق الإنسان في التضليل الإعلامي الصهيوني هو تحرير الإنسان من كل حق لربه عليه ، وبناء القانون على ما سمي بالحق الطبيعي الذي تحلل عناصر المسؤولية فيه إلى شهوات البشر ، وكفالة حرية الفرد بما لا يؤذي حرية غيره ، ولا يُعتبر رضا الله في العقود والعهود والمعاملات والممارسات؛ لأنهم أسقطوا حقه الشرعي .. فكل دولة أرغمت

مجتمعها على القانون الوضعي تخف نبرة مطالبتها بحقوق الإنسان إلا في نطاق ضيق بمناسبة بعض الممارسات السياسية .

وبإيجاز ، إن حقوق الإنسان إذا وُجِّهت بها المملكة (ذات الدستور الإسلامي من المنابر الصهيونية والصليبية والعلمانية) لا تعني سوى مطالبة المجتمع السعودي بالتنازل عن دينه ، وإلغاء مراعاة رضى أو غضب ربه في المعاملات والممارسات ، وذلك بإسقاط الحدود والعقوبات الشرعية ، ومنح الحرية للشهوات والشبهات .. إن حقوق الإنسان هي المعادلة المعنوية للكفر بالله في قاموس الذين يودون لو تكفر ، ومنها أن من حقوق الإنسان في قاموسهم حرية الأديان والمجتمعات والأكثرية؛ فبالأحرى أن تقتضي دعاوى حقوق الإنسان ترك المجتمع السعودي يتمتع بحقه من الحرية ؛ لأن السعودية مجتمع مسلم ليس بأكثرية ، بل بجملته .. رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .. ومنها أن الإنسان جزءٌ من الوجود ليس له حق مطلق ؛ بل الحق مشترك بينه وبين الموجودات.. وعليه حقوق لخالق الوجود الذي منحه الوجود، وعليه حقوق لنفسه ، وعليه حقوق لغيره من بني جنسه ولغيرهم من المخلوقات؛ فكل دعاية تُسقط هذه الحقوق ولا توازن بينها تظلم الإنسان ، وتشرع له الظلم لغيره .. ومنتهى الظلم إيذاء عدل المملكة ورحمتها - التي هي رحمة الشرع المطهر وعدله - في إقامة حدود الله إنصافاً للمقتول ظلماً ، والمأخوذ منه ماله ظلماً .. وإيذاء المجتمع الذي لا يرغب غير دين ربه بمنتهى حريته ، وظلم له بإسقاط حدود وعقوبات تحفظ أمنه ونعمته .. ومنذ أكثر من ثلاثة عقود والمملكة تلاقي الضغوط الأجنبية ، والحملات الإعلامية باسم حقوق الإنسان لإسقاط شرع رب الإنسان ، وباسم حقوق الحيوان لإلغاء

شعيرة النسك في منى . ولا يزيد لها ذلك - دولة وشعباً - إلا صلابة .. وحق على كل مسلم أن يشكر لدولته ثباتها أمام الضغوط، وأن يكون عوناً لها بما يقدر عليه ولو بحسن التعبير .

(٨) العقبة مدينة وميناء وحيد للأردن على البحر الأحمر ذات تاريخ قديم يعود إلى القرن العاشر ق.ب حيث كانت تتبع دولة الأنباط ، وكانت لها أهمية تجارية بسبب موقعها المميز : فاسترعت اهتمام الأدوميين والفينيقيين ؛ فاتخذوها قاعدة بحرية للتجارة مع أفريقيا ، إضافة إلى أنها كانت محطة مهمة وملتقى للقوافل التجارية بين مصر وفلسطين والشام والعراق .. وحين ضم إمبراطور روما مملكة الأنباط إلى إمبراطوريته عام ١٠٦م اهتم اهتماماً خاصاً بالعقبة ، فوضع فيها حامية رومانية لحماية موقعها الذي أصبح نهاية الطريق الطويل الذي شقه الرومان من مدينة بصرى الشام (كانت عاصمة الشام يومئذ) إلى البحر الأحمر .. كانت العقبة معبراً للجيش الإسلامي المتوجهة لفتح الشام من الجزيرة العربية (٦٦٤م) .. وتؤكد بعض المصادر التاريخية أن كلاً من القائدين يزيد بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة : عسكرا بجيشهما عند العقبة وهما في طريقهما للالتقاء بجيش أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما عند موقع اليرموك ، كما أن خالد بن الوليد رضي الله عنه اتخذ من امتداد الصحراء شمال العقبة عمقاً له عندما خاض معركة اليرموك ضد الروم .. وظلت العقبة تقوم بدورها المهم كنقطة التقاء للقوافل التجارية ، ومعبر للحجيج طوال عصر ازدهار الإسلام إبان حكم الخلفاء الراشدين والأمويين .. حتى جاءت البوالة العباسية فقلّ شأن العقبة آنذاك ، إذ حلت محلها في الأهمية مدينة البصرة (العراق) حينما أصبحت الخلافة الإسلامية

في بغداد بدلاً من دمشق .. وخلال الحقبة التي تواجد فيها الصليبيون في فلسطين والشام عادت إلى العقبة أهميتها تاريخياً وجغرافياً ، بل أصبحت مركزاً للصراع الحاد بين المسلمين والصليبيين حينذاك ؛ ففي ١١١٦ استولى عليها الملك الصليبي بلدوين الأول ، وحصّن ميناءها ببناء قلعة ثابتة في جزيرة فرعون المجاورة له ، وتمكن صلاح الدين الأيوبي من استرداد المدينة في عام ١١٧٠ م ، إلا أن أمير الكرك احتل المدينة في العام التالي ، ثم عاد الملك العادل أبو بكر بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين واسترجع المدينة من الصليبيين .. منذ ذلك الحين بقيت العقبة مزدهرة حتى ضمها العثمانيون (١٥١٦) ، فدخلت ضمن أملاك الدولة العثمانية .. ولكن العثمانيين لم يروا لها أهمية إستراتيجية أو اقتصادية فأهملوها ؛ حتى أصبحت مجرد قرية لصيد الأسماك .. وبخاصة بعدما أخذ الحجاج المتوجهون من مصر إلى الحجاز يسافرون بحراً عن طريق قناة السويس ابتداء من ١٨٦٩ م .. أما الحجاج المسافرون من بلاد الشام فقد أخذوا يسافرون بواسطة السكة الحديد ابتداء من ١٩٠٨ م .. الموسوعة التاريخية الجغرافية ١٨٥/١ .

(٩) نشأت أحزاب كان همُّها توحيد أجزاء سوريا ، وتبلور هذا الهم في الحزب السوري القومي الاجتماعي - وهو علماني صليبي - ، فصار «الحزب السوري القومي الاجتماعي» رائد هذا الهم ، وهو حزب سياسي إقليمي الانتشار مجال نشاطه سوريا الطبيعية ، ولبنان أهم مواقعه :

أسس أنطون سعادة (من بلدة الشوير قضاء المتن الشمالي في لبنان) الحزب السوري القومي الاجتماعي في ١٦ تشرين الثاني ١٩٣٢ م . وكانت الخلية الأولى لهذا الحزب تضم طلاباً من الجامعة الأميركية في بيروت، حيث كان سعادة يدرّس

اللغة الألمانية . وقد نصّت مبادئ الحزب على إقامة نظام جديد في سوريا الطبيعية التي حددها سعادة في المبدأ الأساسي الخامس «الوطن السوري هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الأمة السورية . وهي ذات حدود جغرافية تميزها عن سواها .. تمتد من جبال طوروس في الشمال الغربي وجبال البختياري في الشمال الشرقي إلى قناة السويس والبحر الأحمر في الجنوب شاملة شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة . ومن البحر السوري في الغرب شاملة جزيرة قبرص إلى قوس الصحراء العربية والخليج العربي في الشرق» .

وقد ركزت مبادئ هذا الحزب على فصل الدين عن الدولة (العلمنة) ، وإقامة نظام اقتصادي جديد .. وحدّد سعادة غاية حزبه بقوله : «غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي بعث نهضة سورية قومية اجتماعية تكفل تحقيق مبادئه ، وتعيد إلى الأمة السورية حيويتها وقوتها ، وتنظيم حركة تؤدي إلى استقلال الأمة السورية استقلالاً تاماً وتثبيت سيادتها ، وتأمين مصالحها ، ورفع مستوى حياتها ، والسعي لإنشاء جبهة عربية» .

وبقي الحزب سرياً إلى أن اكتشف سلطات الانتداب الفرنسي أمره في ١٦ تشرين الثاني ١٩٣٥م حيث اعتقل مؤسس الحزب وعدد من قياداته ، وحكم عليه بالسجن عدة أشهر .. وبعد خروج سعادة من السجن نشر كتابه الأساسي «نشوء الأمم» الذي أنجزه في السجن ، وتضمن المنطلقات النظرية الأساسية في كيفية نشوء الأمم وتحديد معنى الأمة ، وقد انتشر الحزب في الثلاثينات في لبنان وسوريا ، ولاحقت سلطات الانتداب أعضائه ، واعتقل مؤسسه مرتين، وفي المرة الثالثة استطاع الهرب إلى أمريكا الجنوبية ، وفي غيابه استمر الحزب في نشاطه .

بعد استقلال لبنان (١٩٤٣م) انتهجت قيادة الحزب (أسد الأشقر ، نعمه ثابت ، ومأمون إياس) خطأً لبنانياً انعزالياً في غياب أنطون سعادة الذي اضطر للبقاء في الأرجنتين ؛ لأن السلطات الفرنسية كانت تلاحقه بتهمة العمل ضد سلطات الانتداب بتحريض من قوى المحور .

عندما عاد أنطون سعادة إلى بيروت في ٢ آذار ١٩٤٧م ألقى خطاباً في حشد ضخم جاء لاستقباله حمل فيه على الكيان اللبناني وعلى فكرة انعزال لبنان .. وعلى الفور أصدرت السلطات اللبنانية مذكرة توقيف بحقه ، وقد استطاع سعادة أن يتوارى عن الأنظار حوالي تسعة أشهر قام خلالها بتطهير قيادة الحزب من العناصر التي نادت بـ «الواقع اللبناني» ، وعزل القيادات كافة التي اعتبرها منحرفة ، وبعد أن تم ترتيب الأوضاع بين الحزب والسلطة اللبنانية بالغاء مذكرة التوقيف عاد سعادة ليكشف نشاطه العلني ، وليقوم بجولات على فروع الحزب كافة في لبنان وسوريا .

وخلال سنتي ١٩٤٨ و ١٩٤٩م حدثت مجابهة سياسية عنيفة بين الحزب السوري القومي الاجتماعي وحزب الكتائب اللبنانية المدعوم من السلطة اللبنانية ، وانتهت المجابهة بحادث الجميزة في ١١ حزيران ١٩٤٩م حيث هاجمت ميليشيا الكتائب مطابع جريدة «الجيل الجديد» التي كان يصدرها أنطون سعادة ، وفي اليوم التالي استنفرت قوات الجيش والشرطة ، وبدأت بملاحقة أنطون سعادة وأعضاء الحزب ، ولجأ سعادة إلى دمشق حيث ما لبث أن أعلن ثورته على الحكومة اللبنانية ، وهاجمت ميليشيا الحزب مخافر الدرك في عدة مناطق من لبنان ، واستمرت المناوشات بين أعضاء الحزب والسلطات اللبنانية إلى أن قام حسني الزعيم رئيس سوريا يومئذ بتسليم

أنطون سعادة إلى السلطات اللبنانية التي عمدت إلى إعدامه على الفور ، وذلك في ٨ تموز ١٩٤٩ م .. بعد إعدام سعادة دخل الحزب مرحلة جديدة: فسار خلال الخمسينات في خط سياسي مضاد لحركة القومية العربية الصاعدة الممثلة بحزب البعث العربي الاشتراكي وبالحركة الناصرية ، وقد عمد أحد أعضاء الحزب إلى قتل عدنان المالكي الضابط البعثي (حول هذه الحادثة البالغة الأهمية على مسار الحزب في سوريا ولبنان راجع «عدنان المالكي» في باب «زعماء ورجال دولة وسياسة» في دمشق في ٢١ نيسان ١٩٥٥ م) ، وعلى الفور بدأت سلسلة ملاحقات بحق أعضاء الحزب وحُظر نشاطه في سوريا : فلجأت قيادته إلى بيروت ، وحدث بعد ذلك انشقاق ، فقاد ، جورج عبدالمسيح مجموعة في حين قاد أسد الأشقر الذي أعيد إلى صفوف الحزب مجموعة أخرى .

استمر أسد الأشقر في اتجاهه السياسي المعروف بـ «اللبناني» أو «الواقع اللبناني» ، وقاد الحزب في مواجهة الناصرية وانتفاضة ١٩٥٨م اللبنانية ، وقد أثرت هذه المواقف على نمو الحزب وانتشاره ؛ نتيجة ابتعاده عن المنطلقات النظرية لمؤسسه .

وجرت محاولات ترميم لوضع الحزب في أواخر الخمسينات لكن هذه المحاولات توقفت بعد أن نفّذ الحزب انقلاباً فاشلاً في لبنان في ١٩٦١م واعتقل معظم قياداته لفترة امتدت حتى ١٩٦٨ م .

والمرحلة الجديدة في تاريخ الحزب السوري القومي الاجتماعي بدأت عملياً بعد «مؤتمر ملكارت» (آذار ١٩٦٩م) الذي عقده بعد الإفراج عن قاداته في لبنان ، وفي هذا المؤتمر برز للمرة الأولى ومنذ إعدام المؤسس خط سياسي

جديد يدين بشكل حازم «الممارسات اليمينية والتعاون مع الرجعية» ، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أحداث ١٩٥٨م في لبنان ، والتعاون بين قيادات الحزب المتلاحقة في الخمسينات وبين «القوى الرجعية الاستعمارية» .. وشدد قادة الخط السياسي الجديد على يسارية الحزب ، وعلى أن منطلقاته اشتراكية ، كما اعتبر أن المنطلقات النظرية للحزب ليست مضادة للعروبة .. وقد لعبت عدة عوامل في نشوء هذا التيار الجديد داخل صفوف الحزب .. أهمها نمو المقاومة الفلسطينية ، وتطور حركة الكفاح المسلح ، وما أفرزه من جو ثوري ؛ وهزيمة حزيران (حرب ١٩٦٧م) وأثرها على القوى والتنظيمات الشعبية كافة. وضمن هذه الظروف والعوامل أعلن قادة الحزب التزامهم بالثورة الفلسطينية، ووقوفهم إلى جانب القوى اليسارية (الحركة الوطنية اللبنانية) .. ومع هذه الانطلاقة الجديدة حدثت مواجهة بين التيار اليميني الذي يريد إبقاء الحزب في مسيرته السابقة (أسد الأشقر - عصام المحايري) وبين التيار اليساري (عبدالله سعادة - إنعام رعد) .. واستمرت المواجهة إلى أن تمّ خروج المجموعة اليمينية بقيادة إلياس جرجي قنيزح التي أعلنت عن رفضها العمل في إطار الحركة الوطنية اللبنانية .. في حين أن التيار اليساري ظل ملتزماً بمقررات مؤتمر ملكارت ؛ فوقف جنباً إلى جنب مع حركة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية» .. الموسوعة التاريخية الجغرافية ١٦٧/١٠ - ١٦٨ لمسعود الخوند عن موسوعة السياسة ٣٠٨/٢ - ٣١٠ .

(١٠) الديمقراطية بترجمتها التامة تعني حكم الشعب للشعب ، وجاءت هذه الحاكمية من أربع زوايا : أولاها : تدليل حرية الفرد في ممارسته لشهواته الجسمية ، وشبهاته الفكرية ؛ فيمارس ، ويقول ، ويعتقد ما يختار .

وثانيتهما : تطعيم دلالة بشيئ من المسؤولية من إيجابيات الفكر ، وهو التوفيق بين حريته وحرية الآخرين .. والنتيجة منحه الحرية بالقدر الذي لا يُؤذي حرية غيره .

وثالثتها : أن يبدي شيئاً من التنازل لجماعةٍ ونظام تحكمانه ، ويلتزم هو الطاعة ، ويفوّض التعبير عن تنازله إلى ناخبين .. وهذه مأخوذة من نظرية العقد الاجتماعي .

ورابعتها : اشتراط أن يكون القانون الحاكم ، والسلطة المنفذة وفقاً لدواعي الحق الطبيعي (شهوات الفرد وشبهاته) : ليكون القانون حقاً طبيعياً مكتوباً منظماً مطبقاً .

ويُنظر إلى الديمقراطية عدلاً وجوراً من زاويتين : عدالة أو جور التأصيل، وعدالة أو جور التنفيذ .

وقيل عن الأمر الأخير : الظلم بالسوية عدل في الرعية .

ومن هذا المنظار يُنظر للديمقراطية الغربية في بلاد الغرب ؛ فهي تأصيلاً جائرة ؛ لأنها عصيان لله، وإسقاط لحقه في التشريع ، وظلم للبشر ؛ إذ يجعل لمحدوديتهم وسهولهم وجهلهم وعجزهم التصرف في ملك ربهم بما لم يأذن به الله .. وهي تطبيقاً عادلة في الأغلب ؛ لأن الظلم فيها عدل بالسوية !! .

والديمقراطية الغربية في بلاد الشرق في منتهى الظلم تأصيلاً وتطبيقاً ؛ لأنها ما بدأت في الشرق على مدار التاريخ برغبة جماهيرية ؛ بل كانت اغتصاباً لمشاعر الجماهير المحرومة من دينها ، المرغمة على مالا تريد ؛ ولأن بدايتها بقيادات عسكرية تغتصب الحكم، وتفرض النظام .. ومن اغتصب

الحكم لم يتركه لمقتضى الديمقراطية ، بل يكون حاكماً بأمره مدى عمره ؛
ولأن سن القانون خاضع لرغائب القيادة ؛ فكل طموح للظلم والاستئثار يسبقه
سنُّ قانون جديد .

والحكومة التي يكون دستورها شرعياً ، ومذهبها فقهياً على أحد مذاهب
علماء الأمة تكون رعيتهما وقيادتهما محكومة بالعقيدة والفقه ، وتكون السلطة
منفذة على الرغم منها ؛ لأنها لا تؤسس الشرع من عندها .. وإذا حصل ما
ينتقد في الممارسة فسببه خيانة من المواطن ، أو المسؤول من موظف ومدير ،
أو جهل .. ويكون الإصلاح بالرد إلى الدستور العادل لا إلى تأسيس دستور
جديد .. وقد ذهب العلماء إلى أن أولى الأمر الذين أمر الله بطاعتهم هم
الأمراء والعلماء معاً .. فالعلماء يستظهرون الحكم الشرعي ، ويحكمون به ،
والأمراء ينفذونه .. ومنذ أن نشأت الدولة السعودية كان العلم والإمارة
حليفين ، وكان دور الإمارة الحماية والتنفيذ .. وحق الإنسان في الدولة المسلمة
لا تؤسسه الدولة أو المجتمع ، ولا تتنازل عنه ، ولا تضيف إليه ، وإنما تتلقاه
من الوحي .. وعندما أفلحت المكائد الصهيونية والصليبية في فصل الدين عن
الدولة والحياة في شعوبنا العربية والإسلامية من قبل قيادات ودهماء
من بني جلدتنا رُبِّيت على غير ملتنا ، واستكانت الشعوب فهادنت ذلك
الكيد ، ولم تدركها الغيرة لحق الله في التشريع : منيت تلك الأمم بالفقر
والقلق ، وكانت الحياة كداً ، وأصبح الفرد أسير الكد للقمّة العيش ، وأسير
الربا والتقسيط في كل ما يحتاجه من ضرورات الحياة ، وعم الخوف مع
انعدام وازع القانون الوضعي في سر الفرد وغياب السلطة .. ونعمت الأمة

التي تطبق دين ربها بالرغد والأمن .. إلا أن ذا الخير مكروه من الأشرار .
والمحتضن لدين ربه عقيدة وشريعة هدف التآمر والإرجاف من أعداء الملة
والنحلة .. والأمن في سِرِّه ، الموسَّعُ له في رزقه محسود ولو من الأشقاء
الذين ظلمهم القانون الجائر والقيادة المتسلطة .. ويزداد الحسد بمقدار ما
يضعف الوازع الديني .

وهذه المملكة مركز ديني لبث الدعوة والنور والهداية على نقاء سلفية محضة
لا مرجعية لها غير القرآن والسنة والسيرة العملية في القرون الممدوحة
لأجيال الصحابة ، والتابعين ، وتابعي التابعين ، وتابعي تابعيهم رضي الله عنهم
ورحمهم قبل تزيّد ومخالفات الفرق الضالة .

وهي مركز مالي : لإسعاد أمتنا على النطاق المحلي ، ولإسعاد أمتنا على
النطاق العربي والإسلامي ، ولبسمة الجراح البشرية على النطاق الإنساني .
ودولة المركزين (الديني والمالي) تسير قافلتهما عطاء وبناء ودينونة لتعليمات
الوحي ، ووسائل الإعلام تقذف هذا البلد بكل إرجاف واستفزاز .. ومصدر
كل ذلك الإيذاء الصليبية والصهيونية العالميتان ، وأعداء النحلة من الطائفية
والعرقية والمذهبية في بلاد الأشقاء .

(١١) قال الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٩٧٦-٥٧٧-٥٧٦/٢ :
«تدور رحى الإسلام بعد خمس وثلاثين ، أو ست وثلاثين ، أو سبع وثلاثين :
فإن يهلكوا فسبيل من هلك، وإن يقيم لهم دينهم يقيم لهم سبعين عاماً .. قلت :
وفي رواية: قال عمر [رضي الله عنه] يأنبي الله : مما بقي أو مما مضى ؟ ..
قال : مما مضى .

هذا حديث صحيح من معالم نبوته ﷺ .. يرويه عنه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، وله عنه طرق .. قال الخطيب رحمه الله تعالى : قوله : «تدور رحى الإسلام» مثلاً .. يريد أن هذه المدة إذا انتهت حدث في الإسلام أمر عظيم يُخاف لذلك على أهله الهلاك .. يقال للأمر إذا تغير واستحال : قد دارت رحاه .. وهذا - والله أعلم - إشارة إلى انقضاء مدة الخلافة .

وقوله : يقيم لهم دينهم .. أي : ملكهم وسلطانهم .. والدين الملك والسلطان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ [سورة يوسف، الآية : ٧٦] .. وكان بين مبايعة الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان [رضي الله عنهما] إلى انقضاء ملك بني أمية من المشرق نحواً من سبعين سنة» .

قال أبو عبدالرحمن : الصواب : «بين انقضاء» بدلاً من «إلى انقضاء» .

وقال الطحاوي رحمه الله تعالى: قوله: «بعد خمس وثلاثين ، أو ست وثلاثين»: ليس ذلك على الشك ، ولكن يكون ذلك فيما يشاء الله عز وجل من تلك السنين؛ فشاء عز وجل أن كان ذلك في سنة خمس وثلاثين؛ فتهياً فيها على المسلمين حصر إمامهم ، وقبض يده عما يتولاه عليهم مع جلالة مقداره ؛ لأنه من الخلفاء الراشدين المهديين ؛ حتى كان ذلك سبباً لسفك دمه رضوان الله عليه، وحتى كان ذلك سبباً لوقوع اختلاف الآراء ؛ فكان ذلك مما لو هلكوا عليه لكان سبيل من هلك؛ لعظمه، ولما حل بالإسلام منه .. ولكن الله ستر، وتلافى، وخلف نبيه في أمته من يحفظ دينهم عليهم ، ويبقى ذلك لهم»... وانظر موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف ٤/ ٣٥٦ .